د. فهد حجازي

الوظيفة اليهودية

من أرتحشتا إلى بلفور



الوظيفة اليهودية

د. فهد حجازي

الوظيفة اليهودية
من أرتحششتا إلى بلفور

دار الفارابي

الكتاب: الوظيفة اليهودية

المؤلف: د. فهد حجازي

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص. ب: 3181/ 11 – الرمز البريدي: 2130 1107

www. dar-alfarabi. com

e-mail: info@dar-alfarabi. com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2016

كلمة

«اليهودية هي ممارسة عمل شائن من أعمال اليهود، وليس بالضرورة أن يكون ممارس هذا العمل اليهودي يهودي الديانة»... «اليهودي لا يستطيع اكتساب حقوق الإنسان ما دام يهودياً، فالجوهر المحدود الذي يجعل منه يهودياً سوف يتغلب بالضرورة على الجوهر الإنساني الذي كان ينبغي أن يربطه، بوصفه إنساناً، بسائر الناس، وهو يعزله عمن ليس يهودياً. واليهودي يعلن بهذا الانفصال، أن الجوهر الخاص الذي يجعل منه يهودياً هو جوهره الحقيقي الأسمى الذي ينبغي أن يمحى أمامه جوهر الإنسان.. وكذلك المسيحي، بوصفه كذلك، لا يستطيع أن يمنح حقوق الإنسان، ما دام يسلك مسلك اليهود».

كارل ماركس: (المسألة اليهودية، ص 19- 20)

وتنبغي الإضافة أيضاً: «أنّ المسلم كذلك لا يستطيع أن يمنح حقوق الإنسان، ما دام يسلك مسلك اليهود».

المقدمة

لعل من أكثر المواضيع التي شغلت الباحثين في القرنين الماضيين، هو موضوع اليهودية كديانة سماوية محيرة، وكتابها التوراه الذي تراوح الاعتقاد به كونه تاريخاً حقيقياً، أو أنه جمع لأساطير سبقت تأسيس هذه الديانة.

إلا أن أحداً لم يتطرق إلى موضوع الوظيفة التي أسست لأجلها هذه الديانة على أيدي الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد. مرد ذلك يعود إلى النباهة والحرفية التي تصرَّف بها محررو التوراه، حيث إنهم اخترعوا لها تاريخاً يتقدم على زمن تأسيسها بأكثر من 1300 سنة، إذا ما اعتمدنا محاولات المؤرخين المتأخرين (في القرنين التاسع عشر والعشرين) لإسقاط روايات التوراه على حقبات تاريخية حقيقية. وليس من باب المبالغة أن كميات الحبر والورق التي صرفت على الأبحاث والدراسات المتعلقة بهذه المواضيع تصل إلى مئات الأطنان. أما عن الحفريات والتنقيبات الأثرية والبعثات والحروب التي جرت في سبيل الكشف و/أو إثبات صدقية هذه الروايات، فقد كانت من الضخامة والتكلفة التي تكفي لبناء دول بحالها، ولكن هذا الجهد لم يذهب سدىً على أي حال، حيث إن الكثير من الحقائق التاريخية جرى تأكيدها، وتم دحض الكثير من الترهات، وخصوصاً فيما يتعلق بروايات التوراه ما قبل تأسيس المملكة الإسرائيلية الكنعانية الحقيقية بألف عام.

ومن المثير للدهشة أن هذه التنقيبات أحدثت خيبة أمل مرعبة عند مؤيدي روايات التوراه والمتحمسين لها من يهود وغير يهود، ما دفعهم إلى الاعتراف مكرهين بأن كل تلك الروايات هي أساطير تعود إلى تراث شعوب الشرق برمتها، وليس لها علاقة بالديانة اليهودية لأنها سابقة عليها بآلاف السنين، ونذكر منها ألواح الإله إنكي التي تحوي جميع روايات التوراه ومن ضمنها روايات الخلق والطوفان[1]. أما مملكتي إسرائيل وأورشليم، فهما مملكتان كنعانيتان تتكلمان اللغة الكنعانية، وتعبدان آلهة كنعان المتعددة، وهما سابقتان على فكرة تأسيس الديانة اليهودية على يد رسل ملوك

الفرس (قورش وأحشورش وارتحششتا الثالث)، الأمر الذي دفع بأكثر الباحثين تزمتاً لمصلحة الصهيونية واليهودية، أن يرفع يده معتذراً للتاريخ، ومتأسفاً لمن يهمهم الأمر، أن كل ما يعتقدونه هو أضغاث أحلام، وأن «إسرائيل» اليهودية لم توجد على أرض الواقع، وأن اليهود لم يدخلوا مصر ولم يخرجوا منها، وأن جل ما كانه اليهود في التاريخ تمردات مذهبية عبثية، لغائية شخصية، ثم ما نحن عليه اليوم من ثكنة متقدمة للغرب بمجموعة من المغامرين الصهاينة سموها «إسرائيل»، أو الأصح «يزراييل»!

من هنا وجدنا البحث بطريقة أخرى عن مبرر اختراع كل هذه الأسطورة، التي بنيت على السطو على تراث الشعوب التي سبقت، فتعمق البحث حتى وجدنا أن الأمر الوحيد الذي يفهم عبره المبرر الذي أعطى كل هذه الأهمية لهذا الموضوع، هو المبرر الوظيفي. فإن الإمبراطورية الفارسية، بعد قضائها على الإمبراطوريتين البابلية والآشورية، وفي مواجهتها لمصر القوية، كان عليها أن تجد حاجزاً، وموقعاً متقدماً في قلب منطقة المشرق، تتأسس على فكر انعزالي عنصري عن بقية مكونات المنطقة، فكان تأسيس اليهودية على هذه الأفكار، ووضعها استيطانياً على الخريطة الكنعانية لأهميتها الاستراتيجية في قلب منطقتها، وعلى خطوط التجارة العالمية، وعند خطوط الإمداد العسكري في سبيل السيطرة على العالم القديم. وهذا هو المبرر نفسه الذي سوف يقوم بعد 2400 سنة حين اعتمد الإنكليز وصفة الفرس القديمة في تحقيق الهدف الاستعماري نفسه، ألا وهي إرسال جماعة وظيفية استيطانية تشكل كياناً عازلاً بين مكونات المشرق من أجل التفرقة والسيادة، وهذا ما حدث.

لهذا سوف يقوم بحثنا هذا على عدة عناوين: يبدأ في الحديث عن تاريخ كنعان حتى تأسيس الديانة اليهودية والبدء بتحرير التوراه، ثم تسليط الضوء على مملكة إسرائيل الكنعانية الحقيقية بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد، يليها تسليط الضوء على مملكة أورشليم الكنعانية التي عاشت بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد. يلي ذلك البحث في تأسيس الديانة اليهودية عبر المندوبين الفارسيين نحميا وعزرا (أليعيزر)، حيث يبدأ التأريخ الواقعي لروايات التوراه التي عايشها محرروها المختلفون، بدءاً من عزرا، وانتهاءً بمحرري التلمود الذين أضافوا وكرروا ما تيسر لهم، حتى غدا هذان المؤلفان خلطة كبيرة من كل ما تيسر من أساطير وتواريخ وتناقضات تحتاج إلى صبر كبير وتجرد رهيب حتى تفهم تفاصيلها ويجري الفصل بين غثها وسمينها، ومن ثم الكشف عن ترهاتها وفضح الكثير من أكاذيبها، وليس أقلها الإتيان على أساطير الآباء المؤسسين

الوهمية التي سبقت تأسيس هذه الديانة بما يفوق الثلاثة عشر قرناً إذا ما اعتمدنا طريقة الباحثين التوراتيين في إسقاط الروايات على الحقب التاريخية.

وكان التجهيز من أجل الوظيفة عبر التوجيه منذ عزرا أن يبقى اليهود ضمن تشكيلة مغلقة لا تسمح لهم بالاختلاط وبالتالي عدم التأثر بمن حولهم، ويكونوا مجموعة متراصة مطواعة جاهزة للاستخدام دون نقاش، وتحت طائلة المسؤولية! **ولكن عملية الانعزال التي بدأت مع عزرا، لم تنجح كلياً إلا في القرون الوسطى، ضمن ما يعرف بالمرحلة الكلاسيكية، التي فرضت بالقوانين الملكية الأوروبية على اليهود أن يخضعوا بالكامل لحاخاماتهم والحفاظ على انغلاقهم، ومصادرة شخصياتهم.** «وقد ضمن أعضاء الجماعة اليهودية بقاءهم داخل التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي لاضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، وهو دور يتطلب عزلة أعضاء هذه الجماعة وبقاءهم بشخصيتهم المستقلة، وذلك حتى يمكنهم القيام بوظيفتهم هذه على أكمل وجه تحت حماية الطبقات الحاكمة التي تستخدمهم كأداة. وهناك أمثلة كثيرة على أقليات دينية إثنية أخرى تمتعت بما يسمى «معجزة البقاء» هذه عبر قرون، دون أن تنصهر في محيطها الثقافي، وذلك لقيامها بنشاط اقتصادي واجتماعي محدد كما تفعل الجماعات الصينية في جنوب شرقي آسيا»[2].

ومن خلال البحث العلمي والمتأني، وبعيداً عن المغالاة الغيبية، يتبين لنا أن **تواريخ التأسيس لهذه الوظائف ترتبط بالفراغ السياسي في المناطق المستهدفة، أما تواريخ السقوط فمرتبطة بالنشاط الإمبراطوري الجديد الذي يسلتزم إعادة التوظيف، أو التدمير إذا استحال ذلك.**

وقبل البدء في بحث الروايات التوراتية، سنمر على مصطلحات ووظائف ضرورية نعمل على شرحها منذ البداية تسهيلاً لقراءة ما سوف يلي من مواضيع، ثم نضيء على المذاهب والحركات اليهودية. وبعد الانتهاء من بحث الروايات التوراتية في مرحلة التأسيس وما بعدها، سوف نورد بعض المراحل المهمة من التاريخ الوظيفي للجماعات اليهودية عبر العالم، ليظهر لنا أنه **ليس هناك من شعب واحد أو أمة متكاملة المواصفات جرى تشريدها عبر العالم، وإنما جماعات دينية متفرقة تغرف من كتب دينية مليئة بالتناقضات، ما يجمعها هي العنصرية والكراهية، وانتظار غيبي لمخلص يعيدها إلى الزمان والمكان الذي تعبده هذه الجماعات، والذي لأجله استخفت بالحياة الحاضرة لها تحت قيادة مستغلة خدمية، جعلت من نتاج الجهد الشرعي والمشبوه لهذه الجماعات منصة انطلاق نحو الماضي السحيق، الذي على الماشيح أن يعيدها إليه ذات يوم!**

ملاحظة ضرورية

من أجل الموضوعية والعلمية وعدم الخلط، سوف نستعمل تسمية إسرائيل بدون وضعها بين مزدوجين للدلالة على مملكة إسرائيل الكنعانية، أما المملكة التي تدعيها الكتب اليهودية فسوف نضعها كما وردت في التوراه والتلمود «يسرئيل». بينما سنورد بين مزدوجين (تشكيكاً) مصطلح «إسرائيل» الحالية. أما بقية التسميات الخاصة بالديانة اليهودية فسوف نوردها كما وردت في كتب اليهود المقدسة، التوراه والتلمود.

الآراميون

إن المرحلة التي تزعم التوراه أن «العبرانيين» تحركوا فيها انطلاقاً من مصر، ليلعبوا الدور المزعوم في سورية الطبيعية، ليست سوى نهاية مرحلة الجفاف التي اختتمت بغزو شعوب البحر وإتمام تدمير دول كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهذه المرحلة نفسها هي التي سجلت خروج الآراميين من البادية السورية حيث وجدوا منذ زمن طويل ليملؤوا الفراغ الذي سببه الجفاف وضعف المراكز القوية، فاستقرت في المناطق الحضرية وأعادت بناء المدن والقرى وإحياءها، مع انحسار موجة الجفاف وعودة المناخ المناسب، وهكذا كان الآراميون قد بدأوا بتأسيس دول قوية امتدت من حوض الفرات الأعلى مروراً بسورية حتى سواحل المتوسط. وفي مرحلة انتقال السيطرة من الحوريين- الميتانيين إلى الحثيين، حيث استولى شوبيلولوما (1380- 1346ق. م) على أملاك الحوريين في سورية، اصطدم بقوة بملك قادش عندما حاول التمدد جنوباً، فهزم الأخير وأسره وعين ابنه أيتوغاما مكانه. ويتابع شوبيلولوما فتحه فيسيطر على إقليم أوبي (الذي تقع دمشق ضمنه) بعد هزيمة ملكه أريوانا، ثم ينهي حملته، كونه أصبح وجهاً لوجه أمام مصر. ويبدو من أسماء ملوك قادش وأوبي الآرية، ومن مراسلاتهما أنهما كانا يعملان لحساب مصر، وكانوا إضافة إلى الممالك التابعة لمصر يشكون من عبد عشيرتة العموري وابنه عزيزو (عازيرو).

وابتداءً من القرن الثالث عشر ق. م تشكلت مجموعة من الممالك الآرامية في منطقة الفرات أهمها بحياني وبيت عديني وحداتو وبيت جوش، وبالتأكيد مملكة دمشق التي تشكل القسم الجنوبي منها. [3]

أصبحت دمشق عاصمة آرام العام 1200 قبل الميلاد، وحلت اللغة الآرامية «اللهجة السامية الأصيلة» محل اللغات التي سبقتها لتصير لغة لبلاد غربي آسيا كلها، حيث انتشرت في بلاد ما بين النهرين وإيران، «وساعدت الفتوحات الآشورية والفارسية على انتشارها حتى أصبحت

لغة الإدارة والتجارة في الشرق القديم وظلت لغة فلسطين حتى في عهد المسيح، وكتبت فيها بعض فصول التوراه. تعددت لهجاتها في السريانية والكلدانية ومنها اللهجة المعروفة حتى يومنا في معلولا وقرى جبل القلمون بسورية»[4]. و«العجيب في انتشار هذه اللغة وصيرورتها لغة البلاد بأجمعها أنها لم تنتشر بفضل عوامل سياسية بل بفضل عوامل تجارية»[5]. وظلت اللغة الآرامية متداولة حتى عهد الإسلام حيث حلت محلها اللغة العربية.

عايش الآراميون فترة القوة الآشورية، منذ مطلع القرن العاشر، وصمدوا لها ثقافياً واستطاعوا التغلغل في مناطق ما بين النهرين باتجاه بابل التي سوف يؤسسون فيها مملكتهم في القرن السابع قبل الميلاد.

مملكة دمشق الآرامية

يظهر اسم دمشق لأول مرة في التاريخ حوالى العام 1450 ق. م. بصيغة (تا-مس-كو) في سجلات الفرعون تحوتموس الثالث، ثم تستمر في الورود في وثائق العمارنة وغيرها من السجلات المصرية بصيغ مشابهة، أما في الوثائق الآشورية فترد بصيغة (دي ماش قي، و دي ماش قو) وغيرها. ولم تكن مدينة مهمة في تلك الحقب. حيث يرد اسمها ضمن المدن التي قاتلت المصريين في مجدو 1450 ق. م. تحت قيادة مملكة قادش، ذلك التحالف المدعوم من الحثيين، والذي جند العابيرو ضمن قواته.

أصبحت دمشق عاصمة آرام وأهم ممالكها منذ العام 1200 ق. م، وكانت حدودها كمملكة هي حدود مملكة أوبي التي تحدثت عنها مصادر عصر البرونز، وتمتد من حدود مملكة حماه في الشمال حتى الجولان جنوباً فالبقاع ضمناً إلى الغرب، وحدود مؤاب وأدوم في شرق الأردن، وكانت دمشق تمارس سلطة نظرية على حلفائها، تتمثل في قيادتها قوات هذه الممالك الحليفة في الحروب وضمان عدم إضرارها بمصالحها. وتعدت هذه الحدود إلى بعض الممالك الكنعانية ومنها مملكة إسرائيل في السامرة، ولكن هذا لم يعنِ وحدة بحال من الأحوال، ولكنه حسبما يقول الباحث فراس السواح: «إن ما صنعته دمشق كان إمبراطورية إسمية غير معلنة، أو فلنقل نظاماً إقليمياً سياسياً خاصاً، يتفق مع المفهوم السوري للسلطة والحكم، ومع نظام الدولة المدينة الذي كان سائداً في بلاد الشام منذ عصورها المغرقة في القدم، والذي لم يتحول في يوم من الأيام إلى إمبراطورية كبرى. فلقد

رأى السوريون في دولة المدينة النظام السياسي الأمثل، الذي يطلق الإمكانات المبدعة للأفراد والجماعات، ويحافظ على مشاركة أكثر فعالية بين السلطة والشعب»[6].

وطد الآراميون سلطانهم في دمشق منذ القرن العاشر قبل الميلاد، وأسسوا سلالتهم الملكية الأولى خلال النصف الثاني من هذا القرن. وقد ترافق صعود دمشق مع انحسار موجة الجفاف وتحسن الحالة الاقتصادية في منطقة شرق المتوسط، واستفادت في ذلك من مرحلة الضعف السياسي في مصر وانشغال الفراعنة في أمورهم الداخلية، ما سمح لبروز ممالك الآراميين وأن يلعبوا الدور الأكبر في مواجهة المد الآشوري الذي كان ضغطه يتركز في حوض الخابور شمال سورية، ما سمح لمملكة دمشق بتطوير قوتها العسكرية والاقتصادية وجعلها تتحكم بطريقي التجارة الدولية النشيطين حينها، وهما: الطريق البحري الذي يصعد من مصر فغزة على طول الساحل الفلسطيني وينعطف نحو يزرعيل (مرج بني عامر) نحو دمشق؛ والطريق الصحراوي، أو طريق الملوك الذي كان يعبر شبه جزيرة العرب حاملاً تجارة أفريقيا والهند إلى شرق الأردن فدمشق. ومن دمشق يصعد طريقان للتجارة الدولية، الأول يعبر تدمر والبادية السورية نحو الرافدين. أما الثاني فيسير باتجاه الأناضول عبر حماه وحلب.

في القرن التاسع قبل الميلاد كان يحكم مملكة دمشق الآرامية الملك هدد عدر الذي قاد مواجهة كبيرة على رأس أمراء المدن السورية منهم جنديبو العربي، ضد شلمنصر الثالث الآشوري سنة 853 ق. م الذي حاول الاستيلاء على سورية وفلسطين، لكن الملك الآشوري هزمهم. ويظهر من حجم القوات تحت إمرة هدد عدر أن دمشق كانت تملك القوة الضاربة، تليها مملكة إسرائيل[7]، ثم مملكة حماه، وكل هذه الممالك تتوضع على خط التجارة الدولية الصاعد من شبه الجزيرة العربية عبر شرقي الأردن نحو الأناضول، وأن بعضها مثل عرقاتا وأرواد كانت تتحكم بطريق التجارة البحرية ومسالكها البرية نحو الداخل السوري. والظاهر أن نتيجة المعركة لم تنته بانتصار الآشوريين في قرقر رغم تبجح شلمنصر، الذي سيعود بعد خمس سنوات إلى مواجهة التحالف نفسه الذي غابت عنه إسرائيل بعد موت آخاب وتولي ابنه يورام[8].

ويبدو أن فترة من الفوضى والاضطرابات أعقبت رحيل هدد عدر الذي توفي في ظروف غامضة، والتي أوقفها القائد العسكري حزائيل الذي يرد اسمه في السجلات الآشورية للعام 841 ق. م. كملك على دمشق، وقد سار حزائيل على خطى هدد عدر في تجنيد حلفائه من أجل مقارعة آشور، «من هنا فقد عمد حزائيل إلى رسم سياسة جديدة تسمح له بالتدخل ضد أية دولة تميل إلى مهادنة آشور ودفع الجزية لها في مناطق غربي الفرات»[9]. ولذلك حمل على إسرائيل ونصب ملكاً

موالياً عليها قبل مواجهته للحملة الآشورية التي كانت تتوجه لمحاصرة دمشق عبر الالتفاف عليها باحتلال الساحل السوري، وكانت الموقعة قرب جبل حرمون، التي لم ينتج عنها هزيمة حزائيل الذي انسحب إلى مدينته، فقام شلمنصر بإحراق أشجار الغوطة وبعض القرى في حوران.

ارتقى بن هدد بن حزائيل عرش دمشق عام 800 قبل الميلاد، في وقت بدأت فيه أوضاع آشور بالاستقرار مع وصول هدد نيراري الثالث ابن شلمنصر إلى السلطة، والذي راح يعد لغزو بلاد الشام، ويبدو أن يهوآش ملك إسرائيل تنفس الصعداء لضيقه من سطوة بن هدد الدمشقي، فتحضر لموالاة آشور، وحاول عبثاً استرداد بعض مناطق شمال شرق الأردن، فهزمه بن هدد وعزله، ثم تابع هذا الأخير توسعه شمالاً على رأس تحالف من سبع مدن ليطاول مملكة حماه التي كانت موالية لآشور والتي فر ملكها زاكير إلى حاتريكا عاصمة لوعاش، ولكن بن هدد وحلفاءه لم يسقطوا حماه، فارتدوا لمواجهة هدد نيراري الذي عبر الفرات نحو الجنوب سنة 796 قبل الميلاد. وكان من نتائج حملات هدد نيراري استنزاف مملكة دمشق وخضوعها في عهد شلمنصر الرابع على يد القائد الآشوري شمسي إيلو سنة 773 قبل الميلاد، بعد عزلها عن حلفائها، ودفعت الجزية لآشور، وفقدت دورها الإقليمي المؤثر. وكان من أول المستفيدين مملكة إسرائيل تحت حكم الملك يربعام الثاني (797- 753ق. م) ابن يوآش الذي عزله بن هدد[10]..

وفي عهد ملك آشور تغلات فلاسر الثالث (745- 727 ق. م) تم الاستيلاء على الممالك الآرامية وعلى رأسها دمشق التي كانت تحت حكم الملك رصين (أوريدن) سنة 732 ق. م وجعلها ولاية آشورية أطلق عليها اسم مرزبانة آشورا عربايا. وكان عهد تغلات فلاسر «فاتحة لعصر الإمبراطورية الآشورية التي دامت بعده قرناً من الزمان، وامتدت من إيران في الشرق إلى مصر في الغرب، ومن الأناضول ضمناً في الشمال، إلى أواسط شبه الجزيرة العربية في الجنوب. وقد أسس تغلات فلاسر لسياسة ضم الأراضي المقهورة بالقوة إلى التاج الآشوري، وحكمها بواسطة ولاة آشوريين معينين عليها، يقومون بدور نائب الملك. **كما أسس هذا الملك لسياسة الترحيل المنظم للشعوب المغلوبة، وإحلال جماعات متنوعة محلها يتم اختيارها من الشعوب المغلوبة الأخرى، وقد شملت عمليات التهجير الإجباري أكثر من 100 شعب، بما في ذلك الآشوريين أنفسهم الذين فتحت أمامهم فرص الهجرة والاستقرار في أفضل الأراضي الشاغرة من سكانها. وبذلك تمكن الآشوريون أخيراً، من حكم الممالك الثائرة بعد أن فقدت تكوينها الإثني والسياسي، وبعد أن غيرت آشور الخريطة الديمغرافية للشرق القديم بكامله»**[11].

* * *

تاريخ كنعان

من الجدير ذكره بداية هو أن كنعان، ليست تسمية توراتية كما يعتقد الكثيرون، «فقد استعملها المصريون PEKANAN للدلالة على المناطق الغربية – الجنوبية من سورية، كما نجدها في نص إدريمي ملك ألالاخ خلال النصف الأول من الألف الثاني ق. م»[12]، والمصطلح نفسه استعمله الإغريق، و«كان بعض الفينيقيين من شمال إفريقيا في العصر الروماني يتباهون كونهم كنعانيين»[13].

وكنعان هي سورية بين الجبال والبحر (الساحل السوري) مع امتدادات نحو الداخل كما في فلسطين (وليس ما يشير إلى امتدادها في الداخل السوري). وقد عرفت بلاد الشام بأكملها في النصوص الآكادية في الألف الثالث ق. م على أنها «أمورو»، كما تطلق هذه النصوص على شرقي البحر الأبيض المتوسط (بحر أمورو)، وتأتي هذه التسمية نسبة إلى الشعب الأموري أو العموري، وهو أول شعب «سامي»[14] رئيس في سورية وفلسطين. ويرى بعض الباحثين أن الكنعانيين انبثقوا من العموريين انبثاق اليبوسيين من الكنعانيين.

ويجمع أغلب المؤرخين على أن تسمية الكنعانيين أطلقت على عرب فلسطين، نتيجة لاشتهارهم بصبغة الأرجوان، التي كانوا يستخرجونها من أصداف الموركس. و«المصطلح كيناخّو في النصوص الأكدية له معنى «الأحمر الأرجواني»، وتسمية «كنعاني» في اللغة الآشورية – البابلية «كنعن» اشتقت من هذا المصطلح الأحمر الأرجواني كيناخّو (أو كيناعو) وليس العكس... من المؤكد جداً أن الكنعانيين لم يكونوا من السكان الأصليين، لكن تاريخ وفودهم إلى سورية وفلسطين ولبنان كان موضع نقاش كبير. لقد جرى التأكيد أن الساميين دخلوا كنعان بالتزامن مع احتلال الأكديين (الميزوبوتاميين) لشمال وادي دجلة والفرات، يعني حوالى العام 2350 ق. م، وما نعرفه بالتأكيد أنه في القرن الرابع عشر ق. م في رسائل تل العمارنة، كان سكان المدن – دول

الصغيرة في سورية وفلسطين ولبنان يطلقون على أنفسهم اسم كيناخو أو كنعانو، إذن كنعانيون»[15]. بينما يشير عبد الرحمن المزين إلى أن الاسم أطلق على سكان الساحل السوري، أما سكان المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل فأطلق عليهم اسم «العموريون»[16]. واستعمل الكنعانيون أنفسهم كلمة كنعاني للدلالة عليهم في بعض الأحيان.. ويؤيد ذلك نص الملك أدريمي ملك ألالاخ، وهي مملكة كنعانية ازدهرت في شمال غرب سورية قرب أنطاكيا، وذلك في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد[17].

وقد ورد في الموسوعة الفلسطينية أن بعض الباحثين يرون أن اسم أرض الملوريا – وهو أحد مرتفعات القدس – صححه العلماء على أنه أرض العموريين أو الأموريين.

أما أقدم الأسماء المعروفة لفلسطين حسب مظفر الإسلام خان في كتابه «تاريخ فلسطين القديم» فهي: «خارو» للجزء الجنوبي، و«رتينو» للجزء الشمالي، وهما الاسمان اللذان أطلقهما قدماء المصريين. ثم سميت البلاد «أرض كنعان» أو كنعان، كما نصت عليها تقارير قائد عسكري عند ملك «ماري»، ووجدت بوضوح في مسلة «أدريمي» ملك ألالاخ (تل العطشانة) من منتصف القرن الخامس عشر ق. م. وأقدم ذكر لهذه التسمية في المصادر المسمارية من «توزي» يعود تقريباً إلى الفترة نفسها. وهذه الصيغة تقارب كثيراً الصيغة التي وردت في رسائل «تل العمارنة». ويذكر الدكتور فيليب حتى في كتابه «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» أن اسم كنعان أطلق في أول الأمر على الساحل وغربي فلسطين ثم أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية[18]. وينقل الباحث فيصل الخيري عن كتاب «تاريخ إسرائيل» للبروفيسور روبنسون، أن الاسم «كنعان» يستخدم في بعض الأحيان كلفظ له طابع الشمول، يميز سكان فلسطين الذين سكنوها منذ القدم، ويبدو أنه يشمل «الفينيقيين»، وهكذا فإن الاسم الذي سبق الاسم «فلسطين» بكل أشكالها اللفظية، أو الاسم الرئيس بين أسمائها السابقة هو الاسم «كنعان» وهذا الاسم أو الكلمة لا يزال حياً حتى الآن».

ولما نزل الفلسطينيون (أو الباليستا)، وهم – على ما يبدو أقرباء الكنعانيين[19] إلى الساحل الكنعاني الجنوبي أثناء هجمة شعوب البحر حوالى 1185 ق. م، دعي الساحل باسمهم «فلسطين» وأطلقت هذه التسمية من قبيل تسمية الكل باسم الجزء. وقد ورد ذكر اسم «الفلسطينيين» في عدد من المصادر المصرية، وخصوصاً على اللوحات الجدارية لمدينة «هابو» من أيام «رعمسيس الثالث» حيث سماهم المصريون باسم «Pist»، كما ورد ذكرهم في المصادر الآشورية في صيغتين

متقاربتين، فغالباً ما يكون أصل كلمة فلسطين «فلستينا» التي ترد في السجلات الآشورية في أيام الملك الآشوري «أدد نيراري الثالث 800 ق. م»، إذ يذكر هذا الملك على مسلته أنه في السنة الخامسة من حكمه أخضعت قواته «فلستو» وأجبرت أهلها على دفع الجزية، وفي عام 734 ق. م جعل الملك «تغلات فلاسر الثالث» أرض فلستيا هدفاً له.

وعلى أية حال يستنتج من النصوص المختلفة أن المقصود من هذا المصطلح «الساحل الفلسطيني»، الأرض الفلسطينية الممتدة بين سيناء جنوباً وغور الأردن شرقاً، وقد استعمل الإغريق هذا اللفظ بادئ الأمر للدلالة على المنطقة الساحلية، وتتركز صيغة التسمية عند المؤرخ اليوناني هيرودوتس 484 – 425 ق. م على أسس آرامية «بالستاين»، ونجد عنده أحياناً أنه اسم يطلق على الجزء الجنوبي من سورية أو سورية الفلسطينية بجوار فينيقيا وحتى حدود مصر[20]، مع أن هيرودوت يعتبر أن الفلسطينيين هم سوريون إبان الفترة التي زار فيها المنطقة في أواخر القرن الخامس ق. م، وكان هو الذي أطلق على المنطقة التي احتلها الفلستيون اسم «فلستيا Philistia وكانت تشمل خمس مدن ساحلية أساسية: أشدود (العاصمة) وعسقلان وغزة وعقرون (عاقر) وجات. لكنهم استوطنوا أيضاً مدناً داخلية وأسسوا مدينة اللد»[21]. وقد استعمل هذه التسمية بعد ذلك عدد من كبار المؤرخين أمثال: سترابو وديودوروس الصقلي وبطليموس وبليني. ومع مرور الزمن حل الاسم «بالستين» محل الاسم الشامل «سورية الفلسطينية»، وأصبح اسم فلسطين في العهد الروماني ينطبق على جميع الأرض المقدسة، وقد صك الإمبراطور فسباسيان هذا الاسم على نقوده التي أصدرها عقب القضاء على تمرد اليهود عام 70م، وبذلك أعطاها الصفة الرسمية، وورث البيزنطيون هذا الاسم عن الرومان، ومن «بالستين» انبثقت كلمة فلسطين العربية[22].

ما يهمنا تأريخياً في بحثنا هذا، هو تاريخ الهجرات، وعليه، علينا توضيح تاريخ المرحلة التي سبقت والتي عاصرت مراحل الادعاء التوراتي – التلمودي بالنسبة إلى هجرة الآباء الأوائل لليهود ومن تلاهم، ولذلك فسوف نشدد على المرحلة الشامية (1300– 1200 ق. م) من تاريخ المنطقة بما فيها كنعان موضع البحث. ويهمنا أن نبدأ منذ نهايات الألف الثالث قبل الميلاد حيث نجد أنه ومع نهاية المناخ البارد المطير الذي ساد منذ أواسط الألف الرابع ق. م. تبعه مناخ حار وجاف استمر حتى مطلع الألف الثاني ق. م. حيث استطاعت المدن الكبيرة في سورية عبور الأزمة بصعوبة كبيرة، أما في المناطق الحساسة للجفاف، فقد أخذ المزارعون فيها بالتحول إلى الحياة الرعوية تدريجاً. «وتشير النصوص المسمارية في وادي الرافدين إلى تحركات بشرية مستمرة من المناطق السورية باتجاه الشرق... وخلال هذه الفترة بالذات، تم نزوح أعداد كبيرة من سكان

المناطق الواقعة على حدود البوادي، ممن تحولوا إلى حياة الرعي المتنقل، نحو الجزيرة العربية حاملين إليها اللغة السامية». [23]

وتشير الحفائر إلى أن هناك وافدين جدداً من سورية الشمالية، ينتمون إلى سكان فلسطين الذين استقروا قبلهم بآلاف السنين، ويبدو أن الوافدين الجدد، هم عموريون من القبائل المتجولة التي لم تستقر بعد، وهؤلاء وصلوا إلى دلتا النيل. وقد تزامن ذلك مع بداية عصر البرونز المتوسط. ويعتقد بعض الباحثين أن الدافع لذلك اقتصادي، وربما كان لحصول جدب في منطقة الشرق الأدنى بأسره. وقد أشار إلى ذلك د. رشيد الفاخوري مستشهداً بتسجيل «الملك أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة في الطريق الجنزي الخاص بهرمه، لأحداث مجاعة شديدة في مصر»[24]. وعهده قريب من توقيت هذه الهجرات، بل وتشير الحفائر إلى أنه «في نحو سنة 2150 ق. م غزا الأموريون (العموريون) فينيقيا وفلسطين، حيث عم الخراب والحرائق معظم المدن»[25]. ساند العموريون الآكاديين – أبناء جنسهم – فسيطروا على السومريين، وأخضعوهم لسلطانهم، وذلك نحو 2237 ق. م. وتظهر فسيفساء، ترجع إلى إمبراطورية حمورابي البابلية (2003– 1950 ق. م) أمراء محليين كانوا يتقاسمون بلاد كنعان «فلسطين وآمور، أو سورية». وكان أهم أولئك الملوك الكنعانيين ملك «يبوس» أو «أورشيليمو».. وكانت تمتد مملكته حتى الكرمل، وهكذا تبدو أورشيليمو، مدينة ملك السلام، معروفة منذ العهد البابلي. وفي جنوب فلسطين في النقب تفيد حفائر «نلسون جلويك» أن النقب كان عامراً بالسكان خلال عصر البرونز المتوسط حيث عثر على «قرى كثيرة صغيرة من الحجر تسكنها أقوام نصف بدوية، منتشرة في كل المنطقة القاحلة التي تقع جنوبي بئر سبع[26]، ويبدو أنهم من قبائل المدينيين الذين انتشروا حول برزخ السويس وفي جنوبي فلسطين وهم الذين أنقذوا «سنوحي»، ومدوا له يد العون وساعدوه في إتمام رحلته عبر فلسطين ثم لبنان، واستقراره أخيراً، في سهل البقاع بسورية. كما أن اسمي ملكي المدينة، ملكيصادق وأدوناي – صادق (نحو 2000 ق. م) هما من أسماء العلم المعروفة في ذلك العهد[27].

مع عودة المناخ المطير من 1950 ق. م. حصلت فترة ازدهار دامت حتى سنة 1550 ق. م، حيث تفنن الكنعانيون في استصلاح الأراضي الجبلية إذ حولوها إلى مسطحات على شكل مدرجات، وهذا النظام لا يزال متبعاً حتى الآن في قرى المنطقة الجبلية من فلسطين، وعلى جانبي نهر الأردن، وسورية ولبنان. وقد أدى استغلال الأرض والاهتمام بالزراعة إلى وجود طبقة من الملاك عرفوا باسم الأشراف والملوك، وكذلك طبقة من المزارعين العبيد. وقد أفضى هذا إلى بناء مساكن تحميهم وتليق بمكانتهم الاجتماعية، وبهذا ظهر نظام خاص بالأشراف وحصون الملوك.

كما ظهرت العمارة التحصينية بشكل واضح وملموس والتي تتكون من الأسوار والمنحدرات والأبراج. وعليه، **يظهر من خلال الحفريات من العصر البرونزي الوسيط أن هناك استمرارية حضارية منذ الفترة الانتقالية والعصر البرونزي المبكر ما ينفي حدوث غزو خارجي يخلخل التركيبة الإثنية للمنطقة. سواء في الفخار أو الفن التشكيلي أو المعماري أو تقنيات السور الدفاعية، وعلى الرغم من أن المنطقة استوعبت وافدين جدداً، لكنها حافظت على الخط الثقافي الكنعاني حتى عصر الحديد**[28].

وفي هذه الفترة ظهرت الدولة البابلية القديمة، تحت لواء أسرة أمورية سورية، ولم يكن الأموريون سوى طبقة حاكمة على مملكة هي استمرار لمملكة أور الثالثة وأكاد من قبلها، وورثت عنها الدين والفنون والآداب واللغة (لم تكن اللغة البابلية إلا الأكادية المعدلة). ومن أهم ملوك بابل الأموريين شمسي هدد الأول. وفي هذه الفترة كذلك، كانت الدلتا المصرية تستوعب أعداداً متزايدة من الآسيويين حتى صارت منطقة شبه آسيوية، ما يدعو للاعتقاد أن الهكسوس لم يفدوا إلى مصر، بل انطلقوا من الدلتا ليحكموا مصر بين 1730− 1570 ق. م (160 سنة).

يمكن تقسيم فترات التاريخ الكنعاني في بلاد الشام إلى ثلاث فترات:

أ - فترة تأسيس المدن الكنعانية (3000- 2400 ق. م)

في الهجرة الثانية، التي جاءت من شبه الجزيرة العربية براً باتجاه فلسطين مباشرة، أسس الكنعانيون، أو سكنوا مدناً برية، مثل قادش وبيت شان وشكيم وأريحا ويبوس وبئر سبع ومجدو والسامرة..الخ، ومدنا ساحلية مثل: عكا ودور ويافا وغزة الخ. وقد كانت المدن تعبِّر عن اسمها الكنعاني «رأس شمرا» والسامرة وهي مشتقة من سام وشام وأصبح سكانها فيما بعد شواماً وشاميين الخ. كما ورد سابقاً، كما وجدت 1200 قرية تعود نشأتها إلى الكنعانيين.

ب - فترة النفوذ المصري (2400- 1500 ق. م)

ابتدأت فترة النفوذ المصري على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، مع بداية الأسرة السادسة، وبالذات أيام ملكها الأول «تتي» (2255 ق. م) الذي جهز جيشاً بقيادة «وني» مكوناً من عشرات الألوف من الجنود. ويعتقد أن هذا الإجراء جاء نتيجة تهديد بقطع خطوط التجارة التي تمر في فلسطين، من قبل جهات متمردة داخل تلك الأراضي، أو من تهديد سومري باحتلال تلك المنطقة،

إذ تزامن إجراء المصريين، مع تحرك لقوات الملك السومري «لوكال زاليزي».. وما تلاها من تحرك لقوات الملك الأكادي «سرجون».. للهيمنة على سواحل المتوسط الشرقية[29].

ولم تنقطع العلاقة بين مصر وفلسطين خلال الألف الثانية قبل الميلاد، تدلنا على ذلك «نصوص اللعنات المصرية» إذ ورد فيها أسماء دول وحكام، ودلت الأسماء على أنها كنعانية. وكان نفوذ مصر قد امتد منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد حتى بلغ سورية والساحل اللبناني باستثناء شمال سورية، إذ كانت داخلة تحت نفوذ أرض الرافدين مثل حلب وقرقميش ثم تحت نفوذ الحوريين.

كان الكثير من ملوك الممالك – المدن الكنعانية يثورون بين الحين والآخر على النفوذ السياسي المصري، ولذلك انتهج فراعنة مصر سياسية عزل الحكام المعادين لهم وتعيين حكام موالين، على أن يدفعوا الجزية في مواعيدها، وكانوا **يأخذون الأنجال الكبار لهؤلاء الحكام رهائن إلى مصر ويضعونهم في «حصن طيبة»، حيث يغرس في قلوبهم حب مصر، وإذا ما مات أحد الحكام كان يسمح لنجله الأكبر بأن يعود إلى بلده ويقوم مقامه، وقد أصبح هذا الأمر تقليداً سارت عليه مصر طوال فترة نفوذها في المنطقة**[30]. وقد بقيت بلاد كنعان تحت السيطرة المصرية حوالى ألف عام، ولم تتخلص من السيطرة المصرية، إلا أثناء حكم الهكسوس لمصر حوالى قرن من الزمن (1674– 1560 ق. م)، مما حقق استقلالاً للمدن الكنعانية. ثم عاد نفوذ مصر في عصر البرونز المتأخر على بعض أجزاء من مدن الساحل الكنعاني العربي.

وفي العام 1955 ق. م قام الفرعون سيزوستورس الأول بحملة على كنعان، وأقام نصباً تخليداً لانتصاراته تحدث عنها هيرودوت قائلاً: «إن النصب التي أقامها سيزوستورس في البلاد التي قهرها قد زال معظمها، ولكني رأيت بأم العين تلك النصب لا تزال قائمة في ذلك الجزء من سورية المسمى فلسطين»[31].

وتدل ألواح تل العمارنة على أن ملوك الممالك الكنعانية كانوا يراسلون ملوك مصر في فترة النفوذ المصري في أرض كنعان، وكانت تلك المراسلات باللغة البابلية وبالخط المسماري، وهي اللغة السائدة في المراسلات السياسية والتجارية في بلاد كنعان آنذاك، وذلك منذ ظهور الدولة البابلية الكبرى في عهد ملكها العموري حمورابي الذي سادت الحضارة البابلية غرب آسيا في عهده واستمرت من بعده في اللغة والكتابة، في حين كانت اللغة العربية القديمة، وهي لغة العرب الكنعانيين لغة التخاطب بين العامة في حياتهم اليومية.

ج - فترة الصراع المصري الحوري الحثي (1500- 1200 ق. م)

بدأت فترة جفاف في عصر البرونز المتأخر 1600، وبلغت ذروتها مع بداية عصر الحديد 1200 ق. م. ووصلت إلى مناطق أوروبا ومنطقة الأدرياتيك. في هذه المرحلة حول المصريون كنعان إلى ممر تجاري لمصلحتهم، يصلهم بسورية وما بين النهرين، وفي فترة العمارنة كان من الصعب على أقوام جديدة من خارج كنعان أن تتشكل قوة محلية بمعزل عن الإرادة المصرية، كما يصعب الحديث عن أمر كهذا لم تتناوله المدونات الضخمة في وثائق تل العمارنة التي تناولت أموراً تفصيلية لا يرد فيها ذكر لأي شيء عن العبرانيين، ناهيك عن دولتهم.

كان الملك الحثي حتوسيل (خاتوشيلي الأول 1570– 1530 ق. م) قد مهد للنفوذ الحثي شمال سورية، عندما أسس إمارة في حلب، واستطاع أن ينفصل بالنصف الشمالي من سورية وينتزعها من النفوذ المصري، وكان ذلك في عهد الملكة (حتشبسوت).. واستطاع النفوذ الحثي أن يتوسع، وبقي كذلك، حتى استطاع الملك (تحوتمس الثالث 1502– 1450 ق. م) أن يسترد النصف الشمالي من سورية. وهكذا استطاع تحوتمس الثالث من خلال سبع عشرة حملة أن ينتصر في آخرها، في معركة مجدو عام 1468 ق. م على جيش كان عبارة عن حلف بين ما يقارب الـ350 دويلة كنعانية، بقيادة أمير قادش. وقد اضطر الكنعانيون للاستسلام بعد حصار دام سبعة أشهر على مدينة مجدو التي اجتمعوا فيها. والجدير بالذكر أن التحالف المضاد للمصريين، كان يتكون من أمراء كنعانيين وأموريين وملوك الميتانيين، وكان يسمى «رابطة القسَم».

بقيت الحروب بين الحوريين والمصريين، حتى بعد وفاة تحوتمس الثالث ومجيء تحوتمس الرابع، ولكنها هدأت وانتهت تقريباً بعد أن تزوج فرعون مصر أمنحوتب الثالث (1400– 1370 ق. م) من ابنة الملك الحوري توشراطا (شوتارنا).. وأنجبا ولداً هو أمينوفس الرابع (أخناتون 1370– 1353 ق. م) الشهير بثورة التوحيد، والذي تنازل لأخواله الحوريّين عن حكم شمال سورية، وقيل إن هذا الاتفاق كان قبل الزواج، فضعف النفوذ المصري.

عاد نفوذ الحوريّين للبروز ثانية، في عهد ملكهم شوبيلوليوما (1355– 1320 ق. م)، «فتنصل الأمراء الموالون للحكم المصري وانضموا إلى الملك الحثي الذي توسع فاستولى على بيروت وجبيل. وكان أهمهم عبد عشيرته الأموري (العموري) الذي نجح في توحيد الممالك السورية مستنداً إلى الدعم الحثي الراغب بإضعاف مصر، وساعده في مشروعه حكام صيدا وأرواد

الفينيقيتين، وأمراء جازر وعسقلان في كنعان، وخذله حاكم أورشليم «الملك عبد حيبا الذي ظل على ولائه لسيده الملك أخناتون»[32]، كذلك ملكا جبيل وبيروت.

ترافقت فترة صعود الفرعون أخناتون ومحاولته تبديل الديانة المصرية نحو عبادة الإله الواحد آتون، وصراعه مع الكهنة الذي انتهى بمصرعه وتولي توت عنخ آمون السلطة وإعادة عبادة آمون. في تلك الفترة كانت الدولة الحثية تنافس مصر في السيطرة على سورية وكنعان، ومعروفة قصة عبد عشيرته العموري وابنه عزيزو (عازيرو) حول توحيد الممالك السورية والفينيقية والكنعانية تحت سيطرته مستنداً إلى الدعم الحثي، وتعج وثائق تل العمارنة بالرسائل من ملوك المدن المذعورين الذين يطلبون النجدة من سيد مصر الغارق في صراعاته مع الكهنة. ووجدت معاهدة عزيزو مع الحثيين ضمن حوليات المملكة الحثية[33].

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن التفاصيل التأريخية التي تعود إلى عهد الفرعون أخناتون، أو عهد أبيه أو خليفته، مع ما تتسم به من التفصيل لأحداث صغيرة وكبيرة، لم تظهر أي أثر لمجهود وزير عبراني حكم مصر نيابة عن الفرعون اسمه يوسيف!

بقي الوضع على حاله حتى اعتلى عرش مصر «سيتي الأول» (1290– 1279 ق. م)، وهو ابن رعمسيس الأول من الأسرة التاسعة عشرة، وقد أدرك خطر الحثيين، فاحتل جنوب فلسطين ومجدو وحوران ولبنان الخ.. وتكررت حملاته، حتى أبرم صلحاً أقرَّ به الحثيون سيطرته على جنوب بلاد الشام، في حين ترك شمالها للحثيين، واستمر الهدوء لمدة قرن من الزمن، حيث هبت العاصفة المدمرة في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بتهديد عنيف تمثل بغزوات الفلستو والآشوريين وشعوب البحر لتدمر مدن بلاد الشام خلال قرنين.

لم يتوانَ حكام مصر القديمة في الحفاظ على الأمن القومي المصري ومصالحهم خارج حدودهم المعروفة، وخصوصاً منذ استيلاء الهكسوس على مصر، وكانوا كلما شعروا بخطر يهدد مصالحهم خرجوا فيما يسمونه حملات تأديب وإعادة إخضاع كانت تصل إلى كنعان وسورية. وما يثبت ذلك هو لوح للفرعون منفتاح (مرنفتاح 1235– 1224 ق. م) في تل العمارنة، يعدِّد عليه مآثر خروجه إلى بلاد الكنعانيين، حيث يقول (اللوح رقم 34025) إنه «أخضع كنعان وعسقلان وجازر وينعام وإسرائيل، ثم إنه: قضى على إسرائيل ولم يبق لها ذرية، ما يعني أن إسرائيل المعنية في حوليات منفتاح كانت قائمة في الوقت الذي كان موشيه التوراتي ما زال تائهاً في صحراء سيناء»[34].

ويرد النص كما يلي:

«أما كنعان فقد آلت إلى كل محنة وبلية:

فأشقلون قد انهارت،

وغزة قد محيت من الوجود.

إسرائيل صار خراباً وقطع دابره

حورو صارت أرملة أمام هجوم مصر»[35]

ويقول الباحث لورنس ستاغر (Lawrence Stager– 1985) في دراسته لنصب مرنفتاح عن السطرين الأخيرين منه، «ويفهم من إيراد الاسم «إسرائيل» في السطر الأول منهما والاسم «حورو» في السطر الثاني، أن الكلمتين قد استعملتا تبادلياً. فكلمة حورو، كما هو معروف من النصوص المصرية العائدة لتلك الفترة، تستعمل للدلالة على منطقة سورية وفلسطين، أو على جزء منها، وقد كتبت في النص هنا وفوقها إشارة تعريف تدل على أنها أرض، أما الاسم إسرائيل فقد كتب وفوقه إشارة تدل على أنه شعب... ويستعين الباحث بتحليل حديث لمشهد... يصور معركة مرنفتاح ضد المدعوين في النص إسرائيل ويرى بأنهم كنعانيون في زيهم وأسلحتهم»[36]. أما الباحث ماكسويل ميللر (1986) **فيؤشر إلى أن إسرائيل في نص مرنفتاح ليس سوى اتحاد لقبائل كنعانية في الهضاب المركزية هي منسي وأفرايم وجلعاد وبنيامين. ومن هنا يظهر أن أليعازر سرق أسماء القبائل الكنعانية القديمة ليؤسس عليها روايته. أما كلمة شعب هنا فيمكن أن يكون أساسها كلمة قبيلة، ترجمها الباحث على أنها شعب، كونه كان مهجوساً بوجود شعب من التوراه اسمه «إسرائيل»، إلا أن فترة ذلك النصب سابقة حتى على روايات التوراه الملفقة.**

وللتنبُّه، فإن تاريخ الهجرات والحروب في هذه المرحلة من الزمن، لا يشير إلى أي عنصر بشري جديد قدم إلى المنطقة الكنعانية من خارجها، يؤكد ذلك المؤرخون الذين أفنوا حياتهم في البحث عن مبرر لإسقاط روايات التوراه على وقائع التاريخ، وعليه، «**فإن علم الآثار لم يتوافر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر ق. م، قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين اتخذ وضعه كأمة مكتمله مع نهاية القرن الحادي عشر ق. م**»[37].

كنعان خلال العصر الحديدي (1200- 100 ق. م)

غزوات شعوب البحر (1200- 1000 ق. م)

مع بداية عصر الحديد، كان الجفاف قد أدى إلى أزمة اقتصادية هائلة، ما دفع بهجرات واسعة، وغزوات عنيفة، منها تلك التي قام بها الدوريون ضد مناطق إغريقيا القديمة، والتي أنهت الحضارة المسينية، فأصبح الأسطول المسيني في البحر بلا موانئ، وانضم إليهم بعض الآريين وعناصر من جزيرة كريت وجزر إيجية، فشكلوا مجموعة توجهت إلى شواطىء آسيا الصغرى وقضوا على المملكة الحثية التي أنهكها الجفاف فأسقطوها[38] سنة 1200 ق. م. رغم مساندة مرنبتاح وأوغاريت لها. ثم تابع الغزاة حملتهم فسيطروا على قرقميش. وفي العام 1182 ق. م، عاودت شعوب البحر هجماتها، هذه المرة باتجاه مصر، «وانضمت إليها بعض القبائل الشاردانية (من سردينيا) واللوكية وبعض القبائل الليبية. عبروا الساحل السوري وسيطروا على كنعان في طريقهم نحو مصر حيث واجههم رعمسيس الثالث (1186– 1155 ق. م) وهزمهم، فانكفأت عناصر منهم إلى شواطئ سورية الشمالية وآسيا الصغرى وجزر البحر الإيجي وسردينيا وإيطاليا»[39]، أما المجموعة التي ضمت قبائل بحر إيجه، فقد هاجمت قبرص وأجبرت بحارتها على الانضمام إليها، وغزت الساحل الفينيقي ثم أتمت تدمير أوغاريت 1180 ق. م، التي كانت ضربتها الزلازل إضافة إلى الجفاف والمجاعة، فجاءت من كريت وقبرص إلى السواحل الشامية، مكونة من قبائل فلستو، والليرية والزاكارية، ثم انضمت إليها القبائل المهزومة من رعمسيس الثالث، لتحتل تلك القبائل مجتمعة عموم الساحل الفلسطيني، فاستولت على عكا وأسدود وعسقلان وغزة، وانضمت هناك إلى المجموعة التي خربت أوغاريت.

تكررت هجمات شعوب البحر ومحاولاتها الولوج إلى مصر، ولم تتوقف إلا في السنة الحادية عشرة لحكم رعمسيس الثالث، حيث قضى على طموحاتها، فعادت كل قبيلة إلى موطنها الأصلي، **باستثناء قبيلة الفلستين التي اندمج أفرادها بسرعة في ثقافة المنطقة، ما يثبت أنهم ليسوا غرباء، يظهر ذلك من الآثار التي تركوها، «فالخزفيات التي وجدت وتعود إلى تلك الحقبة لم تستمر على طابعها الهلليني إلا لفترة قصيرة، ولم تلبث أن عادت لتتخذ الطابع المحلي الكنعاني وتستمر عليه، من الأنماط المعمارية إلى المعتقدات والممارسات الدينية التي تركزت حول آلهة كنعانية قديمة مثل داجون وعشتاروت».** [40] وبناء على نتيجة حروب شعوب البحر،

فقد انقسم الشريط الكنعاني إلى قسمين: الثلثان العلويان للكنعانيين الذين سيصبح إسمهم منذ تلك اللحظة الفينيقيين؛ والثلث السفلي للفلستو. وستتحالف هاتان الكتلتان السياسيتان ضد العموريين فيما بعد.

وفي واقع الأمر، إن كل هذه التفاصيل التي اختصرناها بشدة هنا، لم تظهر أي عنصر من العناصر المدعاة في كتب اليهود، أو ما جهد مؤرخو العهد القديم لإثباته عبثاً!

ما إن زالت الدولة الحثية حتى قام الآشوريون باجتياح جنوب سورية، وقسماً صغيراً من أرض كنعان، إلا أن فترة حكمهم لم تكن طويلة، ففي حدود العام 1000 ق. م قام الفرعون بسوينس من الأسرة الحادية والعشرين بالهجوم من جديد على جنوبي فلسطين واستولى على مدينة جازر الكنعانية وأحرقها. وفي فترة حكم الفرعون شيشانق الأول (950- 929 ق. م) جهز جيشاً قوياً انطلق به من عاصمته بوبيتيس في الشرقية واكتسح فلسطين و151 مدينة في آسيا، فتراكضت الزعامات الكنعانية وولاة فينيقيا إلى كسب ود هذا الفرعون القوي[41].

عاود الملك الآشوري آشور دان الثاني (930- 910 ق. م) محاولاته للسيطرة على كنعان، وتجددت تلك الطموحات مع خلفائه آشور ناصر بال الثاني (883- 859 ق. م) وابنه شلمنصر الثالث (859- 824 ق. م) **الذي كان يأخذ الجزية من المدن الكنعانية، ومن ضمنها مملكة إسرائيل الكنعانية التي تأسست على يد أسرة الملك عُمري سنة 880 قبل الميلاد**[42]. ولما رفضت أرواد الدفع عاد فأخضعها. ثم تلاه أدد الذي غزا سورية عام 805 ق. م وكان بسط السيادة الآشورية على سورية يتمثل بأخذ الجزية، أكثر من كونه احتلالاً. وبقيت الأمور هادئة بين 805 و745 ق. م عندما اعتلى عرش آشور تغلت فلاسر الثالث والذي فرض الجزية على سورية وصيدا وصور، ولكن هذه الأخيرة استطاعت في عهد الملك الآشوري شلمنصر الخامس أن تدمر أسطوله الذي كان يجوب شرقي المتوسط، وأسرت 500 ملاح آشوري.

تصاعد العنف الآشوري في عهد سرجون الثاني (722- 705 ق. م) الذي لم يعد يكتفي بالجزية بل بالاحتلال، وقد قسمت أسرته البلاد إلى ثلاث ولايات صيدا وصور وسميرا.. وقد حرض طبرقا فرعون مصر صور على الانفصال عن الدولة الآشورية، فاستجابت له، لكن الملك أسرحدون كان لها بالمرصاد، وقد سقطت السامرة كذلك في يده العام 721 ق. م. وأكمل خلفه سنحاريب (705- 681 ق. م) الذي عرف بقساوته، حملات التأديب، فحاصر أورشليم[43] سنة 701 ق. م وقمع تحالف المدن الفينيقية الفلسطينية[44].

في المراحل النهائية من عمر الإمبراطورية الآشورية، قامت مصر لاستعادة بعض الممالك الخاضعة للآشوريين، فهاجم فلسطين الفرعون بسميتاك (663- 609 ق. م) «الذي دام عهده أربعة وخمسين عاماً، منها تسعة وعشرون قضاها في حصار أزوتوس، وهي مدينة عامرة في سورية، حتى حاز عليها في النهاية، وقد كان صمود أزوتوس الأطول فيما بلغنا من التاريخ»[45].

وأخيراً، سقطت الإمبراطورية الآشورية عام 612 ق. م على يد البابليين الكلدان، فتنفست المدن الكنعانية الصعداء، لكن الفرعون المصري نخاو (أو نِخَو 609- 594 ق. م) أراد استغلال تلك الضعضعة في الوضع العراقي، فحاول بسط نفوذه على كل بلاد الشام، و«هاجم السوريين في البر واستولى على مجلوس وكاديتس وهي حاضرة عامرة في سورية»[46]، إلا أنه اصطدم بانتباه الملك البابلي نبوخذ نصر (605- 562 ق. م) الذي انتصر على المصريين في معركة قرقميش عام 605م، وكان هذا الانتصار إيذاناً باحتلال بابل لكل بلاد الشام، وصولاً إلى أورشليم التي سقطت سنة 598 ق. م. وقد نصب نبوخذ نصر ولاة وحكاماً إداريين محليين إلا أنه سرعان ما استبدلهم ببابليين.

عاد نبوخذ نصر إلى أورشليم مرة أخرى عام 586 ق. م وحاصرها، فيما دفعت بقية الممالك الجزية وخضعت لبابل ومنها غزة ومجدو ويافا وبئر السبع وعسقلان، باستثناء صور التي قاومت حتى خضعت عام 584 ق. م[47]، **أما أورشليم فكان مصيرها التدمير سنة 578 ق. م، واستبدل سكانها، كما كان يحدث مع المدن المتمردة. وهكذا طويت صفحتا إسرائيل وأورشليم الكنعانيتين اللتين استغلهما محررو التوراه في تلفيق رواياتهم، دون أن يعرفوا التواريخ المضبوطة ولا الأسماء والوقائع الحقيقية، ولم تكن الديانة اليهودية قد تأسست، لأن هذا الفعل سوف يأتي في ظل الإرادة الفارسية كما سيأتي، فقد أظهرت التنقيبات الأثرية أنه «لا يوجد أثر للمعتقد الديني التوراتي في منطقتي إسرائيل ويهوذا، وفي بقية أنحاء فلسطين، خلال الفترة السابقة على السبي البابلي، والديانة التي سادت هنا هي ديانة كنعانية تقليدية»[48]، حيث ظهر أن المعابد والتماثيل والشارات الدينية هي استمرار لتلك التي كانت سائدة منذ عصر البرونز. أما الإله الكنعاني «يهوه» فقد كان «على ما يبدو المعبود الرئيسي في السامرة ويهوذا إلى جانب آلهة البانثيون الكنعاني الفلسطيني»**، حسب ملاحظة السواح في المصدر نفسه.

بقيت الممالك الكنعانية خاضعة للكلدانيين حتى سقوط بابل سنة 539 ق. م على يد قورش الفارسي (557- 528 ق. م) وسقطت سورية بيده سنة 534 ق. م وظل حكام المدن الشامية

البابليون هم من يحكمون المدن في بلاد الشام باسم الدولة الفارسية. وبعد أن تولى قمبيز (528-522 ق. م) الحكم استبدلهم بحكام فرس (مرزبانات)، وفتح مصر سنة 525 ق. م.

كانت اللغة الآرامية في هذه المرحلة من حكم الفرس لغة الكلام والتجارة، وصرف الفرس اهتمامهم للمواصلات والإدارة وتنظيم الضرائب، وقد صكوا النقود الذهبية والفضية، وانصرف الناس إلى التجارة والزراعة. وعرفت فلسطين كغيرها هدوءاً نسبياً وخصوصاً أن حكم داريوش اتصف بالعدل لا بالبطش والقسوة وانتهى العهد الفارسي بفتوحات الإسكندر المكدوني[49].

فلسطين

«منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد افتقرت فلسطين إلى الحد الأدنى من التلاحم الإثني واللغوي والديني والسياسي، وتوزع من تبقى من سكانها بين جماعات غير متجانسة سيقوا إليها من المناطق المغلوبة الأخرى». [50] **فقد جرى تجميع جماعات متفرقة، ومن أراد العودة من أحفاد المسبيين من أهل المنطقة، لصهرها في بوتقة واحدة وإفهامها أنها وريثة إسرائيل البائدة، من أجل لعب دور وظيفي يخدم مصالح الإمبراطورية الفارسية إلى حين. وقد قام على تنفيذ هذه السياسة «ولاة من يهوذا تدربوا في البلاط الفارسي ووصلوا فيه إلى أعلى المناصب مثل نحميا الذي كان ساقياً للملك الفارسي وموضع ثقته يرافقه في حله وترحاله[51]. وقد تم تجميع هذا المجتمع الجديد حول هيكل إله السماء الفارسي الجديد، بعد أن تم إفهام الجميع من خلال سفر الشريعة الذي أتى به عزرا من بابل، بأن هذا الإله هو نفسه الإله القديم يهوه إله السامرة وإله يهوذا السالفتين، وصار الدخول في هذه العبادة الجديدة شرطاً للانتماء إلى المجتمع الجديد»[52].**

وبالرغم من أن كهنة أورشليم منذ عزرا ابتدأوا بتدوين تاريخ لهذه لجماعة على أنه تاريخ يسرئيل، «**إلا أن تسمية «اليهودي» و«اليهودية» صارت علماً على دين أورشليم وعلى الأفراد المنتمين إلى المجتمع الأورشليمي (المدجن) دون «الإسرائيلي». فكل ما هو «إسرائيلي» ينتمي إلى الماضي، إلى «القصة»، وكل ما هو «يهودي» ينتمي إلى الحاضر، حاضر ذلك المجتمع الجديد الذي يحاول مستميتاً أن يؤكد تلاحمه وتجانسه كشعب مختار من قبل إله السماء. لقد اختار إله السماء هذه الفئات التي تم تجميعها في منطقة أورشليم لتكون له شعباً»[53].**

وهكذا تدخل التوراه التاريخ مع تأسيس ولاية يهوذا الفارسية، **ومن هنا علينا فهم مسألة «السبي البابلي» كمدخل إجباري لتأسيس الإخبارية الوهمية عن تاريخ يسرئيل، حيث تنتصب قصة «السبي» كحلقة وصل لما قبل السبي وما بعده، ثم التأسيس لغائية انعزالية عن سكان**

المنطقة الأصليين، الذين سوف تعتبرهم التوراه كـ«غوييم» (أغيار) ينبغي عدم مخالطتهم ومصاهرتهم ومسالمتهم، لئلا يضيع المصطنع في الأصيل، ويصبح الجهد الاستعماري الوظيفي جهداً خاسراً. ومن هنا، وانسجاماً مع فكرة مؤسس هذه الغائية العنصرية الانعزالية تنبغي دراسة اليهودية على أنها ظاهرة استعمارية غريبة، وليست صفحة جديدة من تاريخ فلسطين القديم. ومع قدوم جماعة الفرس بقيادة عزرا الكاهن ونحميا الوالي، بقي هؤلاء يعملون على نشر المبادئ الجديدة، والنظام الفارسي، ويبدو أنه خلفهم في ذلك كهنة من الأسرة المدعاة نفسها، لأن المؤرخين لا يملكون الكثير عن أخبار اليهود طوال المرحلة التي سيطر فيها الأخمينيون على المنطقة. ومع سقوط فلسطين بيد الإغريق، يبدو أن الوضع استمر على حاله، حتى اندلاع التمرد الحشموني (168- 165 ق. م)، «حين استقلت الأسرة الحشمونية وأصبح كبير الكهنة هو الملك الحشموني، وهو أمر لم يدم طويلاً، إذ ظهر الرومان وبسطوا سيطرتهم على فلسطين»[54].

والأغلب أن التمردات لم تكن حكراً على فئة بذاتها، أو مدينة بعينها. فما بين الأعوام 370- 360 ق. م حدثت ثورة الممالك السورية والفينيقية على الفرس، وتمردت صيدا في العام 350 ق. م حيث دمرها أرتحششتا الثالث سنة 345 ق. م.

ورث داريوش الثالث الحكم بعد مرحلة فوضى في المملكة الأخمينية الفارسية دامت من 338 حتى 336 ق. م وكان آخر ملوك فارس. فقد أخضع الإسكندر المكدوني، المدن اليونانية ثم توجه إلى آسيا الصغرى عام 334 قبل الميلاد لمحاربة الفرس فهزم داريوش في معركة إيسوس 333 ق. م، ومن ثم سورية وفينيقا وكنعان، وبقيت صور تقاوم لمدة سبعة شهور إلى أن دمرها وقتل أهلها سنة 332 ق. م. أما غزة، فقد قاومته شهرين، وقد ساهم الأنباط العرب في الدفاع عن غزة طوال الحصار، وبعد دخولها دمرها وأحرقها، لتتبع فلسطين إلى الحكم الإغريقي.

بنى اليونانيون وجددوا مدناً فلسطينية عديدة منها «يوبا» (يافا)، و«رافيا» (رفح)، و«بتوليمايس» (عكا) و«أزوتوس» بالإضافة إلى العديد من القرى. غير أن سياسة الاندماج التي سعى الإسكندر إليها لم تتحقق، وخصوصاً أن اليونان سكنوا المدن، أما القرى فسكانها ابتعدوا عنهم وعن تقاليدهم وحافظوا على تراثهم، ومن الأدلة على ذلك أنه **على الرغم من أن اللغة اليونانية أصبحت اللغة الرسمية فإن اللغة الآرامية بقيت اللغة المحكية والمتداولة وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح، والتي تطورت منها السريانية، وتعتبر هذه الأخيرة إحدى اللهجات المحكية للغة الآرامية. وفي العهد اليوناني كان سكان فلسطين باستثناء الحكام اليونانيين يتألفون من**

الكنعانيين ومن العرب والآراميين والفلسطينيين (الباليستا) ومجموعات مما تبقى من الأمم الفاتحة السابقة.

بعد وفاة الإسكندر (323 ق. م) تنازع خلفاؤه الملك، وتقاسموا إمبراطوريته، فكانت فلسطين من نصيب أسرة لاجوس (اللاجيون) الذين عرفوا بالبطالسة، من العام 323 وحتى العام 198 ق. م حين ضمها أنطيوخس إلى سورية، واستولى على كنوز معابد الكنعانيين. وخلال هذه الفترة طبعت فلسطين بالطبعة الهللينية، حيث تم إنشاء 70 مدينة في الشرق على الطراز الإغريقي لنشر الثقافة الهللينية وتأمين طرق المواصلات، وقد جمعت المدن الكثير من الجنود والتجار والعلماء والفنانين والعبيد. ومن هذه المدن: «بيلاوديون» (تل الأشعري)، و«هيبوس» (قلعة الحصن) وتقعان شرقي طبريا، و«فيلوتر» جنوب طبريا. وغير الإغريق الكثير من أسماء المدن الكنعانية بأسماء هلينية مثل عكا التي سميت بتولوميا نسبة إلى بطليموس، وبيسان التي سميت سكيثوبوليس.

حاول السلوقيون (نسبة إلى سلوكوس) صبغ اليهود بالصبغة الهللينية الإغريقية وأرسل أنطيوخوس سنة 167 ق. م أحد قادته وكلفه إلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بالإله زيوس الأوليمبي عن الإله يهوه، وعيّن لهم كاهناً إغريقياً وثنياً في القدس، وحرّم الختان واقتناء الأسفار المقدسة وأوجب أكل لحم الخنزير. وبموجب هذه الأوامر انقسم اليهود إلى قسمين: قسم ترك الشريعة وتبع العبادة اليونانية، قناعة أو قسراً، وعرفوا بالمتهلنسين وأقاموا في القدس والمدن الإغريقية؛ وقسم آخر أقل عدداً هربوا من القدس وأطلق عليهم اسم حزب القديسيين واعتمدوا لقيادتهم متاثياس (متابيه) كبير عائلة الحشمونيين والذي مات بعد فترة قصيرة، فخلفه ابنه يهوذا الملقب المكابي (أي المطرقة)، وقد ثار على السلوقيين وشكل لهم إرباكات كثيرة ما بين 168-165 ق. م، وانضم إليه قسم كبير من المترددين اليهود، وهذا ما دفع أنطيوخس الرابع لوقف اضطهاد اليهود فسمح لهم بممارسة دينهم جنباً إلى جنب مع أنصار التأغرق. وعاد المكابيون إلى القدس في 25 كانون ثاني/ يناير سنة 164 ق. م ولا يزال اليهود يحتفلون بهذه المناسبة تحت اسم عيد الأنوار «حانوكا»، إلا أن هذا التمرد تكرر مراراً حتى العام 142 ق. م، وكان يتمتع بدعم العرب الأنباط والبطالمة في مصر. وعلى ذمة يوسف فلافيو[55]، فقد تأسس للحشمونيين بعد ذلك حكم ذاتي في القدس أخذ يتسع أو يضيق ويلعب على تناقضات الصراع بين القوى الكبرى على فلسطين (الرومان – البطالسة – السلوقيون..)، وقد توارث الكهنة المكابيون السلطة، ومن ثم أطلقوا على أنفسهم لقب الملوك رغم أنهم كانوا تابعين ويدفعون الخراج للسلوقيين. وفي سنة 143 ق. م

أعفى الإمبراطور ديمتريوس الثاني اليهود من الضرائب، وأعطى لقب حاكم لشمعون (حاكم الحشمونيين)، إضافة إلى حق صك النقود.

سقطت «دويلة» الحشمونيين على يد بومبيوس (سنة 63 ق. م). ونصّب هيركانوس الثاني كبيراً للكهنة اليهود، وحطم أسوار القدس.

وفي الفترة 47– 40 ق. م دخلت القدس تحت سيطرة حاكم أدومية انتيباتر، وفي 40 ق. م هاجم الفرثيون (الفرس) فلسطين ونصبوا أنتيغونس أخا هركانوس الثاني حاكماً وكبيراً للكهنة، استمر حكمه ثلاث سنوات وكان هو آخر حكام الأسرة المكابية. وفي سنة 37 ق. م انتصر الرومان على الفرثيين، واستعادوا السيطرة على فلسطين ونصبوا هيرودس ابن أنتيباتر حاكماً، فتهوّد محاولاً استرضاء اليهود عبثاً، وكان طاغية شديد الولاء للرومان. وبعد موته عين الحاكم الروماني خلفاءه أنتيباس فأغريبا، وبعد انطلاق ثورة يسوع المسيح والحكم بصلبه، استمرت الاضطرابات، واستمر الصراع على السلطة، إلى أن كان الانفجار الكبير الذي جرى عبره القمع الدموي للتمرد على يد تيتوس ابن الإمبراطور فسباسيان الذي خلف نيرون، وأحرقت أورشليم (سنة 70 للميلاد).

وفي عام 132– 135م قام اليهود بقيادة بار كوخبا بثورة في زمن الإمبراطور الروماني أدريانوس الذي دمر أورشليم وبنى مكان الهيكل المزعوم معبداً لجوبيتير وغير اسم أورشليم إلى إيليا كابيتولينا وتخلص من اليهود بالقتل والتعذيب والنفي، وبدأ ما يعرف بعصر الشتات أو الدياسبورا. والجدير ذكره أن الرومان قمعوا التمرد في فلسطين، «إلا أن اليهودية كدين في الإمبراطورية لم تتعرض لمضايقات، وحافظت على سلطة السنهدرين (السندريون، المحكمة الروحية) والبطريرك»[56].

القدس

على ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة، فإن أول اسم عرفت به، هو الاسم الذي سماها به سكانها الأصليون «الكنعانيون» وهو «يرو شالم» أو «يرو شلم»، وشالم وشلم اسم لإله كنعاني معناه السلام. وربما ورد أول ذكر لمدينة القدس كتابة في الوثائق التي عثر عليها في «عبلاء» (إيبلا) تل مرديخ في شمال سورية، وهي وثائق مكتوبة على ألواح من الآجر بالخط المسماري وبلغة سامية غربية، وترجع إلى أواسط الألف الثالث ق. م، وترد في الوثائق أسماء عدة مدن منها «سالم» التي يرجح البعض أنها تشير إلى القدس. لكن أول اسم ثابت لمدينة القدس وهو

«أوروسالم» أو «أوروشالم» إنما ورد فيما يسمى بنصوص اللعنة[57]، وثبت أن تاريخ تلك الأواني يرجع إلى فترة حكم الفرعون «سيزوسترس الثالث 1878– 1842 ق. م»، وكانت كلها أسماء تسع عشرة مدينة كنعانية من بينها أوروسالم. وبعد نصوص اللعنة بحوالى خمسمئة عام، ظهر اسم أوروسالم مرة ثانية في ألواح تل العمارنة، وهي ست رسائل بعث بها «عبدي خيبا» ملك أوروسالم في القرن الرابع عشر ق. م، إلى فرعون مصر «إخناتون» يشكو فيها من الخطر الذي تتعرض له مدينته من جرّاء هجمات ما يعرف بالعبيرو[58] وعلى منهج المدن – دول الفينيقية نفسها التي كانت تتوسل النجدة من مصر ضد عبد عشيرته العموري وابنه عزيزو (أو «عازيرو»)، الذي كان يحاول توحيد الممالك السورية.

وهناك من يذهب في أصل أوروسالم أو أوروشالم إلى أن الاسم مكون من مقطعين «سالم أو شالم» وهو اسم إله، وأورو: وهي كلمة تعني أسس أو أنشأ، فيكون معنى الاسم «أوروسالم» أسسها سالم، ويعتبر الاسم اسماً عمورياً، بدليل أن أول اسمين لأميرين تاريخيين من القدس هما: «باقر عمو» و«سزعمو» وهما اسمان عموريان، والعموريون كما أسلفنا هم سكان كنعان الأصليون، ولغة العموريين تدعى غالباً الكنعانية، كما أن اسم الكنعانيين يشمل العموريين أحياناً. كما أن «سليمو أو سالم» ذكرت في سجلات «سنحاريب» ملك أشور في عداد المدن التي تدفع له الجزية، وقد ظل اسم أورشليم شائعاً منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا ومنه جاء الاسم الإفرنجي «جيروزاليم».

ومن أسماء القدس القديمة أيضاً «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين، وهم كما ذكرنا فرقة من الكنعانيين سكنوا القدس وحولها، وذكر بعض الباحثين أن اليبوسيين لم يكونوا سوى أسرة أرستقراطية تعيش في القلعة وفي عزلة عن سكان البلدة نفسها، ومن المحتمل أن يكون اليبوسيون هم الذين أصلحوا التحصينات القديمة على الأكمة، وقاموا ببناء الحي الجديد على المنحدر الشرقي بين السور وقمة التل. وفي هذه الفترة أخذ اسم «يبوس» و«اليبوسيين» يظهر في الكتابات الهيروغليفية، ويبدو أن اليبوسيين قد تلوا العموريين في سكنى المدينة خلال النصف الأول من الألف الثاني ق. م، وأطلق على القدس اسم «يبوس» وهو الاسم الثاني لمدينة القدس بعد أورشاليم، وقد سماها الفراعنة في كتاباتهم الهيروغليفية «يابيثي» و«يابتي» وهو تحريف لاسم يبوس الكنعاني اليبوسي.

وفي رأي انفرد به الأستاذ محمود العابدي في كتابه «قدسنا» أن اليونانيين سموها «هروسوليما»، ولكن مؤرخهم «هيرودوتس» سماها «قديس» كما سمعها من سكانها العرب المعاصرين له.

وفي زمن الرومان حول الإمبراطور «هادريان» مدينة أورشليم بعد أن استولى عليها ودمرها عام 122 م إلى مستعمرة رومانية، وبدَّل اسمها إلى «إيليا كابيتولينا»، وصدر الاسم إيليا لقب عائلة هادريان، وكابيتولين جوبيتر هو الإله الروماني الرئيس، وظل اسم «إيليا» سائداً نحو مئتي سنة، إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين (272– 337م) فألغى اسم إيليا وأعاد إلى المدينة اسمها الكنعاني، ولكن الظاهر أن اسم إيليا شاع وظل مستعملاً، كما نجد ذلك في العهدة العمرية والشعر العربي. وبعد الفتح الإسلامي أطلق على هذه المدينة أسماء: القدس، وبيت المقدس، والبيت المقدس، ودار السلام، وقرية السلام، ومدينة السلام[59].

العابيرو أو الخابيرو

نظراً للخلط الذي يجريه مفسرو التوراه والتلمود والمؤرخون الذين حاولوا عبثاً إيجاد رابط قديم يبرر مصطلح العبرانيين الوارد في هذه الكتب، فإنه من المفيد الإضاءة على تاريخ جماعات العابيرو أو الخابيرو، كما وردت في نصوص التاريخ القديم الموثقة. فقد وردت تسمية العابيرو في النصوص السورية، وورد ذكرهم في وثائق إيبلا قبل 2300 ق. م، أو الخابيرو (في النصوص الرافدية)، لذلك لايمكن الاعتبار (رغماً عن أنف أولبرايت الذي يحاول إسقاطها على عصر أبرام) على أنهم القوم الذين تحدر منه أبرام التوراتي، لأن الغالب في تسمية «عبريم» تعود إلى عبور موشيه البحر من مصر، أو نهر الأردن من قبل أشعيا عبر «خبرية» أخرى! **أما في العصر البرونزي الوسيط (1955– 1550 ق. م) فقد ورد الاسم، وهو يعود إلى جماعات كانت تشكل «خليطاً من أجناس شتى: عمال مأجورون، طفار، قطاع طرق، لصوص، مشردون، مرتزقة. كانوا فئة اجتماعية وليسوا فئة عرقية** (من هنا يمكن استنتاج أن الهكسوس جماعة من الخابيرو الذين وجدوا قيادة تلاحموا تحتها فقادتهم إلى الدلتا)[60].

ويصل المؤرخ فيليب حتي إلى النتيجة نفسها، وهي أن **كلمة خابيرو «لا تدل على أنها اسم لعرق أو جنس بعينه وإنما هي تسمية أطلقت على جماعات من الرحل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم»**[61]، وذكر برستد أنهم «بدو ساميون كانوا يعملون كجند مرتزقة في صفوف الدول المتعددة في غرب أسيا»[62]. يظهر مما تقدم أن العابيرو هي صفة لجماعة من الصعاليك، وليست تسمية لقوم أو شعب، وليس هناك أي رابط بين الخابيرو والعبرانيين الذين جعل اليهود منهم اسماً وأصلاً لهم، لا من حيث التسمية ولا من حيث الأصل ولا من حيث الزمن، فالخابيرو/ العابيرو أسبق زمنياً من العبرانيين الذين خرجوا من مصر باتجاه أرض كنعان. **وإذا كان عزرا ونحميا قد جاءا بهذه الجماعة أثناء**

وفودهما إلى فلسطين من أجل تأسيس الديانة العازلة، وهذا أمر ممكن، فكان على عزرا ألا يخترع لهذه الجماعة أصلاً يضرب في التاريخ حتى أبرام، اللهم إلا إذا كان يقصد أن أبرام التوراتي كان أحد أفراد هذه الجماعة، وبالتالي لن يعترض أحد إلا على طريقة استجلاب أبرام في التوراه كمعترض على ملك زمانه، ثم تحدّره من سلالة معروفة مما يتناقض مع هويات الجماعات الهامشية، كالصعاليك والهيدوك والعابيرو.

أما أسماء العابيرو في نصوص العمارنة فتذكر أسماء من أصول مختلفة، ملكيلو (ملك إيلو)، ومنها أسماء هندأوروبية (شورداتا و لابايو) ما يظهر أنهم جماعات غير متجانسة، لذلك لا يمكن أن يكونوا عنصراً واحداً يمكن أن يشكل أصل «العبريم» التوراتي[63].

وينقل أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ عن فرويد (اليهودي) قوله في كتابه «موسى والتوحيد»: «نحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام 1887م في سجلات مدينة العمارنة المتهدمة، فهي تسميهم باسم عابيرو.. لسنا ندري كيف أطلق هذا الاسم على الغزاة اليهود العبرانيين الذين لم تذكرهم رسائل العمارنة..»[64].

وفي رسالة وجدت في كامد اللوز البقاعية (كاميدو) تعود إلى نهايات عهد العمارنة يطلب فيها الفرعون من زلايا ملك أوبي (دمشق) «أن يبعث بفريق من جماعات العابيرو المرحلين من المنطقة لإسكانهم في النوبة بمصر العليا»[65] ويظهر أن هؤلاء العابيرو هم جماعة جزيرة الفيلة التي سوف نبحثها بشكل منفصل.

ولعل التوراه ذاتها تحمل تناقضاً يغني عن التشكيك كثيراً بأصل الرواية عن أصل اليهود: «حيث تصفهم في التكوين بالعبريم»[66]، أما سفر التثنية فيصفهم بالآراميين «.. ثم تصرخ وتقول لا أمام الرب: آرامياً تائهاً كان أبي، فانحدر إلى مصر...»[67].

جالية جزيرة الفيلة (في وسط النيل قرب أسوان)

عاشت في هذه المنطقة جالية من العسكر المرتزقة في الجيش المصري[68]، جاؤوا من منطقة يهوذا الكنعانية، واستقروا مع أسرهم في هذه المنطقة مطلع القرن السادس قبل الميلاد، «وقد حافظت هذه الجالية على عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها السابقة لتكوين المعتقد التوراتي، وتركت لنا العديد من الوثائق الكتابية باللغة الآرامية يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين 495 و 394 ق. م. وهي الفترة ذاتها التي شهدت إعادة سكن أورشليم وبناء هيكل زربابل المدعو بالهيكل الثاني»[69].

ومن خلال الوثائق يظهر أن الجالية أقامت معبداً للإله يهوه، وعندما تهدم طلب رئيس الجالية «جيدانية» دعم حاكمي السامرة ويهوذا الفارسيين «لإعادة بناء هيكل ياهو» الذي يعتبره نظيراً لهيكل زربابل في أورشليم. إضافة إلى طلبه من كهنة فلسطين معلومات حول بعض القضايا العبادية ما يدل على اتصالها بالطقوس المعروفة في يهوذا الكنعانية. ومما يؤكد عدم نسبة هذه الوثيقة إلى الديانة اليهودية هو ظهور ياهو جزيرة الفيلة إلى جانب زوجته عنات ياهو (المقابل لعشيرة يهوه الكنعانية)، إضافة إلى آلهة أخرى (إيشيم وبت إيل)، ما يدل على أن هذه الديانة لا تمت بأية صلة إلى عبادة يهوه التوراتي التي كانت غير متشكلة بعد في صيغتها التوراتية، وبشكل خاص، عدم معرفة أسرار العبادة على وجه اليقين، وطلب المشورة في أمر الطقوس التي يبدو بوضوح أنها وثنية[70].

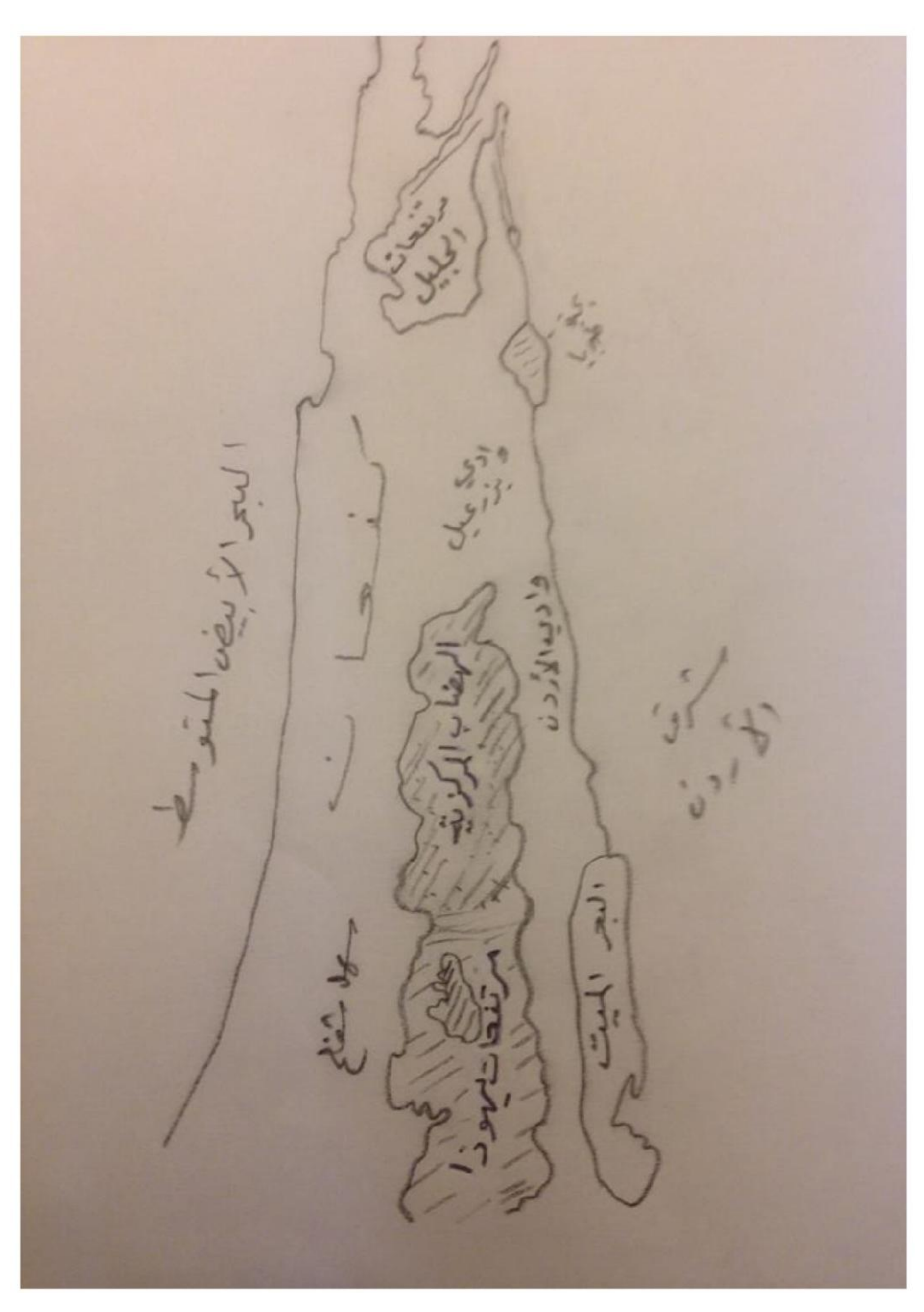
* * *

إسرائيل الكنعانية الحقيقية

من أجل قطع دابر الخلط بين ما هو تاريخي وما هو انتحال للتاريخ من أجل غائية إيديولوجية انتهازية، سوف نبدأ هنا بتحرير تاريخ مختصر لمملكة السامرة الكنعانية (إسرائيل الكنعانية)، والتي سوف نستند إلى عرضها بطريقة علمية اعتماداً على التنقيبات الأثرية والوثائق التاريخية فقط، بعيداً عن الروايات الدينية التي أثبتت عدم واقعيتها.

في البداية ينبغي وضع خريطة ديموغرافية للمنطقة مدار البحث، لتتضح الصورة على أكمل وجه. وعليه نرى أن عودة الاستيطان إلى منطقة يهوذا وبنيامين، مع الانحسار التدريجي لموجة الجفاف في المنطقة، قد سارت بشكل غير متواز مع عودة الاستيطان إلى منطقة إسرائيل (الهضاب المركزية)، وذلك من حيث الجدول الزمني لهذا الاستيطان، وأصول المستوطنين الجدد، والبنية السياسية التي جمعت القرى الجديدة إلى بعضها في النهاية. قبل العام 1200 ق. م كانت مرتفعات يهوذا فيما بين أورشليم شمالاً وحبرون في الجنوب خالية تقريباً من السكان وذلك فيما عدا موقعين صغيرين هما خربة رابوض وبيت زور. وفي عصر الحديد الأول (1200- 1000 ق. م)، استمر السكن في هذه المواقع مع ظهور قرى جديدة وصغيرة جداً توضعت قرب مصادر المياه الدائمة على الأطراف الشرقية لبادية يهوذا... ومع التقدم في عصر الحديد الثاني (1000- 700 ق. م) وخصوصاً في نصفه الثاني، يتزايد عدد المواقع الجديدة بشكل كبير، ويتم سكن المنطقة على نطاق

واسع لأول مرة منذ نهايات عصر البرونز الوسيط[71]. على هذه المساحة، في الهضاب المركزية[72]، بنت أسرة الملك الكنعاني عُمري مدينة السامرة، وهي التي شكلت السلالة التي حكمت دولة – مدينة السامرة (إسرائيل)، على غرار كل الممالك – المدن التي



فلسطين الطبيعية، وتبدو عليها الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا (عن فراس السواح، بتصرف).

انتشرت في سورية وفينيقيا وكنعان. وهذه الأسرة معروفة تاريخياً وملوكها موصوفون في النصوص الآشورية، كما يقول الباحث السوري فراس السواح، «فمع بناء السامرة فقط، يتوافر لدينا من الوثائق التاريخية والأركيولوجية ما يكفي للحديث عن إسرائيل التاريخية، ولكن بصيغة «دولة إسرائيل» أو «دولة السامرة»، وهي دولة فلسطينية محلية أنشأها الملك عُمري حوالى العام 880 ق. م. واستمرّت أقل من قرنين من الزمان، حيث دمرها الآشوريون حوالى 721 ق. م. وسبوا أهلها إلى آشور. وهؤلاء المسبيون لم يرجعوا قط إلى مواطنهم في فلسطين، بل ذابوا عرقياً بين الجماعات التي أقاموا بين ظهرانيها. أما قبل ظهور أسرة عمري وبناء مدينة السامرة، فإنه من العبث التحدث عن إسرائيل سياسية أو إثنية في المنطقة، فلا يوجد في وثائق الشرق القديم ذكر لكيان اسمه إسرائيل بعد دمار مملكة السامرة على يد الآشوريين عام 721 ق. م... أما المقاطعة الآشورية التي قامت في الهضاب المركزية بعد سبي الإسرائيليين وإحلال أقوام جديدة محلهم فقد دعيت بمقاطعة السامرة، والتي استمرت تدعى بهذا الاسم خلال العصر الفارسي والهللينستي والروماني»[73].

وأظهرت التنقيبات الأثرية أنه يصعب التمييز بين ما هو كنعاني وبين ما هو إسرائيلي، حيث وجد المنقبون أن المواقع القديمة مثل مجدو وحاصور وشكيم، وخلال المراحل التي تعود إلى عصور البرونز المختلفة، وحتى عصر الحديد، تظهر آثاراً مادية تشير إلى صورة ثقافة محلية مستمرة وغير منقطعة، «كما تظهر الخزفيات والمخلفات المادية الأخرى في مواقع القرى الجديدة، التي ظهرت إبان عصر الحديد الأول انتماءً للثقافة المحلية وارتباطاً كاملاً بثقافة عصر البرونز الأخير، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمدن التي بنيت في عصر الحديد، ومثالنا الوحيد عليها هو مدينة السامرة، فهنا يبدي كل أثر من آثار تنظيم المدينة وعمارتها وخزفياتها وفنونها التشكيلية انتماءً إلى الثقافة الفلسطينية التقليدية والثقافة الفينيقية المجاورة»[74]، وهذا ما تؤكده المنقبة كاثلين كينيون التي قضت حياتها تحفر في القدس وأريحا لتصل إلى حقيقة أنه «**لا يوجد وقت فيما بين عصر البرونز الأخير وعصر الحديد، نستطيع أن نلاحظ فيه تغييراً حضارياً يشير إلى حلول أقوام جديدة في فلسطين، سواء في المنطقة الهضبية أو غيرها»[75]، ونظراً إلى وضوح هذه الاستمرارية الثقافية بين عصور البرونز والحديد، ونظراً لأن المجتمعات الرعوية البدوية، (كحال عبرانيي التوراه) ليست ناقلاً جيداً للثقافة (حسب رأي الباحث فراس السواح)، فلا بد أن يكون القسم الأكبر للتكوين السكاني قد تأتى من المناطق الفلسطينية الزراعية الأخرى**، يعني من مجتمعات

مستقرة تمارس الأعمال الحضرية، ومنها الزراعة، ما يعني أنه لم تستقر في هذه المراحل أية أقوام غريبة عن المنطقة، ما يدحض ادعاءات محرري التوراه.

أما في ما يخصّ الثقافة الدينية لكل المساحة الكنعانية، فإن التنقيبات الأثرية الهائلة، والتي جرت على كامل المساحة الفلسطينية اليوم، بهدف إثبات تاريخية النصوص التوراتية، وخصوصاً من قبل باحثين توراتيين «إسرائيليين» وغير «إسرائيليين»، وشملت جميع المراكز الحضرية الفلسطينية، كبيرة وصغيرة، قديمة وحديثة، **فلم يتم العثور على أي أثر لمعتقدات وطقوس يهودية تعود إلى ما قبل تدمير أورشليم على يد نبوخذ نصر** في القرن السادس قبل الميلاد. **«فلا هياكل الإله التوراتي ولا معابد ولا مذابح، ولا نقوش تذكِّر بالطريقة التي تقدمه بها الأسفار التوراتية. لقد كان هناك في فلسطين إله اسمه يهوه، ولكن غير يهوه إله التوراه، لأنه يظهر في النقوش القليلة التي ذكرته، إلى جانب بقية الآلهة مثل إيل وبعل، وتقف إلى جانبه زوجته المدعوة عشيرة، والتي كانت في النصوص الكنعانية الأوغاريتية زوجة الإله إيل»[76]. وتمكن ملاحظة الانتماء الثقافي السامري إلى فينيقية من خلال زواج الملك آخاب بن عمري من ابنة الملك الفينيقي أثبعل ملك الصيدونيين.**

ولأن إسرائيل الكنعانية السامرية تأسست عام 880 قبل الميلاد، فلا بد من التأشير إلى أنها ليست قبيلة «إسرائيل» التي ذكرها الفرعون المصري مرنفتاح، وهو يمجد إنجازات حملته التأديبية على كنعان حوالى العام 1220 قبل الميلاد، والتي يذكر فيها أنه تمت إبادة إسرائيل ولم يبق لها ذرية، لأن مملكة إسرائيل لم تكن أسست بعد. **ومن الممكن أن العلاقة الوحيدة المتاحة بين إسرائيل السامرية وبين «إسرائيل» القبيلة التي أبادها مرنبتاح هي علاقة قرابة سلالية وحسب. أما النصوص الآشورية فلم تأت على ذكر إسرائيل إلا خلال منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، في معرض الإشارة إلى مملكة السامرة الكنعانية تحديداً.**

وفي العودة إلى تأريخ إسرائيل الكنعانية منذ العام 880 قبل الميلاد، فإن من أهم الأسباب المساعدة لازدهارها، هو نموها الديموغرافي بانضمام الرعاة القادمين من السهوب المجاورة للهضاب المركزية إلى السكان المقتلعين من أرضهم بسبب الجفاف السابق والعائدين مع انقلاب المناخ الإيجابي، إضافة إلى بقايا شعوب البحر الذين ذابوا في المنطقة. **وهكذا بنيت مدينة السامرة كعاصمة للإقليم مع بدايات القرن التاسع قبل الميلاد، ومع قيام الأسرة الملكية الأولى فيها على يد الملك عُمري، «دخلت إسرائيل عالم السياسية الدولية لأول مرة ووجدت نفسها وجهاً لوجه أمام**

مدينة صور الفينيقية، بوابة التجارة البحرية، وأمام مملكة دمشق الآرامية، بوابة التجارة البرية نحو العالم المتحضر في ذلك الوقت»[77].

ومن خلال الدور الذي كانت تضطلع به إسرائيل في تلك المرحلة ضمن الائتلاف الذي كانت تقوده دمشق، **هو احتلال آخاب السامري لمملكة موآب في شرق الأردن، تلك السيطرة التي استمرت لمدة أربعين عاماً، والتي أنهاها ملك مؤاب ميشع الذيباني وخلد مأثرته على نصب عثر عليه في ذيبان عاصمة الموآبيين،** والنص مكتوب بالقلم الآرامي – الفينيقي وباللهجة الموآبية القريبة جداً من الكنعانية الفلسطينية. ويقول النص في سطوره الأولى: «أنا ميشع ملك موآب الديباني، أبي ملك على موآب ثلاثين سنة وأنا ملكت بعد أبي، وبنيت هذا المرتفع للإله كموش، لأنه أعانني على كل الملوك، ولأنه نصرني على أعدائي. أما عمري ملك إسرائيل، فإنه أذل موآب أياماً كثيرة لأن كموش كان غاضباً على أرضه، ثم خلفه ابنه وقال سأذل موآب أيضاً في أيامي. ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً أمامي، وباد إسرائيل، باد إلى الأبد. لقد احتل عمري كل أرض مأدبا وأقام عليها كل أيامه وأيام ابنه أربعين سنة، ولكن كموش أرجعها في أيامي»[78]. «**ونلاحظ بشكل عام عدم ذكر نقش ميشع لمملكة يهوذا،** وهذا أمر يتفق مع ما قدمناه سابقاً من عدم وجود مملكة اسمها يهوذا خلال القرن التاسع قبل الميلاد»[79].

ويمكن أن يكون عمري السامري قام باحتلال موآب بتكليف من هدد عدر ملك دمشق الذي كان يتحضّر على رأس تحالف من اثني عشر ملكاً سورياً لمواجهة شلمنصر الثالث الآشوري (858– 824 ق. م)، وقد تواجه الطرفان في قرقر سنة 854 قبل الميلاد. وكان هدد عدر أول ملك آرامي على دمشق موثق تاريخياً، وجد ذلك في نص شلمنصر الثالث الذي يذكر هدد عدر الآرمي ملك إميريشو (مملكة دمشق)، ويظهر من حجم القوات تحت إمرة هدد عدر أن دمشق كانت تملك القوة الضاربة، تليها مملكة إسرائيل، ثم مملكة حماه، وكل هذه الممالك تتوضع على خط التجارة الدولية الصاعد من شبه الجزيرة العربية عبر شرقي الأردن نحو الأناضول، وأن بعضها مثل عرقاتا وأرواد كانت تتحكم بطريق التجارة البحرية ومسالكها البرية نحو الداخل السوري. والظاهر أن نتيجة المعركة لم تنته بانتصار الآشوريين في قرقر رغم تبجح شلمنصر، الذي سيعود بعد خمس سنوات إلى مواجهة التحالف نفسه الذي غابت عنه إسرائيل بعد موت آخاب وتولي ابنه يورام. [80]

بعد موت هدد عدر، يبدو أن إسرائيل حاولت الخروج من التحالف السوري والتنسيق مع الغازي الآشوري الجديد، ولكن ملك دمشق الجديد حزائيل فرض سياسة عقوبات متشددة على من

تحالف مع أعدائه، وكانت إسرائيل أول دولة تطاولها عقوبة حزائيل. فقد عزف خلفاء آخاب: أخزيا ويهورام عن المشاركة في حروب دمشق. ونعرف أن ياهو خليفة يهورام قد خضع كلياً لآشور، ما دفع حزائيل إلى غزو إسرائيل وتنصيب ملك موال له قبل وصول الآشوريين، ولكنه انسحب ليرابط عند سفوح جبل حرمون (سنيرو في الحوليات الآشورية) لمواجهة الحملة الآشورية المتجهة نحو الساحل الفلسطيني متجنبة المرور بدمشق. لم يوفق شلمنصر الثالث بهزيمة حزائيل فانتقم من أشجار الغوطة، وتهديم بعض قرى حوران، واكتفى بتلقي الجزية من صور وصيدا وإسرائيل[81]، وانسحبت آشورية من المنطقة لمدة ثلاثين سنة. وبعد موت شلمنصر سنة 824 قبل الميلاد نشبت صراعات داخلية بين خلفائه، ما أطلق يد ملك دمشق في تأديب المدن التي تعاملت مع شلمنصر وإخضاعها، وكان على ياهو الإسرائيلي أن يدفع ثمن ذلك مناطق شمال شرقي الأردن[82].

مع ارتقاء هدد نيراري الثالث (809– 782 ق. م) ابن شلمنصر[83] عرش آشورية، والذي راح يعد لغزو بلاد الشام، وجد يهوآش ملك إسرائيل أن الوقت قد أزف للتخلص من سطوة بن هدد ملك دمشق، فعمل على استرداد مناطق شمال شرق الأردن، إلا أن بن هدد واجهه في تحالف موال له وهزمه ثم عزله عن عرش إسرائيل، وكان الملك الآشوري هدد نيراري الثالث قد عبر بقواته نهر الفرات نحو الجنوب سنة 796 قبل الميلاد. وكان من نتائج حملات هذا الملك المتكررة، استنزاف مملكة دمشق، ثم خضوعها في عهد شلمنصر الرابع (782– 773 ق. م) على يد القائد الآشوري شمسي إيلو سنة 773 قبل الميلاد، بعد عزلها عن حلفائها، ودفعت الجزية لآشور، وفقدت دورها الإقليمي المؤثر. وكان أول المستفيدين من انهيار السيطرة الدمشقية، مملكة إسرائيل تحت حكم الملك يربعام الثاني (797– 753ق. م) ابن يوآش الذي عزله بن هدد[84].

أما نهاية إسرائيل الكنعانية، فقد تمتّ في العام 721 قبل الميلاد، بعد غياب دمشق، وتفكك التحالف الإقليمي المواجه للآشوريين الظافرين. وكغيره من ملوك دويلات – مدن فينيقيا وسورية، كان هوشع ملك السامرة يتلقى تحريضاً مصرياً مستمراً على الثورة ضد الآشوريين، ووعوداً بالدعم العسكري والمادي، ثم وجد في دعوة ملك حماه مناسبة لبدء العصيان، فشارك في التمرد الذي قادته حماه، **وعند الهزيمة كان على إسرائيل أن تختفي من الوجود (721 ق. م) على يد صارغون الآشوري (سرجون الثاني)، كما اختفى اسم إسرائيل وبطل استعماله، وحل محله اسم السامرة للدلالة على المقاطعة التي قامت على أرض إسرائيل**، والتي جاء صارغون (722– 705 ق. م) إليها بالعرب من ثمود وأباديدي وحابيبا ومارسيمان، حسب رواية صارغون ذاته[85].

مملكة أورشليم الكنعانية (يهوذا)

إذن، وكما أوردنا في مقدمة البحث المقتضب لمملكة إسرائيل الكنعانية، فإن عمليات الاستيطان في مناطق الهضاب المركزية قد بدأ مع انحسار موجة الجفاف التي ضربت المنطقة، منذ منتصف القرن الساس عشر قبل الميلاد، حيث انضم المهاجرون القدماء إلى من تبقى من سكان المنطقة وصمدوا لموجة الجفاف، أما مرتفعات يهودا التي نحن بصدد البحث في تاريخها، فقد كانت خالية تقريباً من السكان باستثناء موقعي خربة رابوض وبيت زور الصغيرين، حيث استمر السكن منذ عصر الحديد الأول (1200– 1000 ق. م)، ومع التقدم في عصر الحديد الثاني (1000– 700 ق. م)، خصوصاً في نصفه الثاني، بدأ ظهور قرى جديدة وصغيرة جداً عند مصادر المياه الدائمة على الأطراف الشرقية لبادية يهوذا، ثم ازداد عدد المواقع الجديدة بشكل كبير، وتزايد عدد سكان المنطقة على نطاق واسع لأول مرة منذ نهايات عصر البرونز الوسيط.

نعود لنؤكد أن التنقيبات والبحوث الأثرية لم تلحظ أي انقطاع ثقافي خلال العصرين البرونزي والحديدي، وظهر أن كل المدن التي خربت أو تهدمت جرت إعادة بنائها من قبل الذخيرة السكانية الفلسطينية نفسها، [86] **ما يؤكد أن هذا الاستيطان لم يأتِ من خلال اقتلاع السكان الأصليين واستبدالهم بعناصر غريبة من خارج المنطقة، إنما من خلال ثلاثة مصادر: التزايد المطّرد للسكان الأصليين نتيجة الازدهار الحاصل؛ وعودة الذين انتقلوا إلى الرعي بسبب الجفاف للاستقرار وممارسة حياة الحضر والزراعة؛ ثم انتقال السكان من المناطق القريبة.** يظهر ذلك من خلال المخلفات المادية لتلك المرحلة، والتي تظهر استمرارية ثقافية منذ عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول. وللتوضيح، فإن إيراد هذه المعلومات إنما **يأتي من أجل الإضاءة على البنية السياسية لمنطقة مرتفعات يهوذا التي سوف تتوحد بقيادة أورشليم، وتؤسس مملكة سوف نتتبع أخبارها لأول مرة في الحوليات الآشورية منذ أواخر القرن الثامن قبل الميلاد**[87].

كانت أورشليم في مطلع عصر الحديد الثاني (1000 ق. م) بلدة متواضعة بمقاييس ذلك العصر، ولم يكن لها أي نفوذ إلا على المنطقة الزراعية الصغيرة المحيطة بها. وهناك نص للفرعون شيشانق يتحدث فيه عن حملته على طرق التجارة الدولية أواخر القرن العاشر قبل الميلاد، لم يشر فيه إلى أي شيء عن مملكة موحدة تحت لواء أورشليم. أما التنقيبات والأبحاث فقد توصلت إلى أنه حتى الحملة الآشورية الأخيرة على دمشق عام 773 ق. م، إبان حكم الملك حديانو، لم تكن مملكة يهوذا قد تشكلت بعد ككيان سياسي واضح في فلسطين، ولم تكن مدينة أورشليم قد دخلت معترك السياسة الإقليمية والدولية على السواء. والنصوص الآشورية لم تتجاهل وجود مملكة يهوذا في فلسطين فقط، بل تجاهلت كلياً مدينة أورشليم وكأنها غير موجودة على الخريطة السياسية للمنطقة. غيرأنّ العقود التالية من القرن الثامن قبل الميلاد بدأت تدفع أورشليم بسرعة نحو مركز الأحداث، وبدأت تظهر في النصوص الآشورية بدءاً من الربع الأخير لهذا القرن الحافل بالأحداث الجسام في تاريخ بلاد الشام، والذي شهدت نهايته دمار مملكة إسرائيل وفقدان دمشق لاستقلالها وسيادتها، ودمار مملكة لخيش إلى الجنوب على يد الملكين الآشوريين تغلات فلاسر الثالث وصارغون الثاني.

التزمت يهوذا منذ قيامها موقف الممالأة لآشور والعمل على تنفيذ سياساتها في سورية الجنوبية وفلسطين، وعليه، كانت دمشق وإسرائيل تحاولان تعيين حاكم عليها يساندهما في مواجهة الآشوريين، وعندما حاول رصين ملك دمشق تنفيذ هذا الأمر، وفي الوقت الذي أصبح أمر إسقاط يهوذا في قبضته، كان تغلات فلاسر قد عبر الفرات، فترك رصين المكان وتوجه لمقاومة الخطر المقبل، واستمرت الحرب بشراسة سنتين قبل أن يقتل رصين سنة 732 ق. م، أما دمشق فكان عليها أن تنتظر وأن تقاتل الآشوريين تحت علم مملكة حماه الحثية، وبعد هزيمة الحلف الحموي أمام صارغون الثاني، كان على دمشق أن تخضع. وقد شهد آحاز ملك يهوذا استسلام مدينة دمشق الأخير عام 732 ق. م، وحضر شخصياً إلى المدينة للقاء تغلات فلاسر هناك، والحصول على بركته لمتابعة دوره في المنطقة. ثم تابع سياسة العمالة لآشور حتى شاهد أيضاً دمار السامرة عام 721 ق. م، واطمأن إلى استتباب الأمور في المنطقة بما يتناسب ومصالحه[88].

أثرت أورشليم من الدمار العام الذي أحدثه الآشوريون في المنطقة، حيث إنها استوعبت المهاجرين من المناطق المنكوبة، وتزايد عدد سكانها، وتعددت مصادرها من الزراعة والتجارة والحرف، واستفادت من قيام الآشوريين بتنظيم تجارة الزيت في المراكز الرئيسة لإنتاجه على الساحل، فتشكل فيها مجتمع طبقي تقوده نخبة سياسية اجتماعية. وبما أن المدينة بدأت عهدها

كعميل لآشور، فقد حافظت على وضعها كمملكة، على العكس من جميع الممالك الممانعة التي وقعت تحت التأثير الآشوري، والتي ألحقت بالعرش الآشوري الذي عيّن عليها نواباً تابعين له، «إذ خلف حزقيا أباه آحاز على أورشليم سنة 715 ق. م، وورث عنه العمالة لآشور، ما أنجاه من المصير الذي نالته مدينتا جت وأسدود على يد صارغون الثاني حيث عاث جيشه فساداً في المناطق التي احتلها إلى الغرب من مرتفعات يهوذا، بينها وبين السهل الساحلي، مثل جرار ولخيش وبيت شمش، ولم تعد الحياة الطبيعية إلى هذه المدن إلا بعد فترة طويلة. وقد انتهز ملك أورشليم هذه الفرصة فضم المناطق الجنوبية من حبرون إلى بئر السبع، كما ضم مدن المناطق الغربية التي كانت تنافس يهوذا على تسويق منتجات قرى المرتفعات. وبذلك تحولت أورشليم إلى مملكة قوية في سورية الجنوبية بمباركة من آشور ودعمها، مكافأة لها على عمالة ملوكها وعونهم لها على دمشق والسامرة وبقية الممالك الفلسطينية. **وبذلك يأتي تشكل مملكة يهوذا كناتج للمد التوسعي لمدينة أورشليم، لا كناتج لمركزية تدريجية وحدت منطقة ذات مصالح اقتصادية متبادلة، كما كان الحال في تشكل دولة السامرة»**[89].

في هذه المرحلة وصلت مملكة يهوذا إلى شكلها الأقوى، وصارت الحارس على طرق التجارة الدولية في فلسطين وشرق الأردن، ما دفع حزقيا إلى محاولة التمرد على زمن سنحاريب بن صارغون، لتكون يهودا القوة البديلة عن آشور في شرق المتوسط، وتجيير كل المكاسب لحسابه الخاص، يشجعه «على ذلك ملوك مصر الذين أقلقهم وصول آشور إلى حدودهم الشمالية»[90]، إلا أن التوترات التي حدثت في فينيقيا وفلسطين استدعت قدوم سنحاريب دورياً لتأديب التمردات، فحاصر في حملته الثالثة مملكة يهوذا المدعومة مصرياً، ما أرغم حزقيا على الرضوخ ومضاعفة الجزية، ففك سنحاريب الحصار عنه، وأرسل اليهوذي الجواهر إلى سيده في نينيوى.

بعد وفاة حزقيا سنة 686 قبل الميلاد، خلفه ابنه منسى، وفي عهده كانت الإمبراطورية الآشورية بقيادة أسرحدون (680- 669 ق. م) قد توسعت لتغطي مصر بكاملها، وغالبية الشمال الإفريقي وجزر المتوسط وسواحل اليونان وآسيا الصغرى، لتصبح أوسع وأقوى إمبراطورية عرفها التاريخ حينذاك، فأخضع أسرحدون مملكة يهوذا، وساق ملكها منسى من ضمن الملوك الذين أرغمهم على القيام بأعمال السخرة مع سائر العبيد، إرضاء لغروره في رؤية ملوك الأرض يخدمونه.

لم تعد ترد أخبار يهوذا في الحوليات الآشورية بعد ذلك، وهكذا فإن تتبع أخبار ملوكها من روايات التوراه تظهر المملكة مملكة وثنية يؤدي ملوكها وكهنتها الطقوس الكنعانية على المرتفعات. «ولدينا في أخبار الملك يوشيا بسفر الملوك الثاني رواية تستحق التوقف عندها قليلاً، **لأنها تظهر**

أن مملكة يهوذا حتى هذه العقود القليلة التي سبقت دمارها، لم تكن على الدين التوراتي، ولم يكن أهلوها وحكامها وكهنتها يعرفون شيئاً عن ذلك الدين وطقوسه (لأنه لم يكن قد تأسس أصلاً)[91]، **فهيكل الرب كان ممتلئاً بتماثيل بعل وعشتاروت وغيرهما من آلهة كنعان، وبيوت البغاء المقدس تحيط بهذا الهيكل من كل جهاته، وكهنة يهوذا جميعاً يؤدون الطقوس الكنعانية على المرتفعات»**[92].

تولى آشور بانيبال عرش آشور سنة 669 ق. م، وكانت إمبراطوريته تهتز، خصوصاً بعد الانتشار الواسع والعجز عن تغطية كل هذه المساحات عسكرياً، وكانت مقاومة مصر من أهم العناصر التي دفعت نحو سقوطها، فيما كان الكلدانيون على أبواب عصر جديد. ومع وفاة آشور بانيبال وتولي آشور باليط العرش، كان نابوبلاصر الكلداني يتوج على عرش بابل مدعوماً من الميديين في إيران، فأوقعوا الإمبراطورية الآشورية بين فكي كماشة، ودمروا مدينة آشور عام 614 ق. م، ثم نينوى عام 612 ق. م، وكان على الفرعون المصري نخاو الثاني أن يساعد عدوته السابقة آشور كيلا تنهار بسرعة قبل اكتمال قوة مصر لمواجهة القادم البابلي الجديد، إلا أن نبوخذ نصر هزم المصريين في قرقميش وحماه سنة 605 قبل الميلاد، ودفع الجيش المصري إلى حدوده، وارتد البابليون نحو أورشليم وأخضعوها، إلا أن يهوياكين اليهوذي عاد إلى تأييد مصر من جديد فما كان من نبوخذ نصر إلا سبيه وأسرته إلى بابل وعين مكانه أخاه صدقيا[93] الذي عاد إلى التعامل مع مصر في عهد الفرعون بسمياتك الثاني الذي عمل على تأليب الممالك المجاورة ضد بابل، فما كان من البابليين إلا أن حاصروا أورشليم ونهبوها سنة 586 قبل الميلاد، ثم دمروها وأحرقوها سنة 578 ق. م، لتنتهي بذلك الحقبة الكنعانية في فلسطين.

الديانة في إسرائيل وأورشليم الكنعانيتين

هناك مصدران إلهيان للشرق:

– الديانة الحنفية التي تدين للإله إيل (رب الأرباب الواحد الساكن في الأعالي)وتدين به الشعوب المستقرة التي تعتمد على الزراعة الارتوائية، وأول من اعتقد به هم الأكاديون في الألفية الثالثة، وكان إله شبه جزيرة العرب.

– المعتقد البعلي (البعثي)، ومنه اتخذ المصدر اليهوي، وانتشر عند الناس الذين يمارسون الزراعة البعلية. وهو إله البانثيون السوري.

أما الديانة اليهودية التي تدين للإله الرعوي (يهوه) وهو يسكن على الأرض أو متنقلاً بين الغيوم والأرض، فلم تكن سوى الحالة الانتقالية بين الرعوي والبعلي.

و«كما لم يتوحد شعبا التراثين (الإسرائيلي الحنيفي، واليهودي اليهوي) في وحدة إثنية واحدة كما أراد القادة لهما، كذلك لم يستطع محررو التوراه اليهود أن يوحدوا بشكل مقنع تراث وتاريخ الشعبين»[94]، «ولا يوجد أثر للمعتقد الديني التوراتي في منطقتي إسرائيل ويهوذا، وفي بقية أنحاء فلسطين، خلال الفترة السابقة على السبي البابلي، والديانة التي سادت هنا هي ديانة كنعانية تقليدية»[95]. **تشير إلى ذلك التنقيبات الأثرية التي أظهرت أن المعابد والتماثيل والشارات الدينية هي استمرار لتلك التي كانت سائدة منذ عصر البرونز. أما يهوه فقد كان على ما يبدو المعبود الرئيسي في السامرة ويهوذا إلى جانب آلهة البانثيون الكنعاني الفلسطيني، حسب ملاحظة السواح في المصدر نفسه.**

يتضح مما تقدم أن المملكتين إسرائيل وأورشليم، اللتين نشأتا ضمن النظام العالمي الآشوري، لم تعاصرا الملكين المزعومين «داوِد» و«شلومو»، وقد سبقت إسرائيل يهوذا ولم تعاصر الثانية الأولى وتنافسها إلا في أيامها الأخيرة، ولم تنقسم أي مملكة إلى اثنتين.

* * *

مفاهيم وخصوصيات في اليهودية

قبل البدء في البحث بتاريخ اليهودية حسب التوراه والتلمود، منذ الآباء الأوائل حتى سقوط مملكة شلومو المزعومة، ينبغي أن نورد بعض المفاهيم التي تدعيها الجماعات اليهودية، ثم الخصوصيات التي تتسم بها هذه الجماعات، كما أهم المذاهب والفرق اليهودية، لما لها من أهمية في فهم البحث حول وظيفة الجماعات اليهودية عبر التاريخ.

معجزة الاستمرارية اليهودية عبر التاريخ

تعتبر النخب اليهودية المتعصبة أن بقاء اليهود واستمرارهم عبر التاريخ يشكل معجزة في حدّ ذاتها، وهي خصوصية يتمتع بها اليهود دون سواهم! وقد نجحوا في إقناع غيرهم بهذه الترهة التي لا تصمد أمام التحليل العلمي، خصوصاً وأن الحديث يجري هنا عن جماعات دينية لها خصوصياتها، وليس عن شعب واحد منسجم التاريخ والذهنية والمكان الجغرافي. **أما نظرية البقاء اليهودي فقد جعل منه المنظرون اليهود غاية مطلقة ومعجزة في حد ذاتها، بل وشبحاً يخيم على نفوس اليهود خوفاً من التلاشي، بواسطة الحروب أو المحارق أو انخفاض الولادات، ومن هنا نجد التصاق اليهود بالقوى المهيمنة طلباً للأمان، كما حدث في كل الحقب حيث التصقت نخب الجماعات اليهودية بالنخب السلطوية في المجتمعات المختلفة، وقامت بالدور الوظيفي غير المنتج، التجاري والمالي والربوي.** وبذلك حافظت على نفوذها بانتقالها بين السلطات المختلفة، وكانت تدفع ثمن استغلالها وجشعها، عندما تتغير الظروف، أو أثناء قيام الثورات وحصول التغيير.

وقد صارت هذه الذهنية والقناعة بمعجزة الاستمرارية، تشكل في ذاتها عقدة نقص وخوف من المستقبل، إضافة إلى الخوف من أي تغيير أو ثورة في المفاهيم أو على السلطات المسيطرة

التي يرتبط بها اليهود، كل جماعة حسب المنطقة الجغرافية أو الحقبة الزمنية، وبغض النظر عن نوع القوة المسيطرة. فمثلاً ترتبط الجماعات اليهودية اليوم بأعتى قوى الهيمنة العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، وهي تلتقي في هذا المنحى مع غيرها من القوى التي ربطت بقاءها بالمركز الإمبريالي، مثل الأنظمة الأقلوية المتسلطة على ثروات الشعوب لحساب المركز الرأسمالي الدولي. وما ارتباط الجماعات اليهودية ودفاعها عن الأنظمة العربية السائرة في فلك الإمبريالية، والخوف الصهيوني من الحركات التحررية العربية، إلا مثالاً ناصعاً على هذا السلوك الاستحمائي. **وقد أدى هذا الشعور والتربية عليه إلى ظهور لاهوت البقاء لدى اليهود وجعله معجزة مقدسة، وحوّله إلى «قيمة مطلقة وهدف نهائي»** على حد تعبير المسيري[96]. ويرى بعض المفكرين اليهود أن هذا الشعور في حد ذاته أضعف الشخصية اليهودية بمحافظة اليهود على البقاء بأي وسيلة، وهذا هو الذي دفع بهم إلى المحرقة دون مقاومة. ومنهم من يرى أن رفض هذا الشعور تحقق بالتمردات حتى الانتحار كما جرى في قلعة مسعدة.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على بقاء اليهود، يقول المسيري: «إنّ القوى المركزية، إضافة إلى التوحيد الإداري، لم تكن قوية لا في العالم المسيحي الغربي ولا في العالم الإسلامي كما هو الحال في معظم المجتمعات التقليدية، كما أن العقائد السائدة في المجتمعات المسيحية سمحت ببقاء اليهود، بوصفهم الشعب الشاهد الذي يقف شاهداً على عظمة الكنيسة وصدق العقيدة المسيحية. ولذا كانت الكنيسة الكاثوليكية تحمي بقاءهم وتدافع عنهم، أما في المجتمعات الإسلامية فقد صنف اليهود على أنهم أهل الكتاب»[97].

أما في إفريقيا فقد حافظ اليهود على استمرارهم ببقائهم إلى جانب البيض وربطوا مصيرهم ببقائهم في السلطة، أما في أميركا اللاتينية فقد رفضوا الانضمام إلى الحركات التحررية والثورية، وارتبطوا بالأنظمة الشمولية الحامية، والمرتبطة بدورها بالمركز الإمبريالي. أما في أميركا الشمولية فقد قبلوا المجتمع المتعدد الذي عاشوا فيه، ولكن مع ارتباط باللوبيات الضاغطة لمصلحة الصهيونية، التي قلما يفلح من يستطيع التفلت منها، خصوصاً وأن مصلحة الطبقة الأميركية المسيطرة تستفيد من هذه السيطرة الصهيونية على الجماعات اليهودية.

أما في ما يخص العلاقة بين ماضي اليهود وحاضرهم، فتجدر الإشارة إلى أنها ليست استمرارية واحدة، كما تحاول الصهيونية أن تؤكد، **وإنما هي ماضي كل جماعة يهودية على حدة وحاضرها.** فماضي يهود بولونيا وحاضرهم ليس كماضي الفالاشا أو يهود الولايات المتحدة وحاضرهم. أما استمرارية اليهود كاستمرارية موحدة حسب الوهم الصهيوني فليست منسوجة على

قاعدة علمية، حيث إن **أكثرية اليهود اعتنقوا الديانة مع مرور الزمن، مثل يهود اليمن والخزر يتبعهم الإشكناز**، وعليه، فليسوا متحدرين من عنصر واحد كانت له استمراريته المعجزة عبر الزمن كما يدعون. أما المستقبل فتحدده ظروفه وشروطه وليس تمنيات حزبية صهيونية، ولا تنبوءات الكتب المقدسة!

العزلة اليهودية

يقول كارل ماركس: «**إنّ اليهودي لا يستطيع اكتساب حقوق الإنسان ما دام يهودياً، فالجوهر المحدود الذي يجعل منه يهودياً سوف يتغلب بالضرورة على الجوهر الإنساني الذي كان ينبغي أن يربطه، بوصفه إنساناً، بسائر الناس، وهو يعزله عمن ليس يهودياً. واليهودي يعلن بهذا الانفصال، أن الجوهر الخاص الذي يجعل منه يهودياً هو جوهره الحقيقي الأسمى الذي ينبغي أن يمحى أمامه جوهر الإنسان**»[98].

ومن أهم أسباب العزلة عند الجماعات اليهودية، هي نوع العمل الوظيفي الذي تؤديه هذه الجماعات، **والذي يحتاج إلى السرية والاحتياط ضمن شروط مغلقة**. وكون الجماعات اليهودية تضطلع في الغالب بدور الجماعة الوسيطة في كثير من المجتمعات، خصوصاً المجتمع الأوروبي ابتداءً من العصور الوسطى، كان عليها الانطواء في حالة من العزلة، «إذ **إنها تضطلع بوظائف شائنة أو بوظائف تتطلب الحياد والموضوعية مثل البغاء أو التجارة**»[99]**، وكذلك الربا أو التمويل. وفي كثير من الأحوال كانت هذه العزلة تفرض من قبل السلطات الحاكمة بناء على اتفاق مع الحاخامية اليهودية المحلية، أو النخب المسيطرة ضمن الجماعة.**

وهناك مفهوم آخر يفرض على اليهود التقيد به، وهو أن اليهودي لا يملك خيار نفسه، وليس له الحرية في اختيار مصيره، وعليه النظر إلى أن العودة إلى الأرض المقدسة تنبني على تكليف لا يمكن الاعتراض عليه، وبالتالي عليه أن يكون على أهبة الاستعداد لاحتمال العودة في أية لحظة. وما يؤسس لهذا الأمر نظرياً، هو أن اليهودي أضحى أينما حل يعيش ذهنياً في «أرضه المقدسة التي هي فلسطين التي لا يستطيع الاستعاضة عنها بأي مكان آخر»، (بينما الفلسطيني باستطاعته استبدال الأرض وعليه إخلاءها لمصلحة اليهودي). وأن الشتات ليس إلا معبراً موقتاً بانتظار العودة إلى الأرض الموعودة. وعليه، فإن اليهودي «يعيش الوهم (الفردوس المطلق المفقود) على أنه حقيقة، ويعيش الحقيقة (المكان الذي يعيش فيه) على أنها وهم عابر، أي إنه حاضر في

الغياب وغائب في الحضور! **وهكذا يصبح التاريخ اليهودي «ذا مفهوم دائري، فحيث ابتدأ التاريخ في أرض كنعان، سينتهي فيها بعد أن تتزايد معاناة اليهود المضطردة، والتي تشكل إحدى علامات اقتراب آخر الأيام»**[100].

أما الاندماج المجتمعي فيعد في نظر قيادات الجماعات اليهودية خطراً على الانعزالية، ومن أمثال الاندماج اليهودي في التاريخ، انتشار النزعة الهللينية بين اليهود، سواء في فلسطين أو في مصر. «وبعد انحلال الدولة الرومانية، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي. وقد تحدث يهود العالم العربي – الإسلامي اللغة العربية، واشتغلوا في معظم المهن والحرف، وتأثر تراثهم الديني بالفكر الديني الإسلامي. أما في العالم الغربي، فقد كان وضع اليهود متميزاً، إذ شكَّل اليهود فيه جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف لا يقوم بها أعضاء الأغلبية وتحتفظ بعزلتها لضمان قيامها بهذه المهن. وانعكس هذا الوضع على التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات اليهودية، مثل القهال والغيتو (في شرق أوروبا أساساً)، وهي تنظيمات كانت تهدف إلى الحفاظ على عزلة اليهود التي ازدادت في بولندا حيث احتفظوا فيها برطانتهم الألمانية اليديشية التي هاجرت معهم... ولم تكن عزلة أعضاء الجماعات اليهودية مقصورة عليهم، فالمجتمعات التقليدية كانت قائمة على الفصل بين الطبقات والأقليات والجماعات لتسهيل عملية إدارة المجتمع في غياب مؤسسات الدولة المركزية القومية»[101]. ومع سقوط عصر الإقطاع وظهور الدول المركزية أواخر القرن الثامن عشر انتفت الحاجة إلى تلك الأشكال من الفصل وصارت مؤسسات الدولة هي التي تدير الوظائف، ومنها تلك المنوطة بالجماعات، وصار الولاء للدولة بدل الولاء للكنيسة أو الإقطاعي أو النبيل.

ومن أشهر أشكال العزلة اليهودية في أوروبا هو «الغيتو» أو المعزل، وهو الرديف لحارة اليهود عند العرب، ولكن بمحتوى غير الذي عناه في أوروبا، حيث عبر عن محتوى عنصري ناسب قيادات اليهود، والسلطات على السواء.

وقد أدخل الغيتو لأول مرة في البندقية الإيطالية عام 1516، عندما أصدر المجلس البلدي أمراً أجبر اليهود على السكن في حي مغلق خاص بهم، وأخذ هذا المبدأ ينتشر. **وفي العام 1616 فرض في فرانكفورت بناء على اتفاق المجلس البلدي وزعماء اليهود. وقد ناسب الغيتو مصالح النخب اليهودية وحاخاماتها، لأسباب اقتصادية أضفى عليها هؤلاء طابعاً دينياً من أجل تكريس دورهم داخل هذه الطوائف»**[102]. «وكانت للطبقة الحاكمة في الإمبراطورية مصلحة في تشكيل

الغيتو أيضاً، ويشمل الأمر كذلك مسألة تطبيق القوانين وسيطرة هؤلاء القادة في الغيتو عنوة، بسبب نظام الطوائف الحرفية الأوروبية وليس بسبب العزل الاجتماعي لهم»[103].

ومن محاولات إخراج اليهود من عزلتهم الذهنية والجسدية، محاولة القيصر نقولا الأول (1796– 1855) إدماجهم في المجتمع الروسي، وذلك عبر تشجيعهم على العمل، ففتح لهم مئات المدارس الخاصة وولى عليها الدكتور ليليانتول، **فقاوم الدعوة، في روسيا وألمانيا، متعصبو اليهودية بزعامة موزيس هس «خوفاً من أن تقرب هذه المدارس بين اليهود والكنيسة»**[104]، «ووسموا ليليانتول، كما يسمون سبطه اليوم، بأنه خائن وعميل، وشجعوا حركات الاغتيال «النهيلستي»، فاغتالوا القيصر المسالم ومحرر الأقنان ألكسندر الثاني (1881)، مما أثار عليهم النقمة التي سموها «لاسامية» أو «ضد السامية»، ما أدى إلى هجرة جماعات يهودية إلى غرب أوروبا وإلى أميركا»[105]. وعلى محاولات الإدماج والاختلاط بالتزاوج، يطلق القادة الصهاينة مصطلح «الإبادة الصامتة»، وخصوصاً في الأوساط الصهيونية في الولايات المتحدة للإشارة إلى معدلات الزواج المختلط والاندماج اليهودي، باعتبارهما يؤديان إلى ذوبان اليهود و«موت الشعب اليهودي».

ومن أشهر حالات عزلة اليهود، وجودهم داخل الغيتوات القسرية في أوروبا ابتداءً من أواخر عصر النهضة. ولكن العزلة وصلت قمتها في أوكرانيا، حيث كان اليهود يشكلون جماعة وسيطة تمثل طبقة النبلاء (شلاختا) الحاكمة في بولندا. وكانت عزلة اليهود على عدة مستويات:

1- طبقية: جماعة تجارية مالية تمثل النخب الحاكمة في وسط زراعي فلاحي وتساندها القوة العسكرية البولندية.

2- لغوية: جماعة تتحدث اليديشية في وسط يتحدث الأوكرانية.

3- ثقافية: جماعة ترتدي أزياء وتأكل طعاماً يختلفان عن أزياء الفلاحين وطعامهم.

4- دينية: جماعة يهودية تمثل النبلاء الكاثوليك في وسط أرثوذوكسي.

وحينما تصبح العزلة على هذه المستويات، فإنها عادة ما تكون متطرفة، إذ إنّ العزلة، على مستوى ما، تدعم العزلة على مستوى آخر. ولكن ورغم هذه العزلة، فإن من المعروف أن الجماعة اليهودية تأثرت بوسطها الفلاحي السلافي، وظهر هذا التأثر في انتشار الحسيدية[106] التي نبعت من الفولكلور الديني المسيحي السلافي، أي إنه لا يمكن أن توجد عزلة مطلقة إلا في

كتابات العنصريين الاختزاليين الصهاينة والمعادين لليهود الأُول لاستغلالها في تطبيق نظرية شعب واحد يطالب بوطن قومي، والآخرين لتبرير عزل مكونات تعتبر منافسة أو مسؤولة عن أزمة معينة ويجب تحييدها[107].

وبما أن النظرية التي تُفرض على اليهودي، تجعله منتظراً العودة إلى أرض الميعاد، وتجعله في الوقت نفسه زاهداً في المكان الذي لا يربطه به نفسياً سوى كونه منصة انطلاق، **وأن كل عمله ونتيجة هذا العمل تصبّ في هذا الاتجاه، فإن هذه الحالة كانت الفرصة الذهبية لمراكمة ثروات الجماعات اليهودية التي جمعت عبر الربى والجشع والاحتكار، وحتى أعمال الزنى. وبما أن اليهودي لا يملك ماذا يفعله بهذه الثروات، فقد جعلها بتصرف من يعمل بأية وسيلة ليقوده حين تتاح الفرصة إلى مبتغاه. وهكذا سمح الغيتو للحاخامات بمراكمة ثروات اليهود الذين لا يجدون متعة في التصرف بهذه الأموال إلا في سبيل العودة إلى الفردوس المفقود!**

ومن أجل الوصول إلى هذه الحالة من التسليم، كان من اللازم إقناع الفرد اليهودي أنه لا يملك إرادة ذاتية، إنما هو جزء من كل، حيث **تلغى الأنا الفردية، لتخضع كلياً لمفهوم الأنا الجماعية. «وقد عملت عصابية الأنا الجماعية ضمن الذات الفردية كشرطي داخلي متزمت، لا يرتشي، ولا تمكن مغافلته... وقد تعزز هذا الشرطي الداخلي بشرطي خارجي تمثل بالتنظيمات اليهودية، التي لا تتورع عن الاعتداء على كل يهودي يحاول التحرر من ربقة الأنا الجماعية اليهودية»**[108]. وقد ناقش بعض المثقفين اليهود هذه النظرية، «وكان أهمهم موشيه هداش، الذي ادعى بأن «**أسس اليهودية الكلاسيكية**»، أي اليهودية كما أرساها حكماء التلمود، **هي أسس قائمة على التأثيرات الأفلاطونية، وخصوصاً على صورة إسبارطة كما تظهر عند أفلاطون**[109] **فلا يجوز لأي يهودي، رجلاً كان أم امرأة مجرد التفكير أو التصرف بمفرده من دون ضابط معين فوقه، وأن أي شخص كان يجب ألا يكتسب العادة الذهنية باتخاذ أي خطوة، بالجد أو بالهزل، على مسؤوليته الفردية. فعليه أن يعيش دائماً، في السلم كما في الحرب، بعينيه نصب ضابطه الأعلى»**[110].

ويبدو أن هذه الآفة قد تأصلت في نفوس بعض اليهود، وصاروا يعبدونها، حيث يقول شاحاك: إن «**عدداً كبيراً من اليهود في عالمنا اليوم، يحنون إلى ذلك العالم (الغيتو المغلق والجاهل بالعلوم)، إلى فردوسهم المفقود، المجتمع المغلق المريح، الذي لم يتحرروا منه بقدر ما**

طردوا منه. لقد كان قسم كبير من الحركة الصهيونية يرغب دائماً بإعادة هذا المجتمع إلى سابق عهده»[111].

الشتتل

مشتقة من كلمة «شتوت» اليديشية وتعني مدينة، وهي عبارة عن تجمُّع سكاني يهودي، شكل حلقة وصل بين الفلاحين في الريف الأوكراني وبين المدن. وقد مثل اليهود في الشتتل الإقطاع البولندي الاستيطاني في أوكرانيا، وعملوا وكلاء للنبلاء البولنديين (شلاختا)، وجامعي ضرائب، أي إنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تقوم بعملية الاستغلال لمصلحة النبلاء الغائبين الذين كان كل همهم زيادة دخلهم. ورغم أن الشتتل أحد الأشكال الغيتوية، إلا أنه يتخذ شكل المستوطنات الريفية المستقلة ذاتياً، التي مثلت حلقة اتصال بين حاجات المدن الكبيرة والريف. ولذا، **كان الشتتل يقع في موقع استراتيجي يوفر للفلاحين سهولة الوصول إليه من ناحية، ويوفر لليهود (من ناحية أخرى) العزلة وعدم الاختلاط مع بقية السكان،** وكان القانون البولندي، بسبب الوضع المتفجر في أوكرانيا، يفرض على رب العائلة اليهودية أن يتسلح هو وأفراد عائلته من الذكور.

وكانت هناك أسواق تباع أو تقايض فيها الأغنام والماشية جنباً إلى جنب مع البضائع المصنوعة في المدن ومنتجات الصناعات المنزلية الريفية. وكانت الشتتلات في الوقت نفسه المراكز التي يمارس فيها الحرفيون حرفهم المختلفة. وكانت هناك أيضاً المعابد والفنادق للمسافرين والصيارفة والوسطاء من جميع الأنواع. وتدور الحياة في الشتتل حول المعبد اليهودي والمنزل اليهودي ثم السوق التي يلتقي فيها اليهود بالأغيار. وكانت تُوجَد في الشتتل أيضاً المدارس الدينية اليهودية.

ويرى الكاتب آرثر كوستلر أن أصول الشتتل خزرية، وأنه، كمؤسسة فريدة، إحدى ثمرات الدياسبورا الخزرية، أي انتشار الخزر، فهو يشبه المدن التجارية في إمبراطورية الخزر. كما يرى كوستلر أن احتكار يهود الشتتل تجارة الخشب يذكرنا بأن الأخشاب كانت مادة البناء الأساسية عند الخزر ومن أبرز صادراتهم الأساسية، وأن تَخصُّص يهود الشتتل في صنع العربات هو استمرار لعادات الخزر البدوية في الانتقال ونقل الخيام والبضائع. ومن الأعمال الأخرى التي كان

يمارسها يهود الشتتل، ولا يمارسها يهود الجيتو، إدارة الفنادق وتشغيل مطاحن الدقيق وتجارة الفراء، وربما يعود هذا أيضاً إلى اختلاف أصول يهود الشتتل عن يهود غيتوات شرق أوروبا.

ولعل الزي التقليدي اليهودي البولندي، يظهر المحتوى الشرقي، خصوصاً نمط القفطان الحريري الطويل الذي يشبه السترة التي يرتديها النبيل البولندي، والتي كانت هي نفسها نسخة من الزي الرسمي للتتار في القبيلة الذهبية. ويبدو أن القبعة (اليرملك) التي يرتديها اليهود الأرثوذكس تعود إلى غطاء الرأس الخاص بالشعوب التركية (مثل الأوزبكستانيين)، وكان يهود اليديشية يلبسون قبعة مستديرة متقنة موشاة الحواف بفراء الثعلب تُسمَّى «الإستريميل»، ويبدو أنها تعود إلى أصول خزرية[112].

العنصرية اليهودية

تعتبر العنصرية عند الجماعات اليهودية داء ودواء، داء بالنسبة إلى غير اليهود، لما تشكله هذه الأزمة النفسية من تشكك وازدراء وتخوف، أما بالنسبة إلى قيادة الجماعات اليهودية فتعتبر دواءً ناجعاً، **كونها تجعل من اليهودي فريسة سهلة القياد.** والمعلوم أن عقدة اليهود النفسية الانعزالية والتي أصِّلت لديهم عبر غسيل أدمغة مستمر، في مدرسة مستمرة ضمن الغيتو، جعلتهم منفصلين عن الواقع بادعاء تفوّق مَرَضي مستمد من نصوص التوراه والتلمود، وتبعيتهم العمياء لقادتهم الذين يستغلون جهدهم من أجل تجميع الثروات واستغلالها في السياسة والاقتصاد.

أما الفصامية العقيدية عند اليهود فقد انعكست على شخصيتهم «بفصامية ذات طورين:

– **الطور الزوري (الاضطهادي)، ويتجلى من خلال شعور الفرد اليهودي بأن الجميع يضطهدونه، ويحيكون المؤامرات للقضاء عليه، لأنه يمتلك من الصفات الخاصة ما يميزه من سواه من الشعوب**[113].

– **طور العظمة، وهو الطور الذي أفرز العقلية العنصرية اليهودية»[114] الشعب المختار، ونظرية اليهود البشر، والأغيار الغوييم!**

وهذا الشعور بالعظمة وبالاضطهاد جعل أكثرية اليهود يحافظون على الانفصال العضوي عن محيطهم وعدم الاختلاط الوراثي مع غيرهم. والمهم ملاحظته أن هذه الأمور ليست تهمة يتستر عليها مثقفو الجماعات اليهودية، بل هم ينمونها ويثقفون باتجاهها لأهداف تربوية تعبوية.

فالصهيوني أحاد هاعام يقول: «إنني أؤمن بتفوقنا الأخلاقي والعقلي... ولكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت ومستقر حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته، وإبلاغ رسالته كاملة متفوقة».

وفي المقابل هناك بعض المفكرين اليهود الذين ينتقدون هذا السلوك مثل الفيلسوف برنار لازار الذي يقول في كتابه «اللاسامية» عام 1894: «إن اليهودي حافظ دينياً على فكرة الاستعلاء والتفوق، واستمر في النظر بأنفة واحتقار إلى كل الذين كانوا غرباء عن شريعته. أما الذي علمه أن يكون كذلك فهو كتابه التلمود المليء بعصبية ضيقة».

وبرغم كل هذا الشحن، فقد وجدت ظروف جعلت أفراد الجماعات اليهودية يخجلون في/ أو يخافون من التعريف عن أنفسهم، ففي القرون الوسطى «أدى الإذلال المزمن إلى تحطيم الأنا اليهودية، أو حصرها وتقوقعها وإخضاعها إلى الآخر (المدنس)» [115].

وعليه كان زعماء اليهود يدخلون أفراد الجماعات االيهودية في حلقة مفرغة: عنصرية يهودية-اضطهاد-انعزال، وعليه ينبني البكاء: معاداة السامية.

كان على أفراد الجماعات اليهودية أن يفهموا إذن، أنهم عنصر مختلف عن بقية العناصر البشرية (الغوييم= الأغيار)، وعليهم بالتالي، تربية أولادهم على هذا النهج، لأن هذا التصنيف بين اليهود كبشر، وبين الأغيار- الذين خلقهم الرب على هيئة البشر كي يخدموا اليهود دون أن يثيروا اشمئزازهم- هو تصنيف إلهي لا يمكن مخالفته، ولا يحتاج إلى تساؤلات ولا إلى براهين.

والمسؤول الأساسي عن تعزيز هذا الشعور العنصري عند أفراد الجماعات اليهودية، هو كتابهم التوراه، أو «العهد القديم»، بما ينطوي عليه من تعاليم بخصوص الشعب المختار. فقد أسس هذا الكتاب «عقيدة الشعب الذي اختاره الله وأوكل إليه دور قائد البشرية وحاكمها الذي كتب على جميع الشعوب الأخرى أن تخدمه، ولعل العالم كله لم يخلق إلا من أجله... هذه العقيدة التي لم تنشأ في أي مكان آخر، هي التي حددت – على امتداد آلاف السنين– موقف الجماعة اليهودية من بقية البشرية»[116]، **ومن هنا انطلقت الظاهرة المرضية التي أصيب بها اليهود، في اعتبار أن الأرض وما عليها من بشر وخيرات وجدت لخدمتهم، وأن قتلهم أو تشريدهم للأغيار عمل يرضي الله.**

وهذه بعض النماذج التلمودية في النظر إلى الأغيار:

«إذا ضرب وثني يهودياً، توجب قتل الوثني» (سنهدرين 58).

«عندما يقتل اليهودي وثنياً لا تتوجب عليه عقوبة الموت» (سنهدرين 57).

«الغوييم مكلفون بمواقعة البقر» (عبوداه زاراه 36).

«فتيات الغوييم نجسات منذ مولدهن» (عبوداه زاراه 22–22).

«إذا عثر يهودي على متاع ضائع يخص وثنياً فلا يتوجب عليه رده» (بابا متسيا 24).

«من واجب اليهود إتلاف كتب الكفرة والوثنيين» (شبّات 116).

يتعين على اليهودي أن يتلو الصلاة التالية في كل يوم: **«لك الحمد يا رب لأنك لم تخلقني أممياً (غوي) أو امرأة أو عبداً»** (مِناحوت 43– 44).

أما في التوراه فقد ورد تمييز اليهود وترسيخ العنصرية اليهودية تجاه غير اليهودي، في مواقع كثيرة، نورد بعضها هنا:

«ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أني الرب الذي لا يخزى منتظروه»[117].

«ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون»[118].

«احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهم ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن»[119]، إلا داود التوراتي، فقد زنى بزوجة أوريا الحثي وبقي ملكاً مقدساً عند اليهود، كذلك فعل شلومو التوراتي مع إحدى الصيدونيات!

في سفر الخروج (15: 34– 16) نجد تحريضاً مباشراً على احتقار غير اليهودي، فلا يقطع له عهد، ولا يؤكل من ذبائحهم، ولا يتزوج منهم ولا يُزوج لهم. وفي سفر التثنية (7: 6) يظهر اختيار الرب بشكل صريح لا لَبس فيه لليهود بأنهم شعبه المقدس دون سائر الشعوب على وجه الأرض... أما في سفر الملوك الثاني (5: 15) فتورد التوراه أنّ اليهودي هو الوحيد الذي يعبد الرب، وهذا سبب تمييزه له من الآخرين.. وفي سفر أشعيا (49: 22– 23) تصل العنصرية في

التوراه ذروتها، بإذلال غير اليهود، من خلال القول إن مهمة غير اليهود هي خدمة اليهود، والسجود لهم ولحس الغبار عن نعالهم.. وتأخذ هذه العنصرية في سفر نحميا (10: 30) شكلاً آخر بالامتناع عن التزاوج مع غير اليهود، لمنع الاختلاط مع الآخرين الأنجاس للحفاظ على العنصر اليهودي الطاهر والنقي. وتمضي التوراه في التأكيد على هذه العنصريه وتمييز اليهود، في سفر أشعيا (61: 5- 6) حيث تورد: «وَيَقِفُ الأَجَانِبُ وَيَرْعَوْنَ غَنَمَكُمْ، وَيَكُونُ بَنُو الْغَرِيبِ حَرَّاثِيكُمْ وَكَرَّامِيكُمْ. أَمَّا أَنْتُمْ فَتُدْعَوْنَ كَهَنَةَ الرَّبِّ، تُسَمَّوْنَ خُدَّامَ إِلهِنَا. تَأْكُلُونَ ثَرْوَةَ الأُمَمِ، وَعَلَى مَجْدِهِمْ تَتَأَمَّرُونَ». أما في سفر التثنية (14: 21) فتحض التوراه على التآمر على صحة من تسمّيه الغريب، من خلال أمر اليهودي بإعطائه الشاة الميتة لأكلها أو بيعها لغير اليهود. وتظهر الدعوة إلى استعباد غير اليهودي ونسله ممن يقيمون بجوار مناطق اليهود، أو يعيشون عندهم، في التوراه في سفر اللاويين (25: 44- 46).. وفي سفر أشعيا (43: 1- 5) ترسم التوراه صورة كاملة، للتفضيل الإلهي لليهود وتمييزهم من سواهم من البشر، كما يقول الرب ليعقوب: **إن اليهود لن يغرقوا لو اجتازوا الماء، ولن تحرقهم النار حتى لو ساروا فيها، وإن الله سيجمع نسلهم حتى لو تشتتوا في مشرق الأرض ومغربها.** وفي السفر ذاته تكتمل صورة تمييز الرب لليهود، من خلال تسخير الأمم الغريبة وملوكها لهم، مهمتها تقديم الثروة لليهود، وبناء المدن لهم وخدمتهم، وإلا فإن عقوبتها الإبادة، كما يقول الرب في سفر أشعيا (60: 3- 5 ومن 10- 12)[120].

الكراهية

التلمود اليهودي مليء بعبارات الكراهية واللعنات ضد الأغيار، أوردنا بعضاً منها في العنوان السابق (العنصرية). وبسبب فظاعة ما يمكن أن ينتج منه بالنسبة إلى أفراد الجماعات اليهودية، كان حاخامات اليهود في كل بلد يزيلون تحت الضغط بعض عبارات الشتم والكراهية، أو يتحججون بأن هذه العبارات الشائنة إنما خصصت للكنعانيين، أو الهنود أو غيرهم من الشعوب الغابرة، أو الهامشية. وبعد إنشاء «إسرائيل» تمت إعادة كل هذه العبارات المحذوفة في طبعة بعنوان (حيسرونوت شاس). **«وهكذا يستطيع المرء الآن، أن يقرأ بكل حرية، مقاطع من النوع الذي يأمر كل يهودي، أن يتلو كلما مر بالقرب من مدافن، تلاوة مباركة، إذا كانت المدافن يهودية، وإطلاق اللعنة على أمهات الموتى[121]، إذا كانت المدافن غير يهودية - ويجري في الواقع تلقين تلامذة المدارس اليهود لهذا الأمر التلمودي»[122]، وكل هذا يجري على أنه طقوس عبادية!**

ويقول إسرائيل شاحاك منتقداً هذا السلوك وهذه الذهنية: «وينبغي أن نتذكر، وأن يتذكر اليهود أنفسهم بصفة خاصة، حقيقة أن مجتمعنا الاستبدادي تعمد ولقرون من الزمن، إطلاق عادات بربرية وغير إنسانية لتسميم عقول أفراده، وأنه ما زال يفعل ذلك... **لم يواصل علماء اليهودية المعاصرون هذا الخداع فحسب، بل أجروا في الواقع تحسيناً على الأساليب الحاخامية القديمة، إن في سفاهتها أو في كذبها**»[123].

وتظهر كل هذه الكراهية والعنصرية على امتداد الحقب الزمنية، ولا تعدو كونها تأثرت بغيرها من الثقافات، حتى يعود مفسرو الشريعة اليهودية والعاملون على حفظها، للتشديد على مفاهيم العنصرية والكراهية كما وردت في التوراه والتلمود في كل نسخها، منذ الأيام الأولى لتدوين كل منها، **وكأن هذه النخب كانت تخشى على الذهنية اليهودية والسلوك اليهودي من التأثر بالتسامح الذي يجدونه في المجتمعات التي يعيش فيها اليهودي، فكانوا يعيدون تأكيد الانعزال والكراهية والعنصرية**. ففي ترجمة حديثة لكتاب الشرائع اليهودية لموشيه بن ميمون، أعيد النص العبري إلى أصالته، وتظهر فيه وصية وجوب إبادة الكفار من اليهود بيد اليهودي، **ولكن الترجمة الإنكليزية تراوغ حيث تقول: «من واجب المرء أن يتخذ إجراءات فعلية لتدميرهم». أما النص العبري فيستطرد ليحدد أمثلة رئيسية على الكفرة الذين تنبغي إبادتهم «مثل يسوع الناصري وتلامذته، وتسادوك وباتيوس**[124] **وتلامذتهما**، وعسى أن يتعفن اسم الشرير»، **«ولا تظهر أي كلمة من هذه الكلمات في النص الإنكليزي على الصفحة المقابلة»**[125]. وكان موشيه بن ميمون القرطبي عنصرياً للغاية حيث يعتبر الزنوج والبدو والمغول أنهم دون الإنسان وأشبه بالقرود!

يورد إسرائيل شاحاك الكثير من الأمثلة على عنصرية اليهود وكراهيتهم لغيرهم، ومنها **مثال على حركة الحسيدية التي تشكل حسب رأيه «استمراراً وانحطاطاً للصوفية اليهودية»**، ففي كتاب «هاتانيا» الأساسي لفرع «حباد» الحسيدي الأهم، يصف الأغيار بالمخلوقات الشيطانية، ويؤكد: **«حتى أن الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي، كما أن وجود غير اليهودي، في حد ذاته، وجود «غير ضروري»، حيث أن كل الخليقة كانت من أجل اليهود وحدهم»**[126]. **وتنشر هذه المفاهيم على نطاق واسع في المدارس وفي الجيش الصهيوني، وهي تحرض علناً على القتل وإهدار دم العرب في فلسطين المحتلة! وقد كان رئيس الكيان الصهيوني زلمان شازار من أتباع حركة حباد هذه، وكان الساسة الأميركيون والإسرائيليون يطلبون ود زعيمها الحاخام اللوبافيتشي الذي يقيم في الولايات المتحدة، ويكره السود، والغريب أنه يرفض الإقامة في فلسطين** (لأمور ربانية كما يقول شاحاك)!

والغريب أيضاً، أن هذه الكراهية هي كراهية وعنصرية طبقية، تستهدف من الغوييم الطبقات المستضعفة على وجه التحديد؛ فقد كان اليهود في المرحلة الكلاسيكية يعادون المجتمع الذي يحيط بهم، ويعتمدون على الملوك والنبلاء، ويستثنونهم من لعنات التلمود، وشتائمه وحتى منع المساعدة والطبابة والعمل لديهم. لذلك نجد أن اليهودية الكلاسيكية تزدهر «في ظل الأنظمة القوية البعيدة عن معظم طبقات المجتمع؛ ففي أنظمة كهذه ينجز اليهود وظيفة من وظائف الطبقة الوسطى- ولكن بشكل التبعية الدائمة»[127]، ولذلك كان الحقد عليها ليس من قبل الفلاحين فقط، وإنما من قبل الطبقة الوسطى غير اليهودية أيضاً.

الوعد الإلهي

في ثقافة جميع الشعوب، وفي كل الديانات، كان الاعتقاد بتدخل الآلهة في تقسيم الأراضي يرد بشكل أو بآخر. ومن الشعوب من تلقى وعداً من آلهتها بأراض هي ليست لها، «ففي مصر وعلى مسلة الكرنك التي أقامها تحوتمس الثالث (1469- 1436 ق. م) جاء على لسان الإله: «إني أمنحك بقرار هذه الأرض بالطول والعرض، إني جئت وأعطيت الحق في سحق أراضي الغرب». وقد جاء أيضاً، في قصيدة الخلق البابلية أن الإله مردوخ قد قسَّم الأرض بين الشعوب، وأعطى لكل شعب نصيبه من الأرض؛ وكذلك عند الحثيين ورد في نشيد مرفوع للإلهة أرينا (الشمس): «أنت تسهرين على حفظ السموات والأرض وتقيمين حدوداً للبلاد». أما في التوراه فقد جاء: «حين قسم العلي الأمم، حين فرق بني آدم نصب تخوماً للشعوب حسب عدد بني يسرئيل»[128].

ولكن اليهود وحدهم اعتبروا هذا الأمر وثيقة تاريخية إلزامية تستوجب التدمير والقتل والتهجير في سبيل تنفيذ وعد الرب! وقد جاء هذا «الوعد» بقول الرب: «فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً»[129]. وكان لأبرام ما كان من قبلهم الوعد حيث قال له الرب: «ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا. لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا»[130]. وتكرر الوعد مع يتسحاق، ثم مع يعقوب الذي جدد الرب معه الوعد بعد شجار حبي حتى الصباح، ومع

تبديل في الاسم ليناسب التغيير الذي سيبدأ في السيطرة على سيرة مملكة إسرائيل الكنعانية، حيث يقول: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِيمَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ يِسْرَئِيلَ»[131]. كما عاد الرب في جبل نبو ليحدد لبني يسرئيل الأرض التي أعطاها لهم في سفر التثنية[132]: «اِصْعَدْ إِلَى جَبَلِ عَبَارِيمَ هذَا، جَبَلِ نَبُو الَّذِي فِي أَرْضِ مُوآبَ الَّذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا، وَانْظُرْ أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي يِسْرَئِيلَ مُلْكًا»[133].

الإبادة في التوراه

لم يتوقف منطق التوراه والتلمود اليهوديين عند حدود العنصرية والكراهية والانعزال، إذا ما كانت تمثل نحياً فردياً لتفادي الغير، وكراهيته دون تداعيات، ولكنها تجاوزته إلى التحريض على القتل، والأمر بالإبادة والسبي والاغتصاب والنهب، مستفيدة من الوعد الذي أعطته للملتزمين بنصوصها بالسيطرة على الأرض واستباحة محرمات الغير، دون مراعاة أي منها! وعليه، كان منطلق الحرب والقتل ليطاول كل «غوي»، رجلاً كان أم أنثى، بالغاً أم شيخاً أم طفلاً، ولم يستثنِ حتى الحيوانات التي يملكها هذا الغوي، باختصار، **تطهير الأرض من كل ما يتحرك، وتدمير وحرق كل شيء، والسيطرة على الأرض**، وهاك النموذج: «.. فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاُ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ. وَلاَ يَلْتَصِقْ بِيَدِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُحَرَّمِ، لِكَيْ يَرْجعَ الرَّبُّ مِنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ، وَيُعْطِيَكَ رَحْمَةً..»[134].. «وهنا ترتقي فكرة التدمير والإبادة وقتل الرجال والأطفال وسبي من يتبقى من النساء بعد قتلهن، إلى مرتبة المكون الثاني في عبادة اليهود، ولذلك نجد في التوراه أجزاء كبيرة من الأسفار، ويكاد يكون سفر يوشع سفر القتل والإبادة بامتياز». ونقرأ في التوراه حرفياً: «وَسَبَى بَنُو يِسْرَئِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ. وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ»[135]. وبالطبع مصادرة كل الأرزاق باعتبارها غنيمة[136]!.

وكدرس نظري في الإبادة، تذكر التوراه العديد من المجازر التي تقشعر لها الأبدان لمجرد قراءة أخبارها الوهمية، ومع أنها لم تحصل لا في تواريخها، ولا في أشخاصها ولا منفذيها الذين لم يقع التاريخ عليهم بتاتاً، ولكنها بنت ذهنية إجرامية فرضت نفسها على أنها أمر إلهي مسلم

به لدى الديانات السماوية التي باتت لا تمحص في هوية ضحايا المجازر ولا في ذنوبهم، وغنم وتسليم بما فرضته الظروف من صدقية لهذه الروايات المزعومة، والتي تنسحب اليوم جزراً وقتلاً واقتلاعاً وسجناً على الفلسطينيين والعرب بشكل عام، ومصادرة أراضيهم على أنها حق إلهي موعود وليس لأحد الاعتراض عليه أو رده كقدر!

احتكار دور الضحية

بالرغم من كل هذا التأريخ من اضطهاد الجماعات اليهودية للمجتمعات التي عاشت بين ظهرانيها، أو على هامشها، وبرغم كل هذه التعبئة من الكراهية والحض الديني على القتل والاستغلال في كتبهم «المقدسة»، **فإن اليهود يحتكرون دور الضحية عبر التاريخ، وينجحون في استغلاله أيما استغلال.** لقد نجح الصهاينة في إجبار العالم على تقبل احتكار اليهود لدور الضحية وإنكاره على الآخرين، وخصوصاً في حالة الإبادة النازية التي أبيد في محارقها من البولونيين والمعارضين الألمان والغجر أكثر من أعداد اليهود بمرات، لكن الصهاينة نجحوا في تحويل مجرد التشكيك في هذا الأمر إلى تهمة يعاقب عليها القانون الأوروبي عموماً. «ويحاول الصهاينة توظيف دور اليهود كضحية في خدمة مشروعهم السياسي الاستعماري، فيطالبون ألمانيا بأن تدفع بلايين الدولارات تعويضاً لليهود عما وقع لهم من مذابح، بل يصبح احتلال فلسطين وطرد سكانها منها مجرد تعويض عما حاق باليهود من أذى على يد النازيين»[137]. ولا تزال خيرات ألمانيا تأتي حتى اليوم إلى الإسرائيليين على شكل هبات مالية وغواصات نووية تهدد العرب بأجمعهم، وتحمي مشروع الصهاينة في إتمام طرد ما تبقى من فلسطينيين فوق أرضهم.

وللمزيد من الإقناع والاقتناع، يعرض مؤرخو اليهود تاريخهم من منظور الكوارث التي «حلت بهم». فمن الاضطهاد المصري، والخروج؛ وسقوط الهيكل الأول والسبي؛ ثم سقوط الهيكل الثاني والشتات؛ وعمليات الطرد المتكرِّرة من أوروبا: أسبانيا بريطانيا، أوكرانيا، روسيا، الهولوكوست... «والرؤية التي تركز على الكوارث هي نتيجة ما نسميه «الثنائية الصلبة» المرتبطة بالرؤية الحلولية الكمونية والتي تقسم العالم إلى الأنا والآخر، المقدس والمدنس، وهي ثنائية تعبر عن نفسها هنا في رؤية التاريخ اليهودي باعتباره مجال الفوضى الكاملة (الكوارث) ولكنه سيتحقق في لحظة يتجلى فيها النظام الكامل (نهاية التاريخ المشيحانية)... **وإذا دققنا النظر، فإن مصدر هذه الكوارث ليس يهودية اليهود، وإنما الوظائف التي اضطلعوا بها باعتبارهم جماعة وظيفية في المجتمعات التي وجدوا فيها. فأساس الوحدة هنا ليس التاريخ اليهودي وإنما الوظيفة التي**

اضطلع بها كثير من الجماعات اليهودية في أنحاء العالم، شأنها شأن كثير من أعضاء الأقليات الدينية والإثنية الأخرى»[138]. وفي المقابل فإن التسامح لم يجعل من اليهود متقبلين للآخر، وعليه فإن تسامح ملوك بولندا ونبلائها تجاه اليهود وتوطينهم نابع من رؤية أعضاء النخبة الحاكمة هناك لليهود «كجماعة وظيفية يمكن الاستفادة منها... فالطبقة الحاكمة أبدت تسامحاً مع أعضاء الجماعة اليهودية حتى يتسنى لها استخدامهم كأداة لقمع الفلاحين والأقنان في بولندا وبيتوانيا وأوكرانيا»[139]، **والأمر عائد إلى معرفة هذه النخب بطبيعة اليهود الاستغلالية التي لا تعرف الرحمة، وبخبرتهم في مجال استغلال الآخر وإنكار إنسانيته، وخبرتهم في مجال المضاربات والمال.** وهذا هو الشعور الذي دفع نابليون إلى أن يعدهم بإعادة بناء الهيكل مقابل مساعدته في حروبه الإمبراطورية، وما دفع بريطانيا إلى استغلال اليهود وظيفياً في قلب العالم العربي، والذي نتج منه وعد بلفور سنة 1917 بإعطائهم موطئ قدم في فلسطين، لكي ينوبوا عن الإنكليز في الاستغلال وإبقاء المنطقة في حال من عدم الاستقرار واستمرارها في الاستنزاف والتخلف.

أما التسامح الإيجابي مع اليهود فلم يشكل عامل جذب لهم إلى البلدان التي أظهرت مثل هذا التسامح الإيجابي؛ على سبيل المثال: التسامح الذي قدمته كوبا بقيادة فيديل كاسترو الذي قدم التسهيلات لهم، إلا أن التغييرات الاقتصادية جعلتهم يهاجرون لأنها لا تسمح لهم بالاستغلال والاحتكار والربا. أما في تشيلي فقد تركوا البلاد على زمن الرئيس الاشتراكي سلفادور ألليندي، ثم عادوا إليها بعد انقلاب بينوشيه الموالي للغرب الرأسمالي.

الصورة النمطية عن اليهودي

لعل سلوك الجماعات اليهودية عبر العالم هو الذي صاغ النظرة المحيطية عن اليهودي بشكل عام، وقد راوحت هذه النظرة من الازدراء والخشية والتشكك، إلى البغض والاضطهاد واللفظ. «وقد كانت الشخصية اليهودية في التصور الذهني الأوروبي ذات خصائص متباينة تبعاً لاختلاف الزمان، والمجتمعات، وكانت تتدرج ما بين صورة المرابي اليهودي الجشع الذي يمتلك المال... وبين اليهودي المتسول الذي يحمل بعض الحاجيات على ظهره أو على عربة يبيعها في الأرياف»[140]، وأنه يدنس خبز القربان بالدم، ومصاص دماء، ويسمم آبار المياه. وهذه النظرة عن اليهودي تتمدد إلى الأمم غير الأوروبية وغير المسيحية، ومرد ذلك يعود إلى كون اليهودي يعيش منعزلاً، محاطاً بأسراره وارتباطاته الطقوسية المبالغ بها كثيراً. وحسب تعليمات زعمائه عليه ألا يمارس أي عمل

يربطه نفسياً بالأرض التي يعيش عليها، ولا بالمجتمع الذي يعيش فيه، لأن عليه أن يكون مرتبطاً بفكرة العودة إلى الأرض الموعودة، التي يرتبط بها عاطفياً، ومنتظراً للمشيا (المسيح المخلص).

ومن الصفات النمطية التي تطلق على اليهودي في أنحاء العالم: Jidov, Juif, Jidan وغيرها مما تحفظه الذاكرة الأوروبية خصوصاً مع صفات النذالة والبخل والحقد والكره الخ.

ولعل أهم ما ساعد اليهودي على كسب هذه الصفات، هو كتاب التلمود الذي يوصي اليهودي بما يلي: «من أجل الوصول إلى المبتغى الأعظم لا بد لك أن تكذب وتمالئ وتنافق وتسرق بل وتقتل»، وهو ما عبر عنه روتشيلد: «يجب على الذين يرغبون في الحكم أن يلجأوا إلى الدسائس والخداع، وتلفيق الحقائق، لأن الفضائل الاجتماعية الكبرى كالصدق والاستقامة والأمانة ليست سوى عيوب كبيرة في السياسة». وبعد يلقي اليهود باللائمة على الأغيار في احتقارهم واضطهادهم، ويعلو الصراخ عند كل انتقاد، حتى غدا العالم كله يخشى هذا الفجور، الذي أتى أكله بالنسبة إلى أصحابه!

قيادة الجماعات اليهودية

بعدما كانت رئاسة اليهود منذ تأسيس اليهودية منوطة بزعمائهم الدينيين منذ عزرا الكاهن، والوالي الفارسي نحميا، صارت مع تمرد الحشمونيين تخضع للملك الحشموني الذي كان هو الكاهن عينه من نسل ليوي كما يدعي.

وفي مصر البطلمية كان يهود الإسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد يشكلون بوليتيوما (جماعة من الغرباء يحق لهم الإقامة)، ويترأسها رئيس القوم (إثنارخ) بصلاحيات إدارية واسعة يشاركه مجلس شيوخ (جيروسيا) يمكن أن يتجاوز صلاحيات الإثنارخ.

أما في العصر الروماني فقد سمح لليهود بأن تكون لديهم محاكمهم الخاصة وإدارتهم الذاتية يترأسها أمير اليهود (ناسي أو بطريرك) الذي يعود تاريخه إلى المرحلة السلوقية، ويتمتع بصلاحيات واسعة في الأمور الخاصة بهم. ومع تسلم الأسرة الهيرودية غير اليهودية كان الكهنة يعملون على صوغ الأمور الدينية، ومعروفة قصة تحريضهم على قتل السيد المسيح في زمن بيلاطوس البونطي الذي غسل يديه من دم القديس، وحمله لكهنة اليهود.

ومع التمرد الأخير في فلسطين على الرومان وتدمير الهيكل، صارت زعامة اليهود في المناطق التي وجدوا فيها تأخذ أشكالاً مختلفة منها:

رأس الجالوت: ريشي جالوتا بالآرامية، روش جولاه بالعبرية، رئيس المنفى بالعربية، وهو أمير الجماعة اليهودية في بلاد الرافدين قبل الإسلام وبعده. وأول ذكر له في القرن الثاني الميلادي (في فترة حكم الفرثيين). وكانت وظيفة وراثية أدت إلى التآمر والرشوة للحصول على هذا المنصب، ولكن على من يشغله أن يثبت أنه من نسل داود! فقد المنصب مكانته، لكنه استعادها مع الفتح العربي سنة 642 م، إلى أن انشق عنان بن داود، مؤسس فريق القرائين، واستمر المنصب حتى ألغاه تيمورلنك سنة 1401 وحل مكانه منصب رئيس اليهود، واستمر في الدولة العثمانية تحت مسمى حاخام باشي. **وكان رأس الجالوت يقوم على جمع الضرائب لمصلحة السلطان، إضافة إلى مراقبة الموازين والأسواق الخاصة باليهود، والقيام بالأعمال القضائية الدينية الخاصة، وفرض العقوبات التي يراها مناسبة.** وقد حدث في بعض المراحل صراع بين رئيس الحلقة التلمودية وبين رأس الجالوت على الصلاحيات.

المجمع الكبير (كنيست هجدولا)، المجلس التشريعي وعدد أعضائه 120 (كما كنيست العدو).

في إسبانيا كانت القيادة استمراراً لما كانت عليه في عهد الإسلام (الأندلس). أما في بولندا فكان مجلس القهال هو من يدير شؤون الجماعة اليهودية. واتخذ شكل الإدارة الذاتية في وسط أوروبا اسم اللاندیودينشافت، وفي هولندا ماهاماد. ومع تدهور الجماعة اليهودية في شرقي أوروبا، في بولندا وروسيا اللتين كانتا تضمان معظم يهود أوروبا والعالم، تدهورت القيادات اليهودية وطاولها الفساد، وتحول القهال من شكل للإدارة الذاتية إلى أداة استغلال وقمع. **وكان منصب الحاخام يباع ويشترى وكذلك منصب القاضي، وهو ما كان يجعل الرشوة أمراً طبيعياً في المحاكم الشرعية اليهودية.** وهكذا ازداد انفصال القيادات الدينية والدنيوية عن جماهيرها ما أدى إلى تفجر النزعات المشيحانية والحركات الشبتانية التي أعقبتها، كاحتجاج وتمرد على القيادات التقليدية المكونة من الحاخامات والأثرياء... وكان لكل حركة زعيمها الصوفي، وكانت حركة الحسيديم الصوفية أهم فرع من الشبتانية وأكثرها انتشاراً[141].

وفي السلطنة العثمانية حسب نظام الملل، ومؤسسات الغيتو كانت تعبر عن هذه الكينونية اليهودية، ومع غلبة العنصر السفاردي توجهت السلطنة العثمانية نحو اعتماد منصب الحاخام

باشي.

ولكن هذه التقسيمات لم تكن حكراً على اليهود، فكانت الحركة الصهيونية لاحقاً وبسبب ذرائعيتها تحاول إدخال هذا الوهم في رؤوس اليهود وفي رؤوس الشعوب، فتتحدث عن خصوصية تاريخية لدى اليهود، وإظهار أن شكل الحكم الذاتي مقصور على اليهود دون سواهم، «وبالتالي فإن خصوصيتهم تعبير عن هويتهم القومية الجمعية التي ترفض الاندماج، لتستخلص من ذلك أن اليهود يشكلون كلاً واحداً، وأنهم تجمع قومي مستقل عبر التاريخ في كل زمان ومكان. ينطلق الفكر الصهيوني من هذا المفهوم الجمعي للهوية اليهودية الذي يضرب بجذوره في العصور الوسطى والغيتو، والذي يصل إلى تعبيره الحقيقي عن نفسه في الدولة الصهيونية، التجربة الكبرى في الإدارة الذاتية. ولكن الدولة الصهيونية سبقتها تجارب أخرى في الإدارة الذاتية من أهمها تجربة سورينام في الاستعمار الاستيطاني اليهودي وتجربة غيتو وارسو ومستوطنة تيريس أينشتات اللتين حاول النازيون من خلالهما أن يبينوا أن الشعب اليهودي شعب عضوي له مكوناته الحضارية المستقلة»[142].

وقد اختفت كل مؤسسات الإدارة الذاتية وحلت محلها مؤسسات تجمع اليهود كما سائر التجمعات الإثنية وتعوض عنهم بعض الحاجات النفسية والثقافية والمادية الخاصة، كمثل النوادي التابعة للجاليات الإثنية على وجه العموم. **وهكذا فقد كان ممثل اليهود لدى السلطة، شأنه شأن بقية الجماعات، يقوى حين تقوى سلطة المركز، كونه يرتبط بها وظيفياً، وعندما كان المركز يضعف كانت الانقسامات في القيادة الأقلوية ومنها اليهود تنقسم وتتنافس**، كما حدث مع انقسام الدولة العثمانية، إذْ ظهر منصب رئيس اليهود (نجيد) في مصر وغيرها.

القهال ومجلس البلاد الأربعة

«قهال»: هي كلمة عبرية بمعنى «جماعة»، وهي تشير إلى أعضاء الجماعة اليهودية ككل. ويستند القهال، كشكل من أشكال الإدارة الذاتية، إلى الميثاق الذي أصدره الملك سيغموند الأول عام 1501 وتم بمقتضاه تشكيل تنظيم القهال. وكانت كل جماعة يهودية يديرها مجلس قهال يتكون من سبعة أعضاء يتم اختيارهم إما بالتعيين وإما بالانتخاب. وكان لابد أن توافق الحكومة البولندية على الأعضاء المنتخبين قبل أن يصبح انتخابهم نهائياً. **إلا أن العملية الانتخابية كانت شكلية، وقد أدت مع الوقت إلى احتكارها، بل وتجاوزها من قبل أقلية من المموِّلين والحاخامات**

الذين سيطروا على مجالس القهال بالاتفاق مع السلطات المحلية طالما يؤمنون الوظيفة التي تعني السلطة من خلالهم، وعلى وجه الخصوص الانضباط والسيولة المالية من ضرائب على التجارة والربا، والسهر على حسن تأدية الدور اليهودي في وظيفة الآرندا على الفلاحين.

وكانت مجالس القهال في بادئ الأمر مستقلةً عن بعضها، وكان لكل مجلس قواعده الخاصة (تاقانوت) وامتيازاته وحقوقه التي يدافع عنها ضد يهود المدن المجاورة، وخصوصاً حق حظر استيطان الأجانب (اليهود وغير اليهود) بينهم، بما يتلاءم مع النظام الإقطاعي الغربي غير المركزي، وبما يشبه قوانين ألمانيا في العصور الوسطى، والذي جلبه الإشكناز معهم من ألمانيا إلى بولندا. وبمرور الزمن جرى ضم القهالات كلها في إطار واحد هو مجلس البلاد الأربعة.

أما من الناحية الوظيفية، فكان من مهام هذه المجالس القيام بتنظيم جميع جوانب الحياة اليهودية من الداخل، أي في علاقة اليهود بعضهم ببعض (كالإشراف على الزواج والطلاق والختان والطعام والتعليم وتعيين الحاخامات والقضاة وجباة الضرائب والذابحين الشرعيين). ولكن مهمتها الأساسية ظلت جمع الضرائب من المحكومين لمصلحة الحاكم.

وكانت لجنة القهال تتكون من الموظفين التاليين:

– سنيوريس (seniores)، تعادلها في العبرية كلمة بارناسيم (جمع بارناس أو روش وتعني الرئيس)، وكانت تتألف بداية من شيوخ الجماعة، وكان السنيور يتمتع بصلاحيات واسعة، في جمع الضرائب والقروض وفرض الأحكام، وتحديد عدد اليهود المسموح لهم بممارسة التجارة، والسكن وغيرها بما يناسب مصلحة السلطات المحلية.

– المستشارون، ويتوزعون على لجان للمراقبة والنظافة والذبح وحل النزاعات وغيرها.

– البونفيري (طوفيم بالعبرية وتعني الطيبون)، وعددهم سبعة أعضاء ومسؤوليتهم مشتركة في الإدارة وحسابات القهال المالية.

– وظائف أخرى مثل القضاة والمراقبين، وغيرهم من الموظفين والحاخامين.

«وكانت مصاريف القهال تتكون أساساً من المرتبات التي يدفعها لموظفيه. كما كان عليه أن يقدم الهدايا لكبار موظفي الحكومة البولندية حتى يمكن تسيير أمور الجماعة. وكان عليهم أيضاً أن يطعموا الحيوانات في حديقة الملك. **كما كان على بعض القهالات أن تدفع مبالغ من المال من قبيل المساعدة للكنيسة والطلبة وأن تزودهما أحياناً المؤن.** وكان على القهال كذلك دفع ضريبة

مقابل عدم قيام اليهود بالخدمة العسكرية أو تزويد الجنود بالمأوى. وكان على القهال أن يؤدي الضريبة المفروضة على الجماعة من قبَل الحكومة. ولذا، كان عليه أن يفرض ضرائب مباشرة على كل شخص (ضريبة الملكية وضريبة الرأس وضريبة القهال). ومع تَدهور الوضع الاقتصادي للقهال، أخذت هذه الضرائب في التزايد حتى أصبحت تُفرَض على ضروريات الحياة، وكان يُمنَح امتياز جمعها من خلال مزاد عام، الأمر الذي كان يعني تَزايُد الضرائب دائماً. وهذا ما أدى إلى تفشي الفساد والمحسوبية والرشوة حيث صار من الممكن شراء منصب الحاخام أو القاضي، ومع الوقت انهار هذا الشكل الإداري بالإفلاس، وخصوصاً مع انتفاضة خميلنتسكي. **وأخيراً، سقط القهال كما سقط الغيتو ومنطقة الاستيطان اليهودي والشتتل، وذلك بسبب التحولات الاجتماعية والسياسية العميقة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوروبا، وبسبب ظهور حركات اقتصادية جديدة تنحو نحو توحيد السوق القومية والاستغناء عن الجماعات الوظيفية الوسيطة، التي كانت مرتبطة بالنظام الإقطاعي الذي حان موعد انهياره لمصلحة النظام البرجوازي**. وقد أسس النازيون، بعد غزوهم بولندا، نظاماً يشبه في كثير من الوجوه مؤسسة القهال مثل غيتو وارسو (أو غيره من الغيتوات) التي كانت تتمتع بقسط وافر من الإدارة الذاتية والاستقلال الاقتصادي والثقافي. ولا شك في أن المفكرين الصهاينة، وقد جاء عدد كبير منهم من بولندا وروسيا، كانوا متأثرين بتجربتهم في الشتتل والقهال وهم يرسمون ملامح المجتمع الصهيوني»[143].

مجلس البلاد الأربعة

ويُسمَّى بالعبرية «فاعد أربعا أراتسوت»، هو أعلى أشكال الإدارة الذاتية التي تمتع بها اليهود في أوروبا. وقد تم تأسيسه نحو عام 1580. والبلاد الأربعة هي أقاليم بولندا الأربعة: بولندا الكبرى (بوزنان)، وبولندا الصغرى (كراكوف)، وأوكرانيا (فولينيا)، وروسيا الحمراء (جاليشيا). وانضمت إليه قهالات ليتوانيا التي عادت واستقلت عام 1623 بمجلس مستقل لخلاف حول الجباية والسلطة.

لم يكن المجلس يضم مندوبي الأقاليم وحسب، وإنما كان يضم كذلك مندوبي بعض المدن المستقلة.. وكان بناء المجلس يتكون من: رئيس المجلس وأمين الصندوق والسكرتير الأول والوسيط (شتدلان) وكاتب المجلس ومقدِّري الضرائب. **وكان المجلس يجتمع مرتين كل عام في الأسواق السنوية أو في البلد الذي كان يقيم فيه وزير المالية البولندي**. وكان اختيار أعضاء المجلس يتم بالانتخاب بالمعنى الفضفاض للكلمة، فلم تكن أغلبية يهود بولندا الساحقة تشارك في هذه الانتخابات. ويُقال إنه، في الفترة الأخيرة من تاريخ المجلس، لم يكن عدد المشتركين في الانتخابات

يزيد على نسبة ضئيلة تصل إلى حوالى 1.1% (بل بلغت 0.7% في ليتوانيا). **وكانت وظيفة المجلس الأساسية الإشراف على التجارة اليهودية، وتحديد نسبة الفوائد للمرابين اليهود، وكذلك السياسات المالية والاقتصادية لأعضاء الجماعة. وكان من أهم أنشطته في هذا المضمار محاولة تقليل حجم التنافس بين يهود الأرندا في محاولة الحصول على امتياز استئجار القرى. إضافة إلى جمع الضرائب من المناطق كافة باعتبار أن الجماعة اليهودية تشكل وحدة مالية مستقلة داخل الدولة البولندية،** كما كان يسوي النزاعات بين اليهود. أما النزاعات بين اليهود وغير اليهود، فكانت تنظر فيها السلطات البولندية. وكان المجلس في منزلة محكمة استئناف وهيئة تشريعية وإدارية. كما كان المجلس يشرف على التعليم اليهودي والأمور الدينية، وكذلك على تعيين الحاخامات والقضاة وجباة الضرائب والمدرسين والذابحين الشرعيين.

وخلال القرن الثامن عشر بدأ هذا النظام في الضعف بتآكل النظام السياسي والاجتماعي في بولندا، وانهياره التام في نهاية الأمر. وبظهور طبقات جديدة من يهود بولندا، لم تَعُد هذه الطبقات تأخذ بالإطار القديم. وبازدياد الجماهير اليهودية فقراً، أصبح من الصعب جمع الضرائب منها. كما أن الأمراء البولنديين الإقطاعيين كانوا دائمي التدخل في شؤون المجلس للدفاع عن محاسيبهم من اليهود. **وقد تحوَّل مجلس القهالات إلى مؤسسة لابتزاز اليهود عن طريق اليهود أنفسهم، فكان أثرياء اليهود المتحكمون في هذه المؤسسة كأداة طيعة في يد الحاكم البولندي، كما أن الجماعات اليهودية الكبيرة المهيمنة على المجلس كانت تحاول فرض نصيب أكبر من الضرائب على الجماعات الصغيرة.** ولذا، فقد رفضت مجموعة من الجماعات في ليتوانيا عام 1721 دفع الضرائب التي فرضها المجلس بل اشتكت إلى الحكومة. وفي عام 1764، قررت الحكومة البولندية جمع الضرائب مباشرةً من كل جماعة يهودية حسب حجمها. ومع حلول العام 1822 سقطت كل أشكال الحكم الذاتي للجماعات اليهودية[144].

مجالس يهود وسط أوروبا

«لاندزيودينشافت»: كلمة ألمانية تعني «الجماعة اليهودية في البلد» أو «يهود البلد»، وهو الاسم الذي كان يُطلَق على الجماعات اليهودية ومجالسها الإدارية في وسط أوروبا: مورافيا وبوهيميا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا والنمسا. وهي المجالس التي اضطلعت بكثير من الوظائف التي كان يقوم بها القهال في بولندا والماهاماد[145] في هولندا وغيرها من البلاد. وكان يُوجَد لهذه

المجالس مجلس إقليمي في مورافيا وبوهيميا ثم انشق مجلس براغ عنه. ولأنه لم تكن هناك دولة ألمانية مركزية، حيث كانت ألمانيا مُقسَّمة إلى إمارات ودوقيات، فإن هذا الوضع انعكس على نظام الإدارة الذاتية الخاصة باليهود ولم يظهر مجلس إقليمي مركزي على غرار مجلس البلاد الأربعة. وقد كانت هناك مجامع مركزية تُعقَد من آونة إلى أخرى. ولكن بعد عام 1770، ومع ضعف خلفاء إمبراطور ألمانيا تشارلز الخامس، قَلَّت هذه الاجتماعات وعُقد آخرها في فرانكفورت عام 1603 ومنذ ذلك التاريخ، أصبح لكل جماعة مجلسها، وأصبحت كل جماعة يهودية مستقلة تماماً عن غيرها حيث كانت شرعية مجلسها لا تتجاوز حدود الإمارة أو الدوقية، بل إن بعض الأمراء كان يمنع رعاياه اليهود من اللجوء إلى محاكم حاخامية خارج إمارته. وحيث إن عدد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعيشون داخل كل إمارة كان صغيراً، فقد كان اختيار أعضاء المجالس يتم بالتعيين. وقد سيطرت بعض الأسر اليهودية الثرية، وخصوصاً يهود البلاط، على الجماعات اليهودية ومجالسها، كما حدث في كليفس(Cleves) حين هيمنت أسرة جومبيريز على الجماعة اليهودية فيها زهاء قرن من الزمن. فكان منهم الرئيس (برناس) والوسيط (شتدلان) والحاخام وأمين الصندوق. وفي بعض الأحيان، كان يضطلع بكل هذه الوظائف فرد واحد. ومع هذا، كانت توجد جماعات كبيرة، مثلما كان في فيينا وبرلين وبراغ، يتم اختيار أعضائها بالانتخاب من بين أعضاء الأسر الثرية. وكثيراً ما كان ينشب صراع بين اللاندزيوديناشافت والماهاماد. وقد اختفت معظم هذه المجالس مع تَغيُّر وضع اليهود الطبقي والوظيفي وظهور الدولة القومية الحديثة[146].

وهناك أشكال أخرى مستحدثة من قيادات الجماعات اليهودية، **والتي ستتحول في المستقبل إلى لوبيات يهودية ضاغطة لمصلحة الحركة الصهيونية، وإسرائيل فيما بعد**، ومن أهمها:

روابط المهاجرين: هي روابط تضم مهاجرين من بلدة واحدة أو مقاطعة واحدة في الوطن الأصلي. وقد تأسَّست مثل هذه الروابط في إنكلترا وجنوب أفريقيا وأساساً في الولايات المتحدة (خصوصاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) بين يهود اليديشية. وكان لكثير من هذه الروابط معبدها اليهودي المقصور عليها، وكانت لغتها في معظم الأحيان، اليديشية. وهذه الروابط مؤسسات وسيطة تهدف إلى تزويد المهاجرين بشيء من الطمأنينة وتُسهِّل عليهم عملية الانخراط في المجتمع الجديد وتضع تحت تصرفهم خبرة من سبقهم من مهاجرين. ولهذا، ومع اندماج المهاجرين في بلادهم الجديدة، تختفي هذه الروابط أو تتحول إلى مؤسسات تضطلع بوظائف اجتماعية جديدة برغم احتفاظها بالاسم.

حلقة العمال: (باليديشية أربيتر رنج). وهي منظمات اجتماعية أسسها العمال المهاجرون من شرقي أوروبا (من يهود اليديشية) عام 1900. **وبلغ عدد فروعها 660 فرعاً تضم سبعين ألف عضو. وقد ساهمت هذه الحلقات في تكوين اتحادات العمال في صناعة الإبر والنسيج التي تَرَكَّز فيها أعضاء الجماعة اليهودية.** ومثل هذه المنظمات هي، في واقع الأمر، منظمات وسيطة تساهم في إدماج أعضاء الجماعات المهاجرة بإنشاء مؤسسات تحافظ على هويتهم شكلاً وإسماً ولكنها تقدِّم لهم في الحقيقة قيم المجتمع الجديد[147].

جماعات الأصدقاء: وهي جماعات صغيرة من يهود الولايات المتحدة تعود بداياتها إلى أواخر الستينيات (ويُقال إن أول جماعة تأسست في سومرفيل في ولاية ماساشوستس عام 1968) وانتشرت في السبعينيات حتى أصبحت جزءاً من حياة يهود الولايات المتحدة. وهي تعبير عن رغبة بعض قطاعات من يهود الولايات المتحدة (وخصوصاً من أعضاء الطبقة الوسطى) في أن تحتفظ بشيء من الخصوصية والهوية، وفي أن تتحرك داخل جماعة صغيرة مألوفة لديها[148].

الحاخامية

الحاخام ومعناها الحكيم، وهي السلطة الدينية الأساسية عند اليهود، ولكنهم يعتمدون مصطلح الراب (الرب أو السيد، ومنها رابين). وكان هذا المُصطلَح يُطلَق على جماعة المعلمين الفريسيين «حاخاميم»، ومفردها حاخام. أما المعنى الأكثر شيوعاً فهو «القائد الديني للجماعة اليهودية» الذي كان يقوم بوظيفتين: أولاهما تفسير التوراه وتطوير الشريعة الشفوية، ولكنه أصبح، إلى جانب ذلك، القائد الديني للجماعة اليهودية الذي يقوم بالإشراف على الصلوات في المعبد اليهودي، فكان يلعب دور المرتل (حزان). كما كان يقوم بشرح التوراه في كل من المعبد والبيت همدراش (المدرسة الملحقة بالمعبد)، وإصدار الفتاوى، والإشراف على التعليم الديني، ومراقبة تنفيذ الأوامر والنواهي (قوانين الطعام وإقامة شعائر السبت وغير ذلك). وكان يحضر حفلات الختان، كما كان يقوم بكتابة عقود الزواج ودفن الموتى إلى جانب القيام بدور الخاطبة أحياناً.

أما سلطة الحاخام فكونها من أقدم السلطات الروحية عند اليهود، إلا أنها تجاوزت الجانب الروحي إلى المنحى السلطوي المحض، حيث يقول إسرائيل شاحاك: «لقد كان للطوائف اليهودية منذ أيام الإمبراطورية الرومانية البائدة، سلطة قانونية كبيرة على أعضائها. ولم تكن هذه السلطة تلك التي تنشأ من خلال التعبئة الطوعية للضغط الاجتماعي (كمثل رفض التعاطي بأي شكل كان، مع

يهودي أنزل به الحرمان الكنسي، أو حتى دفن جثته) فقط، **بل سلطة الإكراه العارية أيضاً: سلطة الجلد والسجن والطرد– كلها كانت عقوبات تستطيع المحاكم الحاخامية، التي تنظر في أنواع الجرائم كافة، إنزالها بالفرد اليهودي، وبصورة شرعية تماماً. وكان بالإمكان في العديد من البلدان – وإسبانيا وبولندا مثالان بارزان – إنزال حتى عقوبة الإعدام، وقد أنزلت بالفعل، وأحياناً من خلال استخدام طرق وحشية بصفة خاصة، مثل الجلد حتى الموت**... ولم يكن كل هذا مسموحاً به فحسب، بل كانت تشجع عليه صراحة، وعلى السواء، السلطات الرسمية في البلدان المسيحية والإسلامية، التي كان لها في بعض الحالات، مصلحة مالية مباشرة أكثر... لأنه في أي وقت (في إسبانيا) كانت المحكمة الحاخامية تفرض غرامة على يهودي بسبب انتهاكه ليوم السبت، وكان الحاخامات يسلمون الملك تسعة أعشار الغرامة»[149]. وعن العقوبات المرعبة يذكر الباحث نفسه أنه في «أواخر عقد 1830، على سبيل المثال، **(أمر الحاخام الأقدس – تساديك) في بلدة يهودية صغيرة في أوكرانيا، بقتل مارق عن الدين، بإلقائه في المياه الغالية في حمامات المدينة»**[150]. **كما كان الحاخامات يقتلون بالسم كل من يعارضهم، أو من يثبت أنه ليبرالي:** منعت العقوبات الكنسية على عهد مترنيخ 1848، ولكن ما إن «وهنت قوة النظام موقتاً، حتى كان أول ما فعله قادة الطائفة اليهودية في مدينة ليمبرغ الغاليسية (لفوف اليوم) بحريتهم المستردة الجديدة، تسميم حاخام المدينة الليبرالي، الذي كانت الجماعة اليهودية غير الأرثوذوكسية، الصغيرة في المدينة، قد جاءت به من ألمانيا»[151].

ومع أن الحاخام لا يلعب دور الكاهن التقليدي، نظراً لأنه لا يقوم بدور الوساطة بين الإله والإنسان، فإنه كان يشغل مركزاً قيادياً في الجماعة. **كما أن المفهوم الحلولي للشريعة الشفوية، والتي جعلت الشعب أهم من الإله والشريعة الشفوية أهم من الشريعة المكتوبة، أضفت أهمية قصوى على مركز الحاخام، إذ أصبح أهم من التوراه نفسها (ما دام قادراً على تغييرها).** ومن ناحية أخرى، فإن تحوُّل الجماعات اليهودية في الغرب إلى جماعات وظيفية وسيطة، أدَّى إلى تزايد نفوذ الحاخامات. فالطبقة الحاكمة عادةً ما تُقوِّي نفوذ قيادات الجماعة الوظيفية حتى يَسهُل استخدامها وتوظيفها لأداء مهامها. ومن ثم، كان الحاخامات يُعفَون من الضرائب، كما كانوا يلعبون دوراً أساسياً في تقديرها وجمعها. ولم يكن يباح للحاخام أن يتقاضى راتباً نظير قيامه بمهامه فلجأ الفقه اليهودي إلى ما أسمَوه «سيخَار بطَّالاه»، أي «رسوم بطَّالة»، وهو تعويض عن الوقت الذي يقضيه الحاخام في عمله الديني والإداري.

وكان تنظيم الحاخامات في أي بلد يتبع الشكل السياسي السائد فيه. فإذا كان البلد مقسَّماً إلى إمارات صغيرة يكون لكل إمارة حاخامها، أما إذا كانت السلطة مركزية فإنه كان يُعيَّن حاخام أكبر مثل الحاخام باشي في الدولة العثمانية، أو الآرش سيناجوجوس في بعض البلاد الأوروبية في العصور الوسطى. وكان يوجد في إسبانيا، بعد توحيد شبه جزيرة أيبيريا، منصب راب دي لاكورتي، أي حاخام البلاط، كما يوجد في بريطانيا الآن حاخام أكبر بينما لا يوجد مثل هذا المنصب في الولايات المتحدة، بسبب طبيعة التنظيم المركزي في بريطانيا على عكس التنظيم الفيدرالي في الولايات المتحدة.

وقد بدأت أهمية الحاخامات كقيادات في التراجع خلال القرن السادس عشر. ومع ظهور الممولين اليهود كنخبة قائدة تزايدت ثروتهم ونفوذهم، الأمر الذي أدَّى إلى تناقص نفوذ الحاخامات، كما حدث في فترة يهود البلاط حين كان يهودي البلاط القائد الفعلي. ولما ظهرت الحسيدية حل التساديك الحسيدي محل الحاخام (وكان الحسيديون ينادون على قائدهم بلفظ «ربي»). كما طرح دعاة حركة التنوير أنفسهم في عصر الانعتاق والإعتاق باعتبارهم القيادة الحقيقية، **ثم جاءت الدولة القومية المركزية فقلصت نفوذ أية قيادة يهودية، إذ اضطلعت هي بكل وظائفهم تقريباً ولم يبق سوى الوظائف ذات الطابع الديني المحض.** وحتى هذا وُضع تحت الرقابة الشديدة حتى تضمن الدولة أن يتجه ولاء اليهود نحوها. **وفي فرنسا، كان يُعطَى للحاخامات أحياناً مضمون المواعظ التي يلقونها، ويُطلَب إليهم أن يعلموا أعضاء الجماعة اليهودية الولاء الكامل للدولة. كما تحوَّل الحاخامات في بعض البلاد إلى موظفين تابعين للحكومة يتلقون رواتبهم منها**[152].

* * *

أشكال التأثير اليهودي

يمكن القول باختصار إنّ ما تقدم، من أشكال قيادية يهودية كانت تهدف إلى أمرين اثنين: **هما تأمين مصالح الطبقات المحلية الحاكمة من انضباط وتمويل، وتأمين مصالح النخب اليهودية ضمن جماعاتها، عبر السلطة والإيرادات والنفوذ لدى السلطان**، وعليه يمكن القول «بأن أعضاء الجماعات اليهودية يندمجون في النخبة الحاكمة ويصبحون جزءاً منها وتصبح مصالحهم من مصالحها، حينما يصبحون جماعة وظيفية وسيطة. **وفي العصور الوسطى في الغرب، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الحاكمة وأصبحوا أقنان البلاط، ويهود آرندا في بولندا،**

ويهود بلاط في وسط أوروبا وفي نواح أخرى منها. وغني عن القول إن اندماج اليهود في الطبقة الحاكمة يعني انعزالهم عن بقية الشعب (من هنا تأثير اليهود في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها). أما اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الوسطى فيختلف عن ذلك تماماً، وهذا ما حدث في أوروبا بعد الثورة الفرنسية وفي الولايات المتحدة عند بدايات الاستيطان حينما جاء أعضاء الجماعات اليهودية بخبرات تجارية مهمة ورؤوس أموال كبيرة، فانخرطوا في سلك الطبقة المتوسطة واندمجوا فيها وفقدوا كثيراً من ملامحهم الإثنية.

ومع وصول اليديشية إلى أميركا في أواخر القرن التاسع عشر، اختلف الأمر تماماً، إذ تحولت أعداد كبيرة منهم إلى عمال يعملون في صناعة النسيج على وجه الخصوص نتيجة ميراثهم الاقتصادي الأوروبي كما رأينا آنفاً. **ولكنهم مع هذا لم يكوِّنوا طبقة عمالية مستقلة، إذ كانوا جزءاً من الطبقة العاملة الأميركية التي كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأميركي.**

وفي النتيجة، يمكن أن يستبدل أعضاء الجماعات اليهودية، في أوروبا خصوصاً، الشكل الوظيفي الذي خسروه مع التحولات الرأسمالية، لتندمج وظيفياً في المصالح الإمبريالية، وهذا هو جوهر الحل الصهيوني، «**إذ تذهب الصهيونية إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية في أوروبا قد فشلوا تماماً، كجماعات وظيفية أو كأفراد، في الاندماج في التشكيلات الحضارية القومية الغربية. ولكنهم كدولة وظيفية قتالية استيطانية، يمكنهم تحقيق ما فشلوا فيه كأفراد، إذ إن هذه الدولة ستندمج في التشكيل الإمبريالي الغربي من خلال تمثيل مصالحه في الشرق الأوسط والدفاع عن هذه المصالح، وذلك نظير أن يقوم هو بتمويلها والدفاع عنها**»[153]، وهذا الأمر خاضع للتوازنات في القوى، فمن المثير اليوم أن المعسكر الإمبريالي يقوم بالتمويل والدفاع، ولكن «إسرائيل» لا تستطيع القيام بدورها لمحاذير عديدة، أبرزها ظهور قوى مقاومة لهذا التوجه الإمبريالي، ما يطرح مصير المشروع الصهيوني برمته على طاولة البحث الجدي!

* * *

فروع اليهودية

تفرعت اليهودية القديمة في فلسطين إلى عدة فروع: الحسيديون؛ الصدوقيون؛ الفريسيون؛ القنائيون؛ الأسينيون. وقد شكل الصدوقيون (الصَدّوقيون) والفريسيون والأسنينيون المذاهب الأساسية

في العهد الهيرودي. وهذا ما قال به يوسيفوس فلافيوس، حيث يوضح أن الفريسيين «قبلوا بالهيكل لكي يصلحوه»، بينما خصومهم التقليديون، الصَدوقيون «نظّموا نفوسهم حول الهيكل».

الصدوقيون: إن المعلومات عن هذا الحزب قليلة نسبياً، نظراً لأن أتباعه اختفوا بعد دمار الهيكل سنة 70 للميلاد. وعن منشئهم فإن سفر حزقيال[154] يربط الصدوقيين بسلالة ليوي، بينما يقول سفر الملوك بربطهم بصادوق الذي مارس وظيفة رئيس الكهنة أيام شلومو[155]المزعوم. وقد صادر الحشمونيون منصب رئيس الكهنة منهم، فيما فر آخر كهنتهم أونيا الرابع إلى مصر وبنى في أون (عين شمس) هيكلاً مستقلاً عن هيكل أورشليم. إلا أن هذا المذهب عاد إلى الظهور بعد زوال الحشمونيين، في شخص عظيم الكهنة الذي عيّنه هيرودس الكبير سنة 37 [156]، بينما يستنتج آخرون أن اسمهم يعود إلى كلمة «صدق» التي تعني الصدق والبراءة والعدل والتقوى. وقد وُجدت عبارة «بني صادوق» في مخطوطات البحر الميت، **وهناك من يقول أن هذه المخطوطات دُسَّت من قبل الصادوقيين ليظهروا قدم هذا المذهب واقترانه بشلومو التوراتي.** وعلى هذه الاختلافات يمكن تأسيس الرأي، تماماً كما يمكن التأسيس على التناقضات التي تملأ كتب اليهود المقدسة.

«ومهما يكن من أمر، فالأكيد هو أن اتجاهات متعدّدة ارتسمت في العالم اليهودي على أثر التمرد المكابي (167 ق م). فالحسيديم (الأتقياء وأصحاب الورع) تشيّعوا لمتتيا في البداية. ثم ابتعد عنه بعضهم ساعة امتزج الدين بالسياسة وصار المكابيون سلالة ملكية سمّيت سلالة الحشمونيين. في هذا الوقت تأسّس الأسينيون والفريسيون وعُرفوا كمجموعتين مميَّزتين خلال القرن الثاني ق. م. وما يميز الصدوقيين عن الفريسيين، هو كونهم محافظين. ولهذا فهم يتمسّكون تمسّكًا شديدًا بحرف الشريعة المكتوبة. أما الفريسيون فيفسّرون الشريعة ويتجاوزونها ويحدّدونها ويبُرزون تفاصيلها وهكذا يُغنون النص. [157]وبما أن الصدوقيين محافظون، كانوا سابقين على الفريسيين والأسينيين المتهلنسين الذين أرادوا التغيير في المفاهيم اليهودية». ويورد يوسيفوس[158] اسم يوحنا هرقانوس وابنه الاسكندر ينا، كما يرد اسم خمسة كهنة عظماء من عائلة بوئاتوس في أيام هيرودس والرومان.

ويقول الأب فغالي: «يجب أن نميّز بين الموقف الصادوقي وارتباطه بالماضي، الذي يشمل جزءًا من العالم اليهودي على أثر الثورة المكابية، وتنظيم جماعة صدوقية بَنَت نفسها في ردّة فعل ضد التجديدات الفريسية (لا نعرف متى وُلدت). فاذا أخذنا بالاشتقاق الشائع، أشار اسمُ الصدوقيين

إلى هذا التعلّق بتنظيم الماضي (لا سيّما بالكهنوت)، بل إلى عداء عميق ضد هؤلاء الكهنة الذين صاروا ملوكًا وأسّسوا سلالة ملكية»[159].

والصدوقيون في عقيدتهم ينكرون كل حياة في الآخرة، وبالتالي لا يؤمنون بالقيامة. ولا يعترفون بوجود الملائكة ولا الشياطين، ويعتقدون بفناء الروح والجسد كما في الزرادشتية. ولا يقرون بالقدر، حيث أن الإنسان عندهم مخير بملء حريته بين الشرّ والخير، وأن الرب لا يلعب أيّ دور في شؤون البشر.

وتعتبر الكنيسة المسيحية أن الصدوقيين مسؤولون عن مقتل السيد المسيح، ويورد الأب فغالي أنه: «كان قيافا رئيس الكهنة من سنة 18م إلى سنة 37م، الذي سيطر عليه حموه حنان الذي كان رئيس كهنة من السنة 6م إلى السنة 15م، من عائلة صدوقية. وهكذا تكون مسؤولية الصدوقيين كبيرة في مقتل يسوع، وقد خافوا على مراكزهم الرفيعة»[160].

الأسينيون[161]: «فرقة دينية يهودية لم يأت ذكرها في العهد الجديد، وما ذُكر عنها في كتابات فيلون ويوسيفوس متناقض. ولعل هذا يدل على وجود خلافات في صفوف الأسينيين أنفسهم الذين لم يزد عددهم عن أربعة آلاف، وكانوا يمارسون شعائرهم شمال غرب البحر الميت في الفترة ما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والأول الميلادي.

والأسينيون (فيما يبدو) جناح متطرف من الفريسيين، وتقترب عقائدهم من عقائد ذلك الفريق، ويظهر هذا في ابتعادهم عن اليهودية كدين قرباني مرتبط بهيكل القدس. آمن الأسينيون بخلود الروح والثواب والعقاب، ووقفوا ضد العبودية والملكية الخاصة، بل ضد التجارة، وانسحبوا تماماً من الحياة العامة (على عكس الفريسيين). وقد قسَّم الأسينيون الناس إلى فريقين: البقية الصالحة من جماعة يسرئيل، وأبناء الظلام. وترقبوا نزول الماشيَّح لينشئ على الأرض ملكوت السماء ويحقق السلام والعدالة في الأرض. وقد عاش الأسينيون في جماعة مترابطة حياة النساك يلبسون الثياب البيض ويتطهرون ويطبقون شريعة موشيه تطبيقاً حرفياً، وكانوا أحياناً يتعبدون في اتجاه الشمس ساعة الشروق.

عاش الأسينيون من عملهم بالزراعة، وكانوا لا يتناولون من الطعام إلا ما أعدوه بأنفسهم، وهو ما زاد ترابط الجماعة (الأمر الذي جعل عقوبة الطرد منها بمنزلة حكم الإعدام). ويبدو أنه كان لهم تقويمهم الخاص. وقد حرموا الذبائح، ولذلك فقد كانوا يقدمون للهيكل قرابين نباتية وحسب.

كما حرموا على أنفسهم، أو أقلّه على الأغلبية العظمى منهم، الزواج. وقد انقرض الأسينيون كلية في أواخر القرن الأول الميلادي.

كان فكر الأسينيين متأثراً بالفكر الهلليني وأفكار فيثاغورث[162]، وبآراء البراهمة[163] والبوذيين[164]، وهو ما كان منتشراً في فلسطين (ملتقى الطرق التجارية العالمية في القرن الأول قبل الميلاد). ويُقال إن المسيحية الأولى تأثرت بهم، كما يُقال إن يوحنا المعمدان كان قريباً من الأسينيين، وإن المسيح كان عضواً في هذه الفرقة الدينية وإنه تأثر بفكرهم (ومن المعروف أن المسيح طرد التجار والمرابين من الهيكل). وقد كشفت مخطوطات البحر الميت عن كثير من عقائد الأسينيين. ومن أهم كتبهم كتاب الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهو من كتب الرؤى (أبوكاليبس)، وهو ذو طابع أخروي حاد. ويُقال إن الأسينيين آمنوا بيسوع الناصري كواحد من أنبياء يسرئيل المصلحين، ولكنهم رفضوا دعوة بولس إلى العقيدة المسيحية وظلوا متمسكين بالنواميس اليهودية. ويُقال أيضاً إن الأبيونيين هم الأسينيون في مرحلة تاريخية لاحقة[165].

الفريسيون[166] شابهوا عشيرة المجوس الفارسية من كل جوانبها ومنهم الكهنة المتعلمون والمتعصبون، وهم يؤمنون بحرية الإرادة عند الإنسان تحت سيطرة القرار الإلهي. أما القيامة عندهم فهي بالروح والجسد. «ويرجّح أن يكون الفريسيون خلفاء الحسيديين المتظاهرين بالتقوى «القديسيين» المذكورين في المكابيين[167]، والذين اشتركوا في التمرد المكابي ضد انطيوخوس ابيفانس (175- 163 ق. م.). وقد ظهر الفريسيون باسمهم الخاص في عهد يوحنا هركانوس (135- 105 ق. م.)، وكان من تلامذتهم فتركهم والتحق بالصدوقيين. وسعى ابنه اسكندر ينايوس من بعده إلى إبادتهم غير أن زوجته الكساندرا التي خلفته على العرش سنة 78 ق. م. رعتهم فقوي نفوذهم على حياة اليهود الدينية وأصبحوا قادتهم في الأمور الدينية»[168]، ولشدة فسادهم وبَّخهم السيد المسيح.

القنائيون[169] (الزيلوت) متعصبون يؤمنون بالعنف وسفك الدماء في سبيل تحقيق أهدافهم. وقيل إنهم الجناح العسكري للفريسيين، وقد مارسوا القتل للقتل، وكانوا يحملون خناجر ذات رأسين يطعنون بها في كل اتجاه[170]. وقد جاء أول ذكر لهم باعتبارهم أتباعاً ليهودا الجليلي في العام السادس قبل الميلاد. ولكن يبدو أن أصولهم أقدم عهداً، إذ إنها تعود إلى التمرد الحشموني (186 ق. م). ويذكر يوسيفوس شخصاً يُدعَى حزقيا باعتباره رئيس عصابة أعدمه هيرود، وحزقيا هذا هو أبو يهودا الجليلي الذي ترك من بعده شمعون ويعقوب ومناحم (لعله أخوه). وكان القنائيون منقسمين

فيما بينهم إلى فرق متطاحنة متصارعة. ومن قياداتهم الأخرى، يوحنان بن ليوي وشمعون برجيورا. ويُعَدُّ ظهور حزب الغيورين تعبيراً عن الانهيار الكامل الذي أصاب الحكومة الدينية وحكم الكهنة.
ومن أكثر جماعة القنائيم تطرفاً هم حملة الخناجر «سيكاري»[171]، وقد كانوا يخبئون خناجرهم ذات الرأسين تحت عباءاتهم للاغتيال. وأثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (66– 70م)، يُقال إنهم كانوا تحت قيادة مناحم الجليلي، وإنهم هم الذين أحرقوا منزل الكاهن الأعظم أنانياس، وقصري أغريبا الثاني وأخته بيرنيكي عشيقة تيتوس. كما أحرقوا سجلات الديون حتى ينضم الفقراء المدينون إليهم. وقد أدَّى نشاطهم إلى فرار الأرستقراطيين اليهود. ولكن الجماهير، بقيادة الغيوري المعتدل إليعازر بن حنانيا من حزب القدس، تمردت على المتطرفين وقتلت زعيمهم مناحم الجليلي، ففرت فلولهم. ويُقال إن الجماعة التي لجأت إلى ماسادا، وأبادت الجالية الرومانية بعد استسلامها، من أعضاء عصبة الخناجر. وثمة رأي آخر يرى أن جماعة إليعازر بن جاير كانت معادية لهم، ولكنها اختلفت معهم بشكل موقت[172].

على العموم هذه كانت أهم المذاهب اليهودية في فلسطين لغاية رواية تدمير الهيكل على يد الرومان، وخفوت ديانتهم في فلسطين، وأسطورة تشتتهم.

* * *

السامريون

معربة من كلمة «شوميرونيم» العبرية، أي سكان السامرة. ويطلق السامريون على أنفسهم «بنو يسرئيل»، أو «بنو يوسيف»، باعتبار أنهم من نسل يوسيف. كما يطلقون على أنفسهم اسم «شومريم» (حفظة الشريعة)، باعتبار أنهم انحدروا من صلب يهود السامرة الذين لم يرحلوا عن فلسطين عند تدمير المملكة الشمالية عام 722 ق. م، فاحتفظوا بنقاء الشريعة.

ومهما كانت التسمية، ومهما كان تفسيرها، فمن المعروف تاريخياً أنه، بعد تهجير قطاعات كبيرة من سكان المملكة الشمالية، قام الأشوريون بتوطين قبائل من بلاد عيلام وسورية وبلاد العرب لتحل محل المهجرين من سكان البلاد الأصليين، وإسكانهم في السامرة وحولها. وحسب رواية السامريين فقد امتزج المستوطنون الجدد مع من تبقَّى من السكان اليهود (الذين لم يكونوا قد وجدوا بعد في الحقيقة)، واتحدت معتقداتهم الدينية مع عبادة يهوه. وقد نتج من ذلك اختلاف عن بقية اليهود. ويورد المسيري روايتين يهوديتين لتاريخ الانشقاق يفصل بينهما قرن من الزمن، شأن

التناقضات التي يزخر بها العهد القديم، إلا أن المحررين حلوا التناقض لاحقاً على طريقتهم، باعتبار الحادثة حصلت بسبب النقاء العنصري على عهد عزرا ونحميا سنة 432 ق. م. ولكن الروايتين تتقاطعان عند نقطة تقول **إن حاكم السامرة الفارسي سنبلط الثالث زوج ابنته لشقيق الكاهن الأعظم اليهودي منسى، ما استدعى تدخل الكهنة المحافظين لتطليقها منه، وعندما رفض حصل الانشقاق ببناء منسى لهيكل على جبل جريزيم مستقل عن هيكل أورشليم، وانضم إليه الكهنة المتزوجون من غير يهوديات.**

نشبت صراعات بين السامريين وبقية اليهود، لكنهم تعرضوا لكثير من التوترات التي تَعرَّض لها اليهود في علاقتهم بالإمبراطوريات التي حكمت المنطقة. فبعد أن فتح الإسكندر المنطقة عام 323 ق. م، هاجر بعض السامريين إلى مصر وكونوا جماعات فيها. وهذه هي بداية الشتات السامري الذي وصل إلى تسالونيك وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان. وحينما قرر أنطيوخوس الرابع (175– 164 ق. م) إدماج يهود فلسطين في إمبراطوريته لتأمين حدوده مع مصر، كان السامريون ضمن الجماعات التي استهدف إدماجها وإذابتها رغم أنهم أعلنوا أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودي. وحينما استولى الحشمونيون على الحكم (164 ق. م) سيطروا على شكيم وجريزيم، ودمروا مدينة السامرة. وقد حطم يوحنا هيركانوس هيكلهم عام 128 ق. م. ومع هذا، فقد استمر السامريون في تقديم قرابينهم على جبل جريزيم. كما أن هَدْم الهيكل لم ينتج منه انتهاء طبقة الكهنة على عكس اليهود أو اليسرئيليين الذين انتهت عبادتهم القربانية المركزية وطبقة الكهنة التي تقوم بها بهدم هيكل القدس. ويبدو أن السامريين لم يساعدوا اليهود أثناء التمرد اليهودي الأول، ومع هذا نشب تمرُّد مستقل في صفوفهم ضد فسباسيان عام 67 ق. م، وتم قمعه. كما ثار السامريون ضد الرومان (79– 80 م)، فهُدمت شكيم وبُني مكانها نيابوليس (نابلس) أي «المدينة الجديدة».

تمتع السامريون بمرحلة ازدهار فكري في القرن الرابع الميلادي تحت قيادة زعيمهم القومي بابا رابا. ومن أهم مفكريهم الدينيين مرقه الذي عاش في القرن نفسه، وكاتب الأناشيد التي تُسمَّى «إمرالم دارا».

ويُقال إن الرومان سمحوا للسامريين ببناء هيكلهم الذي دمره الحشمونيون حينما رفضوا الانضمام إلى ثورة بركوخبا. ولكن هذا الهيكل دُمِّر بدوره عام 484 م. وقد عانى السامريون الاضطهاد على يد الإمبراطورية البيزنطية، وفي العام 529 م، قام جوستينيان بشن هجمة شرسة

عليهم لم تقم لهم قائمة بعدها. وقد ساعد السامريون المسلمين إبان الفتح الإسلامي، كما وقفوا مع المسلمين ضد الغزو الصليبي.

يعتقد السامريون بأن الكاهن يعقوب هو الذي جمع السامريين على قمة جبلهم المقدس في السامرة، حيث يعتقدون أن إبراهام أراد أن يقدم ابنه ذبيحة، وحيث يوجد قبر الكاهن يعقوب. وهم يؤمنون بالله والقيامة في اليوم الآخر والملائكة. وتبنوا الجزء الأول من الشهادة الإسلامية «لا إله إلا الله»، وكانوا قبل يشيرون إلى الرب بكلمة «إل»، أو «ألّلا» كما يسمونه «يهوه»، وهم يؤمنون بأن موشيه نبي الله الأوحد. أما الكتاب المقدَّس عند السامريين فهو أسفار موشيه الخمسة التي تختلف عما لدى اليهود في ستة آلاف موضع، يضاف إليها أحياناً سفر يشوع. ولغة العبادة عند السامريين هي العبرية السامرية، ولكن لغة الحديث ولغة الأدبيات الدينية كانت العربية. وكان كتابهم المقدَّس يُكتَب بحروف عبرية قديمة.

ويحتفل السامريون بالأعياد اليهودية، مثل يوم الغفران وعيد الفصح، ولكنهم كانت لهم أعياد مقصورة عليهم وتقويم خاص بهم. والسامريون يؤمنون بعودة الماشيَّح برغم أنه لا توجد في أسفار موشيه الخمسة أية إشارة إليه. وهم لا يعترفون بداود أو شلومو ولا يعترفون بقدسية جبل صهيون، فلهم جبلهم المقدَّس جريزيم (الجبل المختار) الذي سيعود إليه الماشيَّح.

يعتقد السامريون أن اليهود تكاثروا لأنهم تشتتوا في الأرض، بينما السامريون يتناقصون لأنهم بقوا في بيئتهم، ومنذ شلومو واليهود يحاربونهم. ويذهب السامريون إلى أن اليهودية الحاخامية هرطقة وانحراف، وأن قيادة اليهود الدينية أضافت إلى التوراه وأفسدت النص ليتفق مع وجهة نظرها. بينما يطلق اليهود على السامريين لقب «غوييم» (أغيار). والسامريون اليوم أصغر جماعة دينية في العالم، فعددهم لا يصل إلى الألف[173].

* * *

الفرق والجماعات اليهودية

فرقة القرّائين: تعتبر من أهم الفرق اليهودية من حيث العدد والفكر. أسسها عنان بن داود في العراق، القرن الثامن ميلادي (تأثر بفكر المعتزلة العقلي). رفض التلمود، في مقابل الالتزام الصارم بالتناخ (الشريعة النصية المكتوبة، أسفار التوراه وما يليها من أسفار النبيئيم والكتوبيم). على

خلاف الجماعة الربانية التي تعتبر أن التلمود أنزل على موشيه في جبل سيناء إلى جانب التوراه. وعليه رفض المحافظون أن يرث منصب رأس الجالوت عن عمه المتوفى، فآل المنصب إلى أخيه حنانيا، ونشبت خلافات كثيرة بسبب ذلك. وكان أن أعلن عنان مذهبه الجديد، معتمداً على ثلاثة من أحبار اليهود في العراق هم: إفرايم، وأليشع المعلم، وحنوكة، وهكذا ولدت حركة القرائين.

وهناك من ذكر أن أصل فرقة اليهود القرائين يعود إلى فترة سابقة على ظهور الإسلام، وقبل ميلاد المسيح، ويؤكد المقريزي هذه الحقيقة بقوله إن العنانية فرقة أخرى غير القرائين الذين أرجع تاريخهم إلى فترة سابقة، ويبدو أن القرائين والعنانية قد اندمجوا في كيان واحد بعد موت عنان.

أدى النزاع بين القرائين والتلموديين الربانيين إلى تكفير بعضهما بعضاً، وحرمت الصلاة في كنس الآخر والتزاوج المختلط. «ويعتقد أن يهود الخزر اعتنقوا يهودية قرائية، وكان كثير من قرائي روسيا وبولونيا يروون أن لغتهم هي التركية»[174]، بينما يعتبر آخرون أن العصر الذهبي للقرائين كان في فلسطين ومصر إبان العصر الفاطمي، حيث أصبحت لهم رئاسة مستقلة عن رئاسة العراق. ولكن رئيس اليهود في مصر كان من اليهود الربانيين منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر سلاطين المماليك على أقل تقدير. لكن الدولة كانت تعتبر رئيس اليهود من بين موظفيها الرسميين الذين تحاسبهم إذا ما فشلوا في القيام بواجبهم. وقد انتقل مركز الثقل عند اليهود القرائين إلى مصر منذ ذلك الحين فصاعداً[175].

القبّالاه

الاسم (الكابالا) اشتقاق من أصل آرامي ومعناه القبول أو تلقي الرواية الشفهية من دون أي اعتراض. ومذهب القبالاه من المذاهب اليهودية المتشددة، تتبناه اليهودية الأرثوذوكسية، وقد تأسس في القرن السابع الميلادي، ويشتمل على أفكار ونظريات وثنية بابلية وفرعونية، حول أصل الكون والخلق والطبيعة والبشر والقدر والروح. ويعتمد في طقوسه على ممارسة السحر والشعوذة، ويقوم على افتراض إن لكل كلمة ولكل حرف في التوراه معاني خفية، ويرى مذهب القبالاه إن تلك المعاني السرية لا يمكن اكتشافها، أو فك شفرتها إلا باستخدام الطرق العددية، والصيغ الرياضية، والتراكيب الهندسية المرتبطة بالسحر والتنجيم والهرطقة، بما يعرف بعبادة الأعداد والأرقام.

«وكان يُقصَد بالكلمة أصلاً تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يعرف باسم الشريعة الشفوية، ثم أصبحت الكلمة تعني منذ أواخر القرن الثاني عشر «أشكال التصوف والعلم الحاخامي

المتطور»، (إلى جانب مدلولها الأكثر عموماً باعتبارها دالاً على سائر المذاهب اليهودية الباطنية منذ بداية العصر المسيحي) وقد أطلق العارفون بأسرار القبالاه على أنفسهم لقب «العارفون بالفيض الرباني»[176]. أما الحركة الحسيدية التي ظهرت في بولونيا في القرن السابع عشر وانتشرت عبر غالبية الإمبراطورية الروسية وبعض أوروبا الشرقية فأدت إلى إضفاء الأهمية على القبالاه وعلى الأفكار المرتبطة بها من الناحيتين النظرية والتطبيقية في اليهودية»[177].

ويعتبر كتاب «زوهار» (من الآرامية وتعني النور) هو الكتاب الأساسي في هذه الخرافات، وقد دوّنه الحاخام موشيه اللبوني. وهو كتاب زاخر بالسحر والخرافات القديمة، ويقع في 23 مجلداً، ومكتوب بالآرامية، ويكتنفه الغموض والتعقيد، ويعتبر مرجعاً في دراسة التوراه، وخصوصاً دراسة المعاني الدفينة لها.

ويقول المسيري إنه «ورغم تأكيدنا على أن القبالاه ثورة على التراث الحاخامي، إلا أنها تضرب بجذورها في الطبقة الحلولية التي تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي منذ البداية في العهد القديم، حيث يتوحد الإله مع شعبه، وهو توحد كان يأخذ شكل العهد المتجدد بين الإله والشعب، والتدخل المستمر للإله في التاريخ لمصلحة شعبه.. وقد عبر الحلول الإلهي وعشقه لبنت صهيون عن نفسه في نهاية الأمر في شكل العبادة القربانية المركزية، حيث كانت تتم لحظة الحلول والالتحام بين الإله والشعب والأرض في يوم الغفران حين كان كبير الكهنة يدخل قدس الأقداس لينطق باسم يهوه»[178].

الحسيدية

من الكلمة العبرية «حسيد»، أي «تقي». وتشير إلى عدة فرق دينية في العصور القديمة والقرون الوسطى، وهي حركة باطنية غنوصية (عرفانية) انتشرت في الجزيرة الفراتية وشمال سورية. أما الآن فتستخدم للدلالة على الحركة الصوفية الحلولية التي أسسها بعل شيم طوف[179]. بدأت هذه الحركة في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر، متأثرة بنشاط الحركات الغنوصية المسيحية التي تمردت على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، واستفادت من كون هذه المنطقة تابعةً للسلطنة. ومنذ بدايات القرن التاسع عشر أصبحت الحسيدية عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في أوروبا، ويدين بها أغلبية يهود اليديشية. ويُلاحَظ أن هذه الحركة الحسيدية ضمت بداية الأغنياء من

التجار وأصحاب الحانات، ولم تضم الفقراء من العمال والحرفيين، الذين وجدوا أفكار الحسيدية غريبة وغير مفهومة، كما أن الأحزاب الاشتراكية والثورية نجحت في ضمهم إلى صفوفها.

وعن سر نجاح الحسيدية يقول المسيري: إنه يعود «إلى أسباب اجتماعية وتاريخية عديدة، فالجماهير اليهودية كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسبب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي، إذ طُرد كثير من يهود الأرندا، وأصحاب الحانات من القرى الصغيرة، الأمر الذي زاد من عدد المتسولين واللصوص والمتعطلين..وكانت هذه الجماهير في خوف دائم بعد هجمات خميلنتسكي، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوزاق. كما كانت تشعر بالإحباط العميق، بعد فشل دعوة شبتاي تسفي وتحوُّله إلى الإسلام، وما نتج من كل تلك الأمور من انعزال الجماعات اليهودية عن العالم الخارجي. أضف إلى ذلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمعات شرق أوروبا، التي جعلت من القهال شكلاً إقطاعياً طفيلياً لا مضمون له، يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء البولنديين، ولحساب موظفي القهال من اليهود الذين كانوا يشترون المناصب. ويُلاحَظ أن القبَّالاه كانت قد أحكمت هيمنتها على الفكر الديني اليهودي بقدرتها على إشباع التطلعات العاطفية لدى الجماهير الساذجة اليائسة.

كانت جماعة الخليستي[180] المسيحية المنشقة عن الكنيسة الروسية هي الأقرب إلى الحسيدية، التي تعتقد بحلول الروح القدس في مسيح آخر هو قائد الجماعة الذي يستطيع فعل معجزات كما فعل المسيح. والتساديك في الحسيدية هو القائد الذي يحل فيه الإله، وعادةً ما يتم توارث الحلول. إضافة إلى أمور حياتية أخرى منها الابتعاد عن الزوجات، والادعاء بأن بعل شيم طوف ولدته أمه وعمرها قد تجاوز المئة عام، وأن ابنه هرشل ولد من خلال الكلمة (اللوغوس) لأنه لم يعاشر زوجه قط.

ومن مظاهر حياة الحسيديم، لباس الأبيض في الأعياد وممارسة الغناء والرقص كالدراويش لحلول الروح الماشيَّح فيهم، إضافة إلى ممارسة الشعوذة لطرد الأرواح، والابتعاد عن حلقات التعليم. **كما أنهم يقفون ضد التمييز الطبقي، ما دفعهم للعداء مع الحاخامية والقهال،** فاتبعوا بعض التقاليد السفاردية في الشعائر (ربما تحت تأثير القبَّالاه اللوريانية ذات الأصول السفاردية)، كما أدخلوا بعض التعديلات على طريقة الذبح الشرعي (وهو ما يعني في واقع الأمر السيطرة على تجارة اللحم). وأصبح لهم معابدهم الخاصة وطريقة عبادتهم، ولذلك تحوَّلت الحركة من يهودية حسيدية إلى يهودية تساديكية (نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله). وهكذا تحولت الحسيدية (التساديكية) إلى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة، واستولت على القهال

في كثير من الأحيان، ولكنها لم تدخل أية إصلاحات اجتماعية، بل كان القهال أحياناً يزيد الضرائب على اليهود بعد استيلاء الحسيديين عليه. وقد ارتبطت كل جماعة حسيدية بالتساديك الخاص بها. ولذا، فقد انقسمت الحركة إلى فرق متعددة. فبعض هذه الفرق اتجه اتجاهاً صوفياً عاطفياً محضاً، في حين اتجه بعضها الآخر، مثل حركة «حبد»، اتجاهاً صوفياً ذهنياً يعتمد على دراسة كل من القبَّالاه والتلمود. كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة، زاد من هذا الانقسام. وأثناء الحرب النابوليونية ضد روسيا، أيَّد بعض الحسيديين الروس روسيا ضد نابليون، ولكن بعض الجماعات أيدت الأخير ضد روسيا، بل تجسست لحسابه. وقد حاولت المؤسسة الحاخامية القضاء على الحسيدية، فأصدر معارضو الحسيدية الذين كان يُقال لهم المتنجديم قراراً بطرد اليهود من حظيرة الدين، وحرق كتاباتهم كلها، وعدم التزاوج بهم. وكان من أهم الشخصيات الحاخامية التي قادت الحرب ضدهم الحاخام إلياهو (فقيه فلنا). **ومع هذا، ورغم الانقسامات والخلافات بين الحسيدية واليهودية الحاخامية، فقد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار العلمانية ومُثُل الاستنارة والتنوير والنزعات الثورية بين اليهود.** ولما كان القهال قد تداعى كإطار تنظيمي، فإن الحسيدية استطاعت أن تحل محله كإطار تنظيمي جديد. ولذا، فإن الحسيدية لم تنتشر جغرافياً وحسب، بل انتشرت عبر حدود الطبقات أيضاً.

انتقلت الحسيدية مع اليديش إلى أميركا منذ أواخر القرن التاسع عشر، واستقر تابعوها في بروكلين في منطقة وليامزبرغ. ومع ظهور النازية في ألمانيا، دمرت مراكزهم في شرق أوروبا.

من أهم الجماعات الحسيدية: جماعة لوبافيتش (حبد)، وجماعة الساتمار، وبراتسلاف وتشرنوبيل، ولا تزال توجد بينهم جيوب قوية معارضة للصهيونية. ويوجد مركزان أساسيان للحسيدية في الوقت الحاضر: أحدهما في الولايات المتحدة والآخر في فلسطين المحتلة[181].

هسكلاه

كلمة عبرية مشتقة من الجذر العبري «سيخيل»، ومعناها «عقل» أو «ذكاء»، ثم اشتقت منها كلمة «سيكيل» بمعنى «نور»، ثم استخدمت الكلمة بمعنى«استشارة»، والاسم منها: «مسكيل»، وجمعها: «سيكليم»؛ بمعنى: المتنورين أو دعاة التنوير[182]، وتَعني أيضًا المعرفة والنهضة. **أما في المصطلح العملي فتعني اليهودية الإصلاحية أو التقدمية. وقد ظهرت هذه الحركة في مُنتصَف القرن الثامن عشر كحركة تنويرية، تدعو إلى الخروج من موروثات العزلة**

اليهودية، والتخلي عن الخصوصيات الضيقة والاندماج في المجتمعات الحاضنة، واستبدال دراسات التلمود بدراسات العلوم الحديثة لمواكبة النهضة الأوروبية، وانتشرت من ألمانيا إلى النمسا وبولونيا وبوهيميا وروسيا.

قامت الحركة بتشييد العديد من المدارس التي خرجت الكثير من الحاخامات الليبراليين، كما ساهمت في إخراج العديد من نظام الغيتو، والمشاركة في الحياة السياسية.

ومن أشهر شعراء الهسكلاه الشاعر اليهودي يهودا ليف جوردون الذي دعا اليهودي إلى أن يكون يهودياً في بيته، وإنساناً خارج البيت.

ومن العوامل الداعية لظهور الحركة، رفض السلطة الحاخامية المتشددة التي كانت تهيمن على حياة اليهود بالكامل، وبالتنسيق مع السلطات الحاكمة، وفي هذا يقول المؤرخ اليهودي دبنوق: «إن المؤسسةَ الحاخامية قد أعطت لليهود حكومة دينية، وليس عقيدةً دينيةً.. كان هؤلاء الحاخاميون مستعدِّين لإصدار قرارات بالطرد من اليهودية لكل من انحرف عن التفسير المتشدد للشريعة اليهودية الذي ارتضاه الحاخاميون وفرضوه على اليهود، ومِن أجل أن يُحافظوا على هذا الشكل من اليهودية فقد أحاطوها بهالة من القُدسية يَخشى اليهوديُّ العادي أن يَمسها»[183]. **مما سبق يمكن فهم تزامن ظهور الحركة مع التبدلات السياسية البرجوازية في أوروبا منذ ما قبل الثورة الفرنسية.**

رائد هذه الحركة هو موزيس مندلسون (1729– 1786)، الذي دعا إلى البعث الفكري للدين اليهودي من خلال احتكاكه بالثقافة الأممية (الشعوب غير اليهودية) في القرن الثامن عشر. وكانت حصيلة هذا الصراع تمثلاً أقرب إلى الثقافة الأوروبية، وخلق علم جديد لليهودية، وحركات إصلاح ديني[184].

ومن العوامل الخارجية المساعدة كان التأثر بفلسفة التنوير الأوروبية التي شملت جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، والتي أرست مبادئ العلمانية، وفصل الدين عن الدولة. وتزامن مع الثورة الصناعية في أوروبا، وكذلك مع ظهور البروتستانتية المسيحية، وصك إمبراطور النمسا-المجر لبراءة التسامح التي هدفت إلى توحيد المجتمع، وإلغاء المعزل اليهودي. حيث بدت الهسكلاه كبروتستانتية يهودية في ألمانيا. وكان من نتائج نشاط هذه الحركة حصول اليهود على الحقوق المدنية في أوروبا الغربية منذ مطلع القرن التاسع عشر.

الأرثوذوكسية اليهودية

هي حركة أصولية يهودية تأسست مطلع القرن التاسع عشر، وقد جاءت كردة فعل على الحركة الإصلاحية اليهودية. واليهودية الأرثوذكسية تعد التلمود الوثيقة الأعلى شأناً لفهم اليهودية، ولكنها تعود في الشريعة إلى النصوص القديمة. وتعتقد بأن نقض أي من المراسيم الحاخامية الواردة تحتاج إلى انعقاد للسنهدرين من جديد، إبان ظهور الماشيح المنتظر (والاعتقاد السائد أن الشريعة ستنتقل من التلمود البابلي إلى اليروشلمي). وكان هذا الأمر معتمداً لدى غالبية اليهود في مرحلة الانحطاط الفكري في القرن السادس عشر، وخصوصاً في بولونيا القاعدة الرئيسية لدراسات التلمود.

إن اليهود الإصلاحيين لا يدرسون التلمود في مدارسهم العبرية، وإنما في حلقاتهم الحاخامية الخاصة، إذ إن مفهوم العالم الحاضر لدى اليهودية الليبرالية يرفض الشريعة اليهودية الملزمة، ويستخدم التلمود كمصدر للإلهام والتثقيف الأخلاقي والمعنوي. وبما أنهم لا يدرسونه بعمق[185]، فإن اليهود المحافظين لا يتقبلون أحكام الشريعة المحدثة بعد العام 1500م.

وثمة اختلاف بين الأرثوذكس في شرق أوروبا، عنهم في غربها، حيث يعارض الفريق الأول أي تجديد، سواء في الزي أو في النظام التعليمي، في حين تبنى الفريق الثاني سياسة الحفاظ على نمط الحياة التقليدية، مع تقبل الزي الحديث والتعليم العلماني، ولذا يشار إليهم بـ «الأرثوذوكس الجدد». ويعد الحسيديون من اليهود الأرثوذوكس المتطرفين، كما أن فكرهم يعبر عن الحلولية اليهودية. وقد هاجرت اليهودية الأرثوذوكسية مع المهاجرين من يهود اليديشية من شرقي أوروبا (من شتتلات روسيا وبولندا) الذين كانوا لا يتحدثون إلا اليديشية، والذين لم يكونوا قد تعرفوا إلى حركة التنوير والاستنارة. ومع وصولهم إلى أميركا وجدوا أن اليهودية السائدة فيها هي الإصلاحية التي يسيطر عليها العنصر الألماني الذي يحتقر يهود اليديشية، فأسس الأرثوذوكس اتحاد الأبرشيات في أميركا عام 1898، وأهم مؤسساتها العلمية جامعة يشيفاه[186]؛ وتبقى الإشارة إلى أن الأرثوذوكس هم أقلية صغيرة بين يهود الولايات المتحدة الاميركية.

الحلولية

هي النظرية التي تجعل من «الشعب اليهودي» الغاية النهائية وربما الوحيدة للتاريخ في عقيدة الماشيّح، وهو الذي تعتبر مهمته الوحيدة العودة باليهود إلى الأرض المقدسة لتأسيس

حكومة صهيون العالمية. ويبدو أن هذه الرؤية «هي التي شجعت النزعات المشيحانية التي اتسمت بها تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية منذ القرن الأول الميلادي، والتي تصاعدت حدتها ابتداءً من القرن السابع عشر في الغرب. **وقد أدى انتشار الجماعات اليهودية وتحولهم إلى جماعات وظيفية منعزلة عن المجتمع، إلى زيادة هذه النزعة المعادية للتاريخ بينهم، ويرجع هذا إلى الأسباب التالية: العزلة التي تؤدي إلى تجريد النفس وتجعل منها ذاتاً مستقلة عن حركيات التاريخ العام،** خصوصاً وأن أعضاء الجماعات الوظيفية يظنون أنهم يتمتعون بقداسة خاصة، بينما ولأنهم يتمتعون بحركية غير عادية، يصبح من العسير عليهم رؤية تراكم الأحداث داخل إطار محدد؛ **والسبب الآخر هو تعامل التاجر والمرابي مع مجردات ليس لها أية حدود (السلع – النقود – سعر الفائدة)، كما أن اليهود الذين اضطلعوا في العصور الوسطى بدور التجارة الدولية في المجتمعات الزراعية كانوا عناصر حركية متعددة الجنسيات عابرة للقارات غير قادرة على استيعاب فكرة الحدود التي هي جوهر الوجدان التاريخي. إضافة إلى أنّ هذه المهن ليس لها علاقة بالعملية الإنتاجية ذاتها. مضافاً إلى ما تقدم، تركيز أعضاء الجماعة الوظيفية على الوطن الأصيل، الحقيقي أو الوهمي، وهو بالنسبة إلى اليهود فلسطين، وهو تركيز يفقدهم الإحساس بالزمان والمكان**[187].

النصوصية المقدسة

«هي محاولة تفسير سلوك فرد أو جماعة ورؤيتها ومخططاتها بالعودة إلى النصوص المقدسة التي يؤمن بها الفرد أو الجماعة. والنصوصية شكل من أشكال الحرفية التي تفترض التقابل الكامل بين النص المقدس والواقع، ولكن الواقع هنا هو الإنسان. فكأن النص المقدس هذا لا يتجسد في الواقع وإنما في سلوك الإنسان وفي رؤيته»[188]، ولذلك يحاول البعض من اليهود وغير اليهود تفسير سلوك أعضاء الجماعات اليهودية انطلاقاً من التوراه أو التلمود أو غيرها من النصوص التي كتبها أو كتبت ونسبت إلى كتاب يهود، متجاهلين المراحل المتعددة لكتابة هذه النصوص المتفرقة، والتناقضات التي تملأ جوانب هذه الروايات وتفسيراتها. ما يظهر وكأنه أسلوب نمطي لدراسة سلوك الجماعات اليهودية بمعزل عن الظروف الذاتية والموضوعية.

وكما أنه توجد عند المسلمين السلفيين، فهي توجد كذلك عند اليهود والبروتستانتية المتطرفة والصهيونية ذات الديباجة المسيحية والديباجة اليهودية، وعند السلفية الإسلامية كذلك.

«فالبروتستانتية المتطرفة تقدم تفسيرات حرفية للعهد القديم تختلف تماماً عن التفسيرات المجازية والرمزية التي كانت تطرحها الكنيسة الكاثوليكية»[189]. كما كانت تفسر الحاخامية، ومن ثم جاءت الصهيونية التي لا تعترف بأية معايير أخلاقية أو إنسانية تعيق تحقيق أهدافها، لتتبنى التفسير الحرفي، متجاوزة التفسيرات المجازية للحاخامات، ومسرعة نحو استبدال صهيون بفلسطين، والمشياح بالبواخر الغربية التي تعيد اليهود إلى الأرض الموعودة.

نجمة عشتار

النجمة السداسية (المعروفة بين علماء الآثار بنجمة عشتار) بدأت قرص شمس ورمز عبادة عند السومريين واستعملها البابليون ووجدت في معظم الحضارات التي تلتها، نراها في حضارة أوغاريت وعند الفينيقيين وعند المصريين والكنعانيين.

النجمة السداسية موجودة في الحضارات القديمة منذ آلاف السنين قبل أن يجعلها اليهود في القرون الوسطى نجمة داود، وهي تعتبر من أكثر الرموز السورية فلسفة وروحانية.

النجمة السداسية المؤلفة من مثلثين متقاطعين، واحد قاعدته إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل ويمثل سعي الإلهي للحلول في البشري. ومثلث قاعدته إلى الأسفل ورأسه إلى الأعلى وهو سعي البشري للفناء في الإلهي، وتقاطعهما هو المخلص. وقيل هو يرمز إلى يسوع عند المسيحيين وقبله بعل وتموز وأدونيس وغيرهم. **وفي حضارة أوغاريت كان المثلث الذي رأسه إلى الأسفل رمز الأنوثة والمثلث الذي رأسه إلى الأعلى رمز الذكورة و بتداخل المثلثين تولد الحياة.** وهناك من يعتقد أن اليهود عندما غادروا بابل كانوا متأثرين بالحضارة والعبادة البابلية وأخذوا الكثير منها (والنجمة السداسية مثال على ذلك)[190]. **ويعتقد أن داود الروي الخزري هو أول من استعمل النجمة السداسية كشعار يهودي، حين قاد حملة في كردستان ودعا لاحتلال فلسطين في القرن الثاني عشر،** على أثر فشل الحملات الصليبية. وهناك من يقول بأن الرمز اتخذته مجموعة من اليهود المجريين شاركت في حروب بين براغ وبوهيميا في القرن الرابع عشر، أو بين براغ والسويد في القرن السابع عشر. ولكن الحقيقة أن هذه النجمة السداسية استعملت حتى في زمن الفراعنة في مصر، ولسهولة رسمها استعملت في فنون الآرابيسك الإسلامية على نطاق واسع.

* * *

اليـهودية

كان التوسع الهائل للإمبراطورية الآشورية، على زمن تغلات فلاسر الثالث، هو مقتلها الأساسي، حيث عجزت تلك الدولة في شروط ذلك الزمان من تأمين السيطرة والتواصل، والدفاع عن كل هذه الحدود التي شملت بلاد الرافدين وآسيا الصغرى وصولاً إلى مصر وشمال إفريقيا، فقد كانت على موعد نزال مع البابليين الذين استطاعوا وضع حد لعمر هذه الإمبراطورية التي لم يضاهيها حتى عصرها أحد. وقد مارس البابليون سياسة سبي شبيهة بتلك التي مارسها الآشوريون، ولكن بمقدار أقل، حتى أن البابليين جعلوا من أنفسهم مخلِّصين من عسف الآشوريين، وعاملين على إعادة توطين المنفيين ضمن عمليات النقل الجماعي للشعوب على يد الآشوريين. «ولدينا أكثر من نص بابلي يؤسس لممارسة نظرية إعادة التوطين، منها نص لنبوخذ نصر يقدم نفسه كمحرر للقرى اللبنانية من القمع الأجنبي، فهو من أعاد السكان إلى مواطنهم وهو الذي جمعهم ووجههم إلى أراضيهم.. وتظهر هذه الفكرة بشكل خاص، في نصوص الملك نابونيد التي يقدم نفسه فيها كمحرر للآلهة من الأسر، ومحرر رعاياه الذين أعاد توطينهم في أراضيهم، وباني المعابد المهجورة التي عهد بها إليه الإله مردوخ». [191] وعليه، فإن البابليين عملوا على توحيد العبادة للإله مردوخ (إله السماء).

لم يكن عمر الإمبراطورية البابلية طويلاً، فقد سيطر الملك الفارسي قورش الكبير (أو الثاني 557- 528 ق. م)، على بابل سنة 539 ق. م بلا مقاومة تقريباً، وقتل آخر ملوكها بلشاصر. ولم تكن تلك المدينة هي الوحيدة لتي نكبها هذا الفاتح، إلا أن الرواية الدينية التي نحلتها عن التوراه كل من المسيحية والإسلام، ثبتت في العقول الرواية وفاعلها، لتصدِّق الأولى وتلعن الثانية! وهكذ وضع الفرس حداً للتوجه البابلي، لينجحوا في وضع أسس لتجربة جديدة، مسارعين بقيادة قورش الثاني، باتهام سابقيهم بالاستبداد والإساءة إلى الآلهة، وأن إله بابل ذاته مردوخ هو الذي دعا قورش

«لينقذ الشعب ويعيد الأمور إلى نصابها، وأسلمه بابل التي فتحت ذراعيها لاستقباله دون مقاومة. وهو من بابل.. يعلن عن سياسته في إعادة بناء المدن المقدسة وهياكلها التي نقلت منها صور الآلهة، وإعادة المهجرين مع آلهتهم إلى تلك المدن التي جعلها البابليون خرابا»[192]. **وعليه كرر الفرس تجربة البابليين في توحيد الآلهة، هذه المرة تحت لواء الإله الفارسي أهورامازدا، ولكن بمحتوى إلهي محلي مطابق لمواصفات الإله الفارسي الأوحد الذي بشر به زرادشت**، وذلك من ضمن عملهم على تقسيم الإدارات الواسعة إلى مرزبانيات يحكمها حكام محليون تحت مراقبة مرازبة فرس. **ومن هنا انطلقت فكرة تأسيس الديانة اليهودية بعد فترة على يد عزرا ونحميا، المرسلين من قبل أرتحشثتا، بعد فشل محاولة زربابل في المهمة قبلهما. ديانة مبنية على روايات سرقت من تراث شعوب المنطقة، وتاريخ لم يساهموا في صنعه من قريب أو بعيد**، وعلى الرغم من أن **قصص الأولين، وخصوصاً المصريين لم تشر إلى قدوم فتىً بيع ليصبح وزير الفرعون الأكبر، أو الآشوريين وبعدهما البابليون لم تشر إلى تدمير هيكل باسم شلومو في أورشليم.**

إذن، سمح قورش الثاني الفارسي لمن نقلتهم الإمبراطوريات التي سبقت، بالعودة إلى مواطن أجدادهم، هذا إذا تذكر أحد من يكون، ومن أين جاء أهله. ولم يدَّعِ إسمياً هذا السماح لاحقاً سوى اليهود، ولم تك اليهودية قد تأسست بعد، ولم يأت أحد ضمن هذا السماح، إلا في عهد الوريث داريوش الأول (522– 486 ق. م)[193] الذي أرسل زربابل إلى فلسطين مع أول دفعة سنة 520 ق. م. يعني بعد مرور أكثر من مائة وستين عاماً على النفي البابلي المزعوم! ومع هذا لم يحدث أمر كبير يشير إلى فعل شيء في سبيل الدين الجديد! إلا إذا تخيلنا الأمر عملية استطلاع لفرقة دينية أو مجموعة عملاء يتقنون لغة البلاد التي أرسلوا إليها. **على كل، ليس هناك في تنقيبات التاريخ ما يؤشر إلى صحة هذا الزعم.**

مر عهد أحشويروش[194]، ولم تتفتق محاولة زربابل ومن تبعه عن أية نتيجة، إلى أن وصل إلى عرش الإخمينيين أرتحشثتا الأول (الطويل اليد: 465– 424 ق. م)، **فقام من ضمن خططه للسيطرة الطويلة على المنطقة التي وسعها أبوه وجده، بإرسال نحميا[195] كوالٍ لجمع الضرائب واستقرار الأمور، وعازر الكاهن لتوحيد الديانة المناسبة للمحتل الجديد، حسب الرواية التي توردها التوراه، والتي تؤكد أن الفكرة والتمويل، وحتى العقوبة، هي من بنات أفكار الملك الفارسي الطموح. وعليه، أطلق على منطقة يهوذا اسم «المقاطعة اليهودية» واستمر هذا الاسم قائماً حتى العصر الروماني.**

كان الهدف خلق كيان استيطاني قائم على ادعاءات العودة إلى المنطقة المستهدفة، والتي كان ادعاء الوفود إليها في القدم من بلاد الرافدين عبر أبرام، أو ادعاء التحدر منها، والذي خلق كمبرر، يعود إلى ما سمي «السبي» إلى بابل، أو التمدد نحو مصر عبر وصول أبرام في رحلته إلى هناك، أو ذكر «العبودية» في مصر مع دخول يوسيف وخروج موشيه، وذلك من أجل ضمان السعة المناسبة جغرافياً للمصالح الفارسية.

ومن أجل النجاح في المهمة، وفي وضع رواية تقنع سكان المنطقة الكنعانية للدخول في الدين الجديد، كان على محرري التوراه الأوائل اختلاق تاريخ لليهود يمتد عميقاً، يبدأ بشخص اسمه أبرام يتسلسل نسبه حتى يعقوب الذي يبدل الرب اسمه إلى يسرئيل ليبرر الاتصال الذي سيؤسس له عبر الرابط الأساسي، شلومو بن داود، الذي سيبنون له هيكلاً مزعوماً، في إسرائيل وأورشليم الكنعانيتين اللتين سوف تصادران لمصلحة الفكرة الاستعمارية الجديدة، فتكونان حلقة الوصل لما سيأتي في ظل الهيمنة الفارسية وما بعدها. **ولعل فكرة أبرام ونسبه إلى بلاد الرافدين، قد وردت لعزرا أثناء رحلته تلك من العراق إلى فلسطين، وكان لديه الوقت الكافي ليضع الخيوط الرئيسة لرواية الآباء، أما المحطات الجغرافية فقد خبرها أثناء الرحلة، وأما زمنياً فحدث ولا حرج!**

تأسيس الديانة اليهودية

بما أن اليهود يعتبرون أن تاريخهم مقدس مطلق، فهم لا يخضعون للتاريخ البشري، و«لا يعيرون الكثير من الاهتمام للزمانية التاريخية الإنسانية، ويعتقدون أن نهاية التاريخ ستتم عندما يصبح التاريخ اليهودي المقدس مركزاً للتاريخ البشري، وحينها يدخل التاريخ سبته في (يوم الرب)[196]. وحسب عبد الوهاب المسيري: فإن اليهودية من وجهة نظرها الذاتية تذهب إلى أن التاريخ هو الماضي كما يتذكره الإنسان، وبذلك يتخلى التاريخ عن جانبه الموضوعي لمصلحة الجانب الذاتي كلياً، **حيث يتطابق التاريخ المقدس، أو التاريخ العاطفي الذاتي مع التاريخ الحقيقي الموضوعي، والتاريخ الماضي (كما يتذكره أو يتخيله اليهودي)، أي إن حالة الهذيان الذاتي تتحول إلى حالة واقعية بغض النظر عن موضوعيتها!**[197]

يقول الباحث فراس السواح: «إن الرواية التوراتية هي قصة أصول مبتكرة لدين جديد ومجتمع جديد يحاول أن يثبت أقدميته وتجذره في المنطقة. وإن المحررين الذين صاغوا هذه القصة كانوا مدفوعين بهاجس تراثي لا بهاجس تاريخي»[198].

من أجل فهم أوضح لطبيعة تأسيس اليهودية، ينبغي إلقاء نظرة على الديانة الزرادشتية الفارسية. فقد أسس قورش الفارسي الإمبراطورية الإخمينية عبر توحيد إقليمي فارس وميديا ضمن مملكة واحدة. وكان إقليم ميديا بعاصمته مدينة الري، وثيق الصلة ببلاد الرافدين، وامتاز بديانته الزرادشتية التي تأسست قبل تأسيس سلالته. والزرادشتية تتكون من قوتين إلهيتين هما: النورانية السمائية التي ترمز إلى الخير وإلهها أهورامازده، والظلامية الأرضية التي ترمز إلى الشر وإلهها أهرمان. والإلهان ولدا من الإله زوران (الدهر)[199]، ذو الطبيعة المختلطة (ذكر وأنثى، قادر على التلقح ذاتياً).

ومن أهم مزايا هذه الديانة، وجود طبقة المجوس، الطبقة الدينية ضمن نظام المجتمع الطبقي الفارسي الأبدي، الذي لا يمكن تجاوزه، أو الانتقال بين طبقاته حتى ولو بقرار إمبراطوري! وطبقة أو عشيرة المجوس الدينية هذه، وجدت قبل تأسيس الديانة الزردشتية، وهي تتألف من كهنة، وعبَّاد وزهاد وسدنة ومعلمين. وقد شغلت أهم الأدوار في تاريخ الفرس القديم، وسوف نتذكر طبقة المجوس الفارسية عندما نتحدث عن طبقة اللاويين اليهودية فيما بعد. أما الطبقات الأخرى للمجتمع الفارسي فهي: طبقة أهل الحرب من فرسان ورجالة وطبقة رجال الإدارة، وطبقة أهل المهن من تجار وحرفيين ومزارعين ورعاة.

ومن المهم أن نشير إلى أن لغة ميديا، كانت الآرامية، ومع تأسيس الإمبراطورية الفارسية، صارت الآرامية لغتها الرسمية، وقد توسعت إمبراطورية الإخمينيين بعد احتلالها بابل، وسورية ومصر وآسيا الصغرى ووصلت إلى الهند وأفغانستان، وقد تمازجت في ظل هذه الإمبراطورية ثقافات عالم الشرق القديم.

وفي العودة إلى بدايات السيطرة الفارسية، ولمعرفة إذا كانت هناك أسبقية لقوم أو شعب أو دين اسمه اليهود، أو يسرئيل، **فإننا نذهب إلى تخت جمشيد (موقع برسيبوليس) في إصفهان الإيرانية، حيث توجد منحوتات جدارية تشكل تمثيلاً «لشعوب العالم القديم ودوله التي كانت تتوافد على مدينة الفرس لتقديم فروض الولاء، ولم يكن من بين هؤلاء من مثَّل شعب «يهود أو دولة لهم»،** [200] وحتى في نقش للملك داريوش الكبير (522- 486 ق. م) يذكر ثلاثين شعباً ومنطقة خضعت له، وتدفع الجزية، ولهم صور منحوتة في الصخر الأسود. «**ومثلما ليس هناك صور ليهود في المنحوتات، لم يرد ذكر يهود بين قائمة شعوب النقش. هذا وتتوافق مادة هيرودوت في عدم ذكر اليهود مع نقش رستم ومنحوتات تخت جمشيد»**[201].

ويذكر الباحث أحمد إيبش في كتابه التلمود، استخدام الفرس للحاميات العسكرية في فلسطين ومصر وسواهما، «وسكنت الحامية الإخمينية في مصر في جزيرة الفيلة (Philae) (بالنيل وراء سد أسوان)، وتميزت بعبادة الإله يهوه. وكانت لهذه الحامية علاقة بحامية فلسطين، التي سكنت حول مدينة القدس، ولربما لم يتجاوز تعدادها رجالاً ونساءً وأطفالاً مقدار اثني عشر ألفاً. وعثر أثرياً على بعض القطع الفخارية التي حملت أختاماً، بعضها حمل اسم «يه» ثم بعضها «يهد»، وهذه الأسماء من دون أحرف صوتية، عندما تحرَّك تصبح «يهوه» و«يهود»[202].

تبدأ الحكاية جدياً عند الملك أردشير الأول (أرتحشتا Artexerex 465– 424 ق. م)، الذي نشطت في بلاطه مجموعة من الكهنة الإداريين، وكانوا زرادشتيين بشكل عام، «لكن لهم تميزهم داخل هذه الديانة، التي انضوت تحت عنوانها عدة عقائد وديانات. **وتصدر هؤلاء عزرا الكاتب، المدون الأول لأسفار العهد القديم والمؤسس الفعلي لليهودية، ونحميا الساقي الذي تولى خدمة النساء في القصر الملكي، مما يرجح أنه كان مخصياً، وكذلك دانيال الذي عمل أيضاً ساقياً ومعبراً للأحلام. ولربما تردد عزرا ونحميا بحكم وظائفهما على فلسطين، وعاشا بعض الوقت مع الحامية الأخمينية التي كانت حول القدس، وأن هذا لربما كان حوالى 445 ق. م، وإثر هذا بدأت تظهر تسمية يهود، ويرجح أن عزرا ونحميا بشرا بزرادشتيتهما بين عباد يهوه وسواهم، وباتت لدينا مجموعة تميزت دينياً اسمها «يهود»، ولكن دون الخروج على جوهر الزرادشتية»**[203].

وكون عزرا ونحميا يقيمان داخل البلاط الإمبراطوري، فقد كانا بلا شك على اطلاع على مكتبة الملك وأرشيفه، وما يحتويه من معاهدات وتواريخ ومعلومات وأساطير، ومن هناك تبلورت الرؤية المبدئية للرواية التي عمل عليها فيما بعد، بمواد أولية أخذت من بين مراجع أرشيف القصر، وكان هناك متسع من الوقت لكي يدون عزرا الخيوط الأولى للعهد القديم من حواضر مكتبة القصر، ويرسم خطة أبرام والآباء الأوائل أثناء رحلته من بابل نحو فلسطين، وليضيف إليها فيما بعد ما تيسر من حكايا وأساطير من تراث المنطقة السورية الكنعانية، وما أخصب الخيال السوري في هذا المجال. وكان على عزرا أن يجد الوسيط الرباني الذي يصدق على هذا النتاج، فكان موشيه المصري. وبالرغم من الإضافات والتعديلات اللاحقة «ما تزال ثمة ملامح زرادشتية واضحة نجدها في مخطوطات البحر الميت، وفي أن رجل الدين اليهودي حمل التسمية التي حملها عضو هيئة المجوس أي حكيم (حاخام) وديّانه، ومثلما حمل كبير كهنة المجوس اسم «موبذ موبذان» حمل كبير كهنة اليهود اسم الكاهن الأعظم»[204].

«العودة» و«إعادة البناء»

في ضوء ما تقدم، وفي تتبع السياق التاريخي والمناخ الفكري للمرحلة التي تتحدث عنها الرواية التوراتية، نستنتج كما أسلفنا، **أن «العائدين» إلى أورشليم منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد، لم يكونوا استمراراً لأولئك المهجرين على يد تغلت فلاسر أو نبوخذ نصر، وأن «ما بنوه في أورشليم من هيكل ومدينة لم يكن استمراراً للبنية القديمة، بل بنية جديدة تحتضن مجتمعاً جديداً تم تصميمه وفق التصورات العامة السياسية والإيديولوجية للنظام العالمي الفارسي»**[205]. ولنؤكد ما ورد، علينا القيام بقراءة تحليلية متأنية لسفري عزرا ونحميا، اللذين يقدمان لنا معظم المادة الإخبارية عن «العودة» و«إعادة البناء»، حيث نكتشف بقية القصة. وبالرغم من عدم توافر إخبارية فارسية عن الـ«عودة» المفترضة إلى أورشليم بالذات، **فإن سفر عزرا ينبئ بما لا يدعو إلى الشك أن العودة كانت بدواع وظيفية خدمة للإمبراطورية الفارسية، في منطقة عند الحدود الجنوبية.**

والآن لنقرأ ما كتب في التوراه اليهودية، وندخل الإصحاح الأول من سفر عزرا حيث يقول: **«في السنة الأولى لقورش ملك فارس، عند تمام كلمة الرب بفم إرميا، نبه الرب روح قورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتاب أيضاً قائلاً: هكذا قال قورش ملك فارس، جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله يسرئيل، هو الإله الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب، لينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة، مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم... والملك قورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذ نصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته، أخرجها قورش ملك فارس وعدها لشيشبصر رئيس يهوذا، وهذا عددها... والكل أصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم»**[206].

نلاحظ أن الإله هنا يأخذ لقب «إله السماء» لأول مرة في معرض الإشارة إلى الإله القديم يهوه الذي لبس لبوساً جديداً متماهياً مع الإله الشمولي الفارسي. **علماً أن نص الملك الفارسي يتطابق مع نص الملك البابلي نابونيد في تجميع من تيسر تجميعه تحت عنوان «العودة» وبناء المعابد لرب الأرباب الإمبراطوري بأسماء محلية، كما فعل في حران، عندما أحضر جالية ادعى بأنها «المنفيون» الذين «أعادهم» إلى أرضهم، وبنى لهم معبد «سن» ملك الآلهة، النسخة المحلية للإله مردوخ، ولينسجم مع مصلحة الإمبراطورية البابلية.**

ثم نلاحظ أن هذا الملك أعد الخطة التفصيلية للعودة، وعين لها مصادر التمويل، والتكليف بالمساعدة لكل الرعايا.

أما سفر أشعيا فيكرر الرواية، ويزيد عليها بإسباغ لقب مسيح الرب على الملك قورش: «هكذا يقول الرب لمسيحه قورش، الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً... لكي تعرف أني أنا الرب إله يسرئيل. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي». [207] **يصير هنا يهوه إله يسرئيل هو إله قورش الذي لا إله غيره، يعني أن أهورامازدا ويهوه أضحيا واحداً، لأن الفرس لم يتخلوا عن أهورامازدا لمصلحة إله آخر، وهذا يثبت أن أنبياء يهوه هم وكلاء فارسيون وديانتهم هي نسخة مصنوعة للعبادة المحلية عن الديانة الفارسية.**

والآن نقرأ كيف يقص سفرا عزرا ونحميا رحلة «العودة» بالتفصيل، حيث إنه كان شيشبصر (ابن يهوياقين ملك يهوذا الأسبق) هو أول العائدين كوال على أورشليم، عقب دخول قورش إلى بابل بوقت قصير، على رأس مجموعة صغيرة، ثم يختفي هذا الوالي الفارسي من التوراه، **إلى أن يعود الحديث عن انطلاق الموجة الثانية من الهجرة نحو فلسطين في عهد الملك داريوش (522-486 ق. م)**[208] **بقيادة الوالي الجديد زربابل ويرافقه الكاهن يشوع. وكان تعداد الجالية 42، 360 مهاجراً عدا العبيد. وقد زودهم داريوش بمخطط لهيكل أورشليم أعد في عهد الملك قورش. وقد أمر داريوش واليه على غربي الفرات بتقديم نفقات البناء للهيكل وكل ما يحتاجه من خراج تلك المناطق دون تقصير**[209]**، ما يؤكد أن الهيكل هو لإله الإمبراطورية بالدرجة الأولى. وأمر داريوش بالاستمرار في تقديم الأضاحي للرب «والصلات لأجل حياة الملك وحياة بنيه... أنا داريوش قد أمرت فليفعل عاجلاً»**[210]**، ومن المؤكد أن داريوش لم يكن «عبرانياً»، ولم يعتنق ديانة لم تولد بعد!** ومن المفيد فهم أن اهتمام داريوش ببناء الهيكل وإرسال المهاجرين إلى كنعان على أنه يأتي ضمن «عملية الإصلاح الإداري الشامل التي قادها في جميع أنحاء الإمبراطورية، وعملية ترميم وتنشيط البنى السياسية المحلية في كل مكان، سيراً على المباديء التي وضعها الملك قورش»[211]. وكما جرى لشيشبصر، فقد اختفى زربابل وكاهنه يشوع عن الاحتفال الديني الكبير لتدشين الهيكل في السنة السادسة لحكم داريوش، دون أن يعاد ذكرهما لاحقاً.

لم تجد الإمبراطورية الفارسية بداً من إعادة تجربة سياستها التي لم تثمر سابقاً، وهي فرض الديانة اليهودية في فلسطين، وعليه فقد أوفد أرتحشتا الأول، وريث أحشويروش، الموجة الثالثة للهجرة من أنحاء الإمبراطورية الفارسية نحو فلسطين، بقيادة عزرا الذي يعترف بأنه هو من كتب

شريعة التوراه كما يفيد: «**في ملك أرتحششتا ملك فارس. عزرا بن سرايا صعد من بابل، وهو كاتب ماهر في شريعة موشيه التي أعطاها الرب إله يسرئيل. وأعطاه الملك حسب يد الرب إلهه كل سؤاله... وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك أرتحششتا لعزرا الكاهن الكاتب، كاتب وصايا الرب وفرائضه على يسرئيل من أرتحششتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل.... من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة الرب إلهك التي بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله يسرئيل، الذي في أورشليم مسكنه**»[212]. وطبعاً صدر الأمر لمن بيده خزائن ما بعد الفرات لتزويد عزرا بكل ما يحتاجه. وقد فوضه الملك الفارسي «صلاحية» تعيين قضاة وقضاة صلح، «على يهود فلسطين، **حتى إذا حدث ولم يأتمر أحدهم بقانون الرب إلهكم، وبقانون الملك، ينفذ فيه الحكم بسرعة»[213] بالموت أو النفي أو السجن.** «ومن خلال نحميا، ساقي الملك أرتحششتا، الذي عين حاكماً فارسياً ليهودا ويتمتع حتى بسلطات أكبر»[214]. **جاء ذلك من ضمن توجه مركزة القانون والاقتصاد الفارسي، حسب شريعة أهورامزدا. وقد تم فرض هذه الشريعه في صيغ محلية[215]. وعليه يكون عزرا فقيهاً في الشرع كما استلمه من الملك الفارسي (شريعة الرب وشريعة الملك)، وممثلاً أكبر للملك وليس والياً.** وهكذا قد قرأ عزرا نص الشرع الملكي على مسامع الشعب في احتفال كبير، **وأخذ البيعة من الشعب باحترام هذا القانون الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً! وعليه، «فقد كان على عزرا أن يشرح فقراته للكهنة واللاويين ورؤساء الشعب ليعمل هؤلاء على شرحها للبقية وإفهامهم مضمونها، وبالطبع، فإن هذا الشرح وإعادة الشرح لا يمكن أن يكون موضوعه شريعة موجودة بين أيدي الشعب، تنظم أحواله الدينية والدنيوية، وترقى إلى أيام موشيه، وليست تسمية هذه الشريعة في سفري عزرا ونحميا بشريعة موشيه إلا لمسة تحريرية وضعها المحررون عندما ألحقوا أخبار الفترة الفارسية بالقصة التوراتية الطويلة. وفي الحقيقة، فإن الميثاق الذي أخذته الجالية الجديدة في أورشليم على نفسها بقبول شريعة الله وشريعة الملك، هو «العهد الأول» الذي يتم بين إله السماء الجديد في هيكل أورشليم وبين شعبه الجديد، وهو الذي أسقطه المحررون على قصة الأصول فعقدوه منذ البداية بين أبرام وإلهه، وجددوه مع بقية الآباء**»[216].

وبالرغم من أن سفري عزرا ونحميا لا يعطيان تفاصيل عن الشريعة التي ينبغي اعتناقها وفرضها، فهي شريعة فارسية نظراً لعدم مطابقتها لوصايا موشيه وشروحاتها، فقد تركزت هنا حول أمور إدارية وأحوال شخصية ومظاهر طقوسية تستهدف الجالية الجديدة في منطقة يهوذا، وقد جرى ربط هذه القوانين الفارسية والطقوس الهورامزدية اسمياً مع الآلهة المحليين للمناطق المستهدفة،

ومنها أورشليم وما حولها. **فقد كان على الشعب أن يقبل شريعة الإله وشريعة الملك على السواء، ومن يخل يعاقب بالموت أو السجن أو النفي أو الغرامة! يعني أن إرادة الملك مساوية لإرادة الرب، وعلى الكهنة أن يبشروا بذلك ويعملوا على التطبيق والإخضاع! وعليه بدأ نحميا وعزرا بحلق الرؤوس وتطليق الزوجات من الأغيار، والجلد وغيرها من العقوبات.**

والكاهن عزرا هو مدون النواة الأولى للشريعة، وهو «الذي يمكن أن يدعى بحق «أبو اليهودية»، فقد عمد فيما بعد إلى توسيع وتطوير هذه النواة بما يتلاءم مع التقاليد القديمة في المنطقة من جهة، ومع مستجدات حياة الجماعة. **ثم جاء تلاميذه وخلفاؤه، وشكلوا الآن كهنوتاً رسمياً راسخاً في أورشليم، فتابعوا هذه المهمة، وأخذوا على عاتقهم فوق ذلك ابتكار أصول لهذه الشريعة تجعل منها تقليداً مترسخاً في المنطقة لا أمراً عارضاً مفروضاً عليها من الخارج.** وهكذا ابتدأ العمل في قصة يسرئيل التوراتية. ففي سياق ابتكار تاريخ للشريعة بهدف تأصيلها وتثبيتها، كان لا بد من ابتكار أحداث وشخصيات تحمل هذا التاريخ وتطوره من مرحلة إلى أخرى، فابتدأت القصة بشكلها الجنيني المتواضع، ثم أخذت بالتشعب والتوسع، ونشأت على جوانب الخط الرئيسي لها قصص متفرقة متنوعة معظمها مستمد من التراث المحلي، تم اقتباسه وإدماجه في النسيج العام للرواية التوراتية»[217]، وهكذا بدأت القصة تكبر وتتشعب، وقد أضاف إلى شريعة عزرا الفارسية من جاء بعده، ليتم ربط التواريخ المستجدة بما قبلها، **وهكذا أعيد نسبه إلى تاريخ إسرائيل ويهودا الكنعانيتين، وجرت مصادرة تاريخ المملكتين، ليصبح تاريخاً مزعوماً لولاية فارسية مستحدثة، وجرى جمع أدبيات المنطقة وتراثها وتحويره وإعادة صياغته، «وفق إطار إيديولوجي كرونولوجي يضم التقاليد المتفرقة في كل موحد.** وبذلك أنجز كتاب التوراه، **وظهرت يسرئيل التوراتية ككيان ذهني وأدبي على أنقاض تاريخ السامرة ويهوذا المطمور تحت ركام الدمار الآشوري والبابلي»**[218]، من خلال هذا الجمع التعسفي لتراث المنطقة وتنظيمه ليظهر من خلاله تاريخاً ينسجم في الظاهر زمنياً، **إلا أنه ظل يحتوي على فجوات هائلة لا يمكن ردمها، إلا من خلال الالتزام الإيديولوجي (الإيمان).** وحتى هذا المظهر الإيديولوجي الذي حاول محررو التوراه فرضه على روايتهم، «فقد بقي غريباً عن جو القصص التوراتي التي استقل كل منها برؤيته الدينية الخاصة. فإله الآباء لا يشبه إله الخروج وإله أشعيا، وهذا لا يشبه إله القضاة... وسفرا أيوب والجامعة لا يمكن قراءتهما بعيني إرميا، ونشيد الإنشاد لا يمكن وضعه في أي سياق ديني توراتي. **وهذا يعني أننا لسنا أمام إيديولوجية دينية متسقة، تعلن عن نفسها بالطريقة نفسها عبر أسفار الكتاب، بل أمام إيديولوجية توفيقية لا تملك الحد الأدنى من الوحدة والانتظام»**[219].

وتجدر الإشارة إلى أن الأمر لم يتوقف عند أرتحششتا، وفي فلسطين فقط، فقد طاول المناطق التي وجدت بها جاليات عسكرية فارسية، أو محلية تابعة لفارس، «ويوجد من بين أوراق البردي المحفوظة في إليفانتين (جزيرة الفيلة في مصر العليا) كتاب يعود تاريخه إلى عام 419 ق. م، يحتوي على نص لأمر صادر عن ملك فارس، داريوش الثاني، ويتضمن تعليمات ليهود مصر بالنسبة إلى تفاصيل التقيد بفرائض عيد الفصح»[220].

بداية تحرير التوراه (القرن الخامس قبل الميلاد)

لم يتبين من كل هذا الادعاء التوراتي أن هناك تاريخاً يعتد به للجماعات اليهودية قديماً، حيث لم تعثر كل التنقيبات الأثرية، والأبحاث التاريخية على أي أثر للروايات المزعومة للتأثير اليهودي في مجريات الأحداث، أقله حتى الاحتلال الفارسي للمنطقة. ولشرح هذا الأمر، يقول اسماعيل الصمادي: «ويبدو أن الشريعة اليهودية (التفريدية التي تميل إلى التجريد) التي حرمت على اليهود فن النحت والتمثيل، جعلتهم يحصرون نتاجهم الذهني في اللغة، وهذا هو سبب إجادتهم فن الكتابة، ومن هنا جاء (الكتاب المقدس)»[221].

ويقدر بعض الباحثين أنّ التوراه تمت كتابتها على ثلاث مراحل:

1- في عصر يوشيا (639- 609 ق. م).

2- في عصر عزرا منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

3- في نهاية القرن الأول الميلادي.

ويؤكد الباحث فيليب ديفز أن التوراه قد كتبت بعد الأسر البابلي: «عندما بدأت مسألة النسب والأصل تتخذ طابع الأهمية في مجتمع مصاب برهاب الأجانب، هو مجتمع أورشليم ما بعد السبي البابلي»، ويضيف قائلاً: **«إني أرى بأن النص التوراتي هو الذي ابتكر اليهود واليهودية وليس العكس»**.. وكذلك يقول الباحث السوري فراس السواح: «ولم يكن لهذه الديانة أي صلة بشعب معين اسمه شعب إسرائيل، لأن تاريخ هذا الشعب كما ترسمه الرواية التوراتية لا يعدو أن يكون فانتازيا لا تصلها صلة بالتاريخ الحقيقي للمنطقة، بل لقد نشأت هذه الديانة واتخذت شكلها الحالي خلال القرون السابقة للميلاد»[222].

أما عن حجم الأسفار الأولى، فإن سفر الشريعة يشير إلى ضآلتها حين يقول: «**قام الوالي نحميا وعزرا الكاهن بقراءته على الشعب في أورشليم أثناء اجتماعهم مع الشعب لمرتين في اليوم نفسه**، وهذا يشير إلى أن التوراه حتى ذلك التاريخ لم تكن أكثر من عدة صفحات»[223]. (إنه القانون الذي سلمه أرتحشتا ليفرض على الشعب). ويذهب أكثرية الباحثين إلى أن الكاهن حلقيا هو من كتب سفر الشريعة من روايات شفوية وادعى أنه وجدها بين حجارة الهيكل المهدم أثناء ترميمه، على أنها تعود إلى يوشع الذي أملاها عليه موشيه فدونها على كومة حجارة في موآب شرق الأردن. ويرى تسونس من خلال تحليله البنية اللغوية لسفر حزقيال أنه كتب بين 400– 440 ق. م. ويبدو أن سفري نحميا وعزرا كتبا في مرحلة المكابيين، أي في القرن الثاني قبل الميلاد. **وبحسب قاموس الكتاب المقدس يعتقد أن عدد من ساهم في كتابة التوراه بحدود الأربعين كاتباً أقلّه، يعودون إلى مستويات شديدة التباين من حيث المستوى الثقافي والمعرفي والانتماء الطائفي والمذهبي، وقد أدى هذا التنوع إلى تباين شديد في المستويات النصية للكتاب المقدس**، وقد حاول المحررون أن يعيدوا تأهيل النصوص المتفرقة، وأن يحلوا انسجاماً فيما بينها، ولكن التباينات، والتناقضات الداخلية بقيت آثارها العميقة واضحة للعيان»[224].

إذن، كان المدون الأساسي هو عِزرا الكاتب، (عزرا هسوفير)، ويعده اليهود من أنبيائهم الأخرونيم (أي التاليين)، وله في العهد القديم سفر خاص به، ورد لقبه: «عزرا الكاهن الكاتب، كاتب كلام وصايا الرب». وعلى ذلك، ما كان مجرد المدون الأول لأسفار اليهود، بل والمؤسس الفعلي لليهودية الباكرة المستندة إلى التوراه (كتاب العهد) «سيفِر هَبريت». «وبعد عزرا، قام بمتابعة التدوين طائفة من الكتبة (أو كتبة الشريعة) عرفوا بالعبرية باسم «سوفريم»، فجمعوا أسفار التوراه وشرحوها، وربطوا بها التراث المروي شفاهياً، وراحوا يتناقلونه كشرح متواتر. وعلى امتداد 300 سنة، قاموا باستنباط أحكام التوراه وتكييفها حتى أضحت شريعة تفاعلية.. وبنهاية هذه المرحلية، كانت اليهودية الربانية أو الحاخامية قد تأسست بشكل واضح»[225]. وهناك مصادر تتحدث أنه في بداية القرن الثاني قبل الميلاد، تألفت هيئة قضائية دينية برئاسة المثاني[226] من الحكماء، أصبحت بمثابة سلطة تشريعية. ومن خلالهم تعاقبت خمسة أجيال بين حوالى 150– 30 ق. م، قام أول جيل منهم بوضع الأسلوب المشنائي في تداول الشريعة الشفاهية. غير أن تدوين المشناه[227] لم يتم في الواقع إلا في القرنين الثاني والثالث، على يد الجيل الأخير هِلّيل وشَمّاي.

مصادر مواضيع التوراه

1- **الألوهيم** (جمع إيل للتعظيم) الذي يتخذ من إيل إلهاً واحداً. ويعود إلى مملكة السامرة في الشمال.

2- **المصدر اليهوي** (يصور على أنه ذو رؤية بشرية ضيقة (يأمر ويأكل ويخطط ويندم ويعمل ويرتاح ويتشاجر) وسلطة محصورة بشعبه المختار، وهو إله قبلي وليس كلي المعرفة.

3- **المصدر التثنوي** وهو محاولة توفيقية بين اليهوي والألوهيم، وبين التراث الشفوي لقبائل إسرائيل في الشمال وتراث قبائل يهود الجنوب.

4- **المصدر الكهنوتي** الذي أدخل الشعائر والطقوس الدينية وترتيب الكهنة والسدنة ضمن التوراه، وأولى اهتماماً خاصاً بالأرقام والحسب والنسب، «وتم إدخاله متأخراً إلى الكتاب المقدس في سياق القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده... ويعتقد أو يربط أبراهام جايجر بين كتابة التوراه وبين الكهنة من أبناء صادوق على وجه التحديد الذين قاموا بكتابة أو تحرير المرويات التأريخية للمسبيين، مع تهويد الأدب البابلي ولكن بصياغة كهنوتية، والكهنة الذين جعلوا من الهيكل والعمل الكهنوتي مركز الحياة الدينية والاجتماعية لبني يهوذا.. وحسب مدرسة فلهاوزن فقد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحد، هو ما يسمى الآن بالعهد القديم، نحو سنة 200 ق. م، وقد تم تدوين هذه الكتابات على لفائف (أدراج) بواسطة قلم الأردواز، أو بواسطة الحبر»[228].

وقد مر تدوين التوراه بعدة مراحل تعرضت خلالها إلى الكثير من الأخطاء النسخية إضافة إلى عمليات التزوير، وكان للتوراة عدة نسخ، أو نصوص أهمها هو النص الماسوري[229] (العبري)، وهو النص المعتمد عند اليهود وأكثر المذاهب المسيحية، وأقدم مخطوطة له تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، وهو يحتوي على التوراه (أسفار موشيه فقط)؛ أما النسخة الكاملة فتمثلها المخطوطة الحلبية التي تعود إلى بدية القرن العاشر الميلادي؛ «وهناك النص السامري والذي يضم الأسفار الستة الأولى (أسفار موشيه الخمسة) وسفر يشوع فقط، ويحوي نقاط خلاف كثيرة مع التوراه الماسورية. وتعود أقدم نسخة من النص السامري إلى القرن الحادي عشر الميلادي.. وقد تبين أن بعض نصوص البحر الميت (التي وجدت في الكهف الرابع) هي النصوص السامرية نفسها»[230]؛ وهناك النسخة السبعينية (النص اليوناني) وأقدم مخطوط لها يعود إلى القرن الرابع الميلادي؛ كما أن هناك نص كهوف قمران على البحر الميت، والتي يعتقد العالم زايلتن أنها من نتاج مذهب القرائين وكتبت أثناء العصر العباسي، ودست في كهوف قمران ليثبتوا أن مذهبهم يعود إلى القرن الأول للميلاد.

اللّغة

يقول برهان دلو إن اللغة بذاتها لا تحمل أية إيديولوجية – طبقية، إنما تعكس، مباشرة، نشاط الناس اليومي في مجالاته الأفقية المنتشرة التي يلتقون على صعدها أفراداً، متفاهمين بلغة واحدة[231]، «ويأتي تطور اللغة من تطور مرحلتها التاريخية ورقي الشعب الناطق بها»[232]. وكانت «أول مدنية عمرانية ظهرت في العراق هي مدنية الفراتيين الأوائل التي تركت تأثيراتها اللغوية على السومريين وعن طريقهم على «الساميين»[233]»[234]. والسامية «تسمية علمية تطلق على اللغات المشرقية ذات جذر لغوي واحد، وعلى رأسها اللغة العربية، ومنها – على سبيل المثال لا الحصر – الأكادية والآشورية والبابلية والآرامية والسريانية والكنعانية والفينيقية والحضرموتية والحبشية والأمهرية، ومنها أيضاً مجموعة اللغات العبرانية التي تضم العبرية والمؤابية والأدومية»[235]، **وإن كان الأقرب إلى المنطق اعتبارها لهجات كنعانية، أو خليط منها ومن الفينيقية والآرامية.**

ويعتبر بعض المؤرخين أن الآرامية والكنعانية والكلدانية ما هي إلّا لهجات في اللغة السريانية. ومن المعلوم أن اللغات «السامية» التي كانت تستخدم في كنعان كانت تشبه اللغة العربية التي تجاوزت برقيها هذه اللغات. «ومعلوم أن اللغة السريانية كانت الأكثر شيوعاً وفيها لهجتان مختلفتان: لهجة سكان شمال الفرات وهي تنتهي بالفتح مثل «نينوى» و«يهوه»؛ ولهجة سكان جنوبي الفرات وهي تنتهي بالضم مثل «تشبحتو الموريو ألوهو»... وقد عمت اللغة السريانية، عدا الشرق الأوسط وبلاد ما بين النهرين، أطراف آسيا وأرمينيا. ويقول غريغوريوس بن العبري كبير المؤرخين السريانيين المعروف بأبي فرج: «إن السريانية تقسم إلى ثلاث لغات، وأفصحها الآرامية لغة أهل الرَها وحاران والشام الخارجية، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وبقية الشام الداخلية، وأسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة سكان جبل العراق وأهواز العراق.. «والعرب أنفسهم كانوا يتكلمون لغتين: العربية، والأرامية السريانية ويكتبون بالخط الكرشوني»[236].

أما عن استعمال هذه اللغات، فيقول السمعاني: «**يوسيفوس – المؤرخ اليهودي كتب تاريخه «حرب اليهود مع الرومان» في 7 كتب باللغة السريانية** ثم ترجمها إلى اليونانية»، و«**التلمودان البابلي والأورشليمي كتبا بالكلدانية، وتتخلل عباراتهما جمل من لغة العامة الآرامية»**[237].

ويقول المؤرخ فيليب حتي: إن الفروق بين الفينيقية والسريانية هي «فروق لهجية، ذلك أن اللغتين في جوهرهما واحد، وتنتميان إلى الفرع الغربي من اللغات السامية الذي تنتمي إليه أيضاً اللغة العبرية»[238]. «**وقد اعتمد اليهود في كتابة التوراه على الخط الآرامي القديم** (الحرف المربع أو الحرف العبري) والذي استعمل معه التنقيط والعلامات لتمييز حروف العلة، ومع ذلك بقيت بعض الكلمات ملتبسة تأخذ أكثر من وجهة ومعنى»[239]. ولا عجب في ذلك كون الإمبراطورية الإخمينية الفارسية كانت تعتمد اللغة الآرامية كلغة رسمية في الدواوين والمراسلات.

ويقول عالم اللغات إسرائيل ولفنستون في كتابه «تاريخ اللغات السامية»: «**إن كل آثار اللغة الكنعانية.. تدل على عظم قربها ومشابهتها للغة العبرية حتى كأنهما من أديم واحد**. والذي لا شك فيه أن هناك فروقاً من جهة نطق كلمات كثيرة، ولكن ليس في إمكاننا أن نقف على حقيقتها لأن الكتابات السامية لا تشتمل إلا على الحروف دون الحركات. **وأما من جهة اشتقاق الكلمات فإن الكنعانية هي بعينها العبرية. وبعد اكتشاف نصوص أوغاريت وترجمتها ترسخ الاعتقاد بأن لغة أوغاريت الكنعانية واللغة العبرية ليستا إلا لهجتين من اللهجات الكنعانية المتعددة.. وكتاب التوراه نفسه لم يطلق على لغته اسم اللغة العبرية، فهو تارة يسميها باليهودية وأخرى باسمها الصحيح: الكنعانية»[240]. وليس من باب المبالغة أن نقول إنه لا توجد لغة عبرية، وإنما هي اللغة الكنعانية عينها يجري تداولها على أنها العبرية جرياً على عادة التسليم بادعاءات اليهود.**

كان اليهود البابليون أكثر من نشط من اليهود، وهم من أعاد كتابة العهد القديم، حيث «عاشت اليهودية دوراً جديداً، هو الثالث بعد الدورين الأخميني والهللنستي. وفي هذا الدور أعاد الحاخامات النظر في أسفار العهد القديم زيادة وحذفاً وتكييفاً، وجعلوا هذه الأسفار على نوعين: شرعي، ومحذوف (أبوكريفاوي). **وخلال هذه المرحلة البابلية المهمة اعتمد الحاخامات على التراث البابلي الغني جداً، فاستولوا على بعض منه كلياً، واقتبسوا من بعضه الآخر، وهكذا توافر لديهم أدب ولهجة لغوية خاصة هي التي ستعرف بالعبرية**، وكانت هذه العبرية بلا أحرف صوتية، فأدخلها الحاخامات فيما بعد على نص ما بات يعرف باسم العهد القديم، وأدى هذا إلى تعديل بالنص وتغيير تجاوز 25%، **وفي الحقيقة لم يأخذ نص العهد القديم شكله النهائي حتى القرن العاشر للميلاد**»[241].

ومن المهم الإشارة إلى اختفاء النسخة الأصلية لكتاب عزرا باللغة الآرامية، حيث جمعت نسخة مترجمة إلى الإغريقية، سميت بالنسخة السبعينية، أو (النص السبعيني أو السكندري)،

وهذا النص يعتقد أن بطليموس (بثولوميوس) هو الذي أمر بتنفيذه ليلائم توجهات الإغريق السياسية، ولا سيما أن يهود مصر أصبحوا قلة، وما يهم الإمبرطور الإغريقي هو يهود الإمبراطورية ككل، وهكذا اعتمد النص السبعيني رسمياً، وكان على النسخ الأصلية باللغة الآرامية أن تختفي! ومن النص الإغريقي جرت الترجمة إلى جميع اللغات، ومنها ما يسمى العبرية!

وفيما يخص تطور اللغة العبرية، فإن الجماعات اليهودية صارت، مع الزمن، تتكلم لغة البلاد التي استوطنتها، تداخلها بعض المصطلحات اللغوية القديمة، أما اللغات التي كانت تدون بها الكتابات الدينية فكانت إما الإغريقة وإما الرومانية ثم العربية وغيرها، حيث لم تكن هناك لغة يمكن إطلاق صفة عبرية عليها. **أما ما يدعى اليوم باللغة العبرية فهي لا تعدو كونها تركيبة صهيونية حديثة، مزجت فيها العربية بالآرامية واليديشية**[242]. وكما قال المؤرخ الفرنسي بيير روسي: «**أما اللغة العبرية فاختراع أملاه أليعازر بن يهوه الذي نشر بين عامي 1910 و1922 معجماً طلبته الحركة الصهيونية العالمية وخصصته لإيجاد نوع من «الإسبيرانتو» ليهود العالم الموعودين بالهجرة إلى فلسطين. إنه إذن أداة سياسية»، واختاروا الحرف المربع الآرامي السوري ليكون خط الكتابة المستخدم للعبرية ليوهموا بذلك العالم بأن المخطوطات السورية القديمة إنما هي لشعب يهودي**[243]. أما يهود إثيوبيا (الفالاشا) فيتحدثون اللغة الأمهرية ويتعبدون بالجعيزية (التي هي لغة الكنيسة القبطية) التي لا يعرف بقية اليهود عنها أي شيء، تماماً كما يجهل الفالاشا العبرية واليديشية. أما يهود الولايات المتحدة وبقية العالم الأنغلوساكسوني فيتكلمون الإنكليزية، أما من يعرف منهم بعض التعابير العبرية فمرد ذلك إلى استيعاب اليهود القادمين من شرق أوروبا الذين يتكلمون اليديشية. **وهذا يفسر أن الانتماء هو حضاري بالنسبة إلى المجتمعات التي يعيش فيها اليهود، وليس انتماءً عرقياً.**

تمت ترجمة العهد القديم إلى العربية على عهد المتوكل العباسي (847– 861)، كما ترجم تاريخ يوسيفوس في الأندلس.

مراحل الرواية التوراتية

تتحدث الرواية التوراتية عن عشر مراحل تأريخية حسب زعمها، وهي: 1– مرحلة الآباء الأوائل؛ 2– مرحلة مصر والخروج والتيه؛ 3– مرحلة اجتياح يشوع لكنعان؛ 4– مرحلة القضاة؛

5- مرحلة المملكة المتحدة؛ 6- مرحلة الانقسام حتى السبي؛ 7- مرحلة السبي، 8- مرحلة العودة في ظل الفرس؛ 9- المرحلة الهللينية؛ 10- المرحلة الرومانية؛ وتليها مرحلة الشتات.

أقسام التوراه

1- **الأسفار الخمسة**، وتشمل:

أ- التكوين الخلق والطوفان ونسل أخنوخ مروراً بأبرايم حتى يوسيف.

ب- الخروج (من يوسيف حتى موشيه).

ج- اللاويين (صلب الشريعة الموشوية).

د- العدد (رحلة موشيه من مصر حتى تخوم كنعان).

هـ- التثنية (خطبة موشيه قبل وفاته، إعادة تاريخ التيه في سيناء)

2- كتب الأنبياء والتاريخ:

أ- أسفار الأنبياء الأولين (يشوع؛ القضاة؛ صموئيل 1؛ صموئيل2؛ ملوك 1؛ ملوك2).

ب- أسفار الأنبياء المتأخرين (الكبار): (أشعيا؛ إرميا؛ حزقيال).

ج- أسفار الأنبياء المتأخرين (الصغار) (هوشع؛ هوئيل؛ عاموس؛ عابوديا؛ يونان؛ ميخا؛ ناحوم؛ حبقوق؛ صفنيا؛ حجي؛ زكريا؛ ملاخي) وقد تمت كتابتها في القرن الثاني قبل الميلاد.

3- **كتوفيم (الكتب):** أسفار: المزامير؛ الأمثال؛ أيوب (مترجم عن الآرامية ولم يتم تهويده)؛ نشيد الإنشاد؛ راعوث؛ المراثي؛ الجامعة؛ أستير؛ عزرا (يدخل هنا سفر دانيال المترجم عن الآرامية)؛ نحميا؛ أخبار الأيام الأول؛ أخبار الأيام الثاني. (في القرن الأول بعد ميلاد المسيح).

أما **الأبوكريفا**، فهي الأسفار غير القانونية التي **لا توجد في إلا في التوراه اللاتينية** فقط، وتضم 14 كتاباً، منها: أسفار المكابيين 1، 2، 3، 4؛ سفر يهوديت؛ طوبيت؛ الحكمة لشلومو؛ كهنوت؛ تسبيحة الفتية الثلاثة؛ وسفر سوزان (ظهرت في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، ولا

يعترف بها إلا القليل من اليهود، وبعض الكنائس المسيحية: الأرثوذوكسية اليونانية والروسية وشرق أوروبا) أدرجت في الترجمة السبعينية باللغة اليونانية.

النحل القصصي في روايات التوراه

يقول كارل ماركس: **«إن الكتابات اليهودية المسماة بالمقدسة هي الكتابات الدينية العربية القديمة نفسها وكذلك عاداتهم القبلية»**[244].

قبل البحث في روايات التوراه، نريد التأشير هنا إلى موضوعات مهمة حاول محررو التوراه إظهارها وكأنها أمور أصلية، بينما هي مسروقة أو منحولة أو متصرف بها من تراث الأمم المشرقية وحضاراتها، تمت مصادرتها واستعمالها ضمن مخطط السيطرة على عقول وإيمان الشعوب المستهدفة من هذا المخطط، ضمن السيطرة الإمبراطورية الأخمينية. وعليه، بعد أن رأينا التشابه بين الإله أهورامازده الفارسي وبين يهوه، نجد نظرية الماشَّيح اليهودية منقولة عن عقيدة المنتظر الزرادشتية، فسمي الماشيح المنقذ. إضافة إلى منظومة الكهنة المحصورة في سلالة اللاويين المنقولة عن سلالة المجوس الفارسية حرفياً.

لقد قام محررو العهد القديم كما ذكرنا باقتباس أو نحل القصص التراثية والأسطورية، وحتى التواريخ الحقيقية لشعوب المنطقة المختلفة. ومع ذلك فقد خلطوا الحقبات والأحداث بأسوأ ما يمكن، لجهلهم بتواريخ الأحداث، أو الأسماء الحقيقية، أو الجغرافيا التي جرى عليها الحدث. وعليه فقد غدا هذا الكتاب أشبه بخلطة من الكراهية والعنصرية والأحداث المركبة، والجغرافيا المتناقضة والتي لا ترسو على بر. أما ذهنية القتل والاغتصاب والإبادة، فتظل العنصر الغالب، والمميز الذي لا يستطيع أحد أن يجاري اليهود فيها، ولعل هذا هو الأمر الوحيد الذي يتفرد اليهود به، والذي يمكن اعتباره أدباً ونهجاً يهودياً خالصاً!

أما عن النحل، فباستطاعتنا القول إن أسطورة «آدم» التوراتي منحولة من أسطورة «آدابا» البابلي التي تقول: «دفع الإله «أيا» خالق الإنسان بـ «آدابا» إلى رفض طعام وشراب الحياة تقدمة الإله «أنّو» حتى لا يصبح وهو مخلوق محكوم عليه بالموت، خالداً خلود الآلهة. أدى عصيان آدابا لعدم تناوله طعام الحياة، إلى إعادته إلى الأرض حيث الشقاء والتعب ليعيش كسائر المخلوقات». أما قصة آدم في التوراه فتقول: «دفع الله بالحية لإغراء حواء حتى بدورها تغري آدم

بأكل ثمرة الشجرة المحرمة، ثم طرد آدم من الجنة لعصيانه أوامر الرب، فأصبح عرياناً يأكل خبزه بعرق جبينه وتلد حواء بالعذاب والآلام».

أما عن ملحمة الخلق، فتقول الملحمة الآشورية: «آشور قتل التنين تيامات في بداية الكون وصنع منه الماء واليابسة». في ملحمة التكوين «إيتوما إيليش» والتي اقتبست منها قصص الخلق عند مختلف شعوب الشرق، وهي التي نحلها محررو التوراه كذلك. ومثلها جاءت أسطورة الخلق عند الكاهن الفينيقي الصوري سنكن يتن (أو سنخون ياتون) الذي يقول عنه المؤرخ الروماني كونستانتين دانييل في كتابه الحضارة الفينيقية: إن «اسمه مصري ويعني «آتون أعطاني الحياة» قد أهدى ملحمته إلى ملك جبيل أبيبعل، الذي يمكن أن يكون قد عاش حوالى العام 940 ق. م يعني متأخراً بكثير عن زمن سنخون ياتون الذي يذكره فيلون، أو يوسيبيوس، ما يوحي بأنه شخصية ملتبسة، مع أن كبار دارسي السامية مثل: R. de Vaux وG. Contenau أقروا بوجوده»[245]. **وملحمة الخلق والطوفان عند سنخون ياتون، كما هي في التوراه اليهودية، تجد لها أصلاً في روايات المصريين وخصوصاً في كتاب الموتى، وفي بلاد ما بين النهرين، وتحديداً في ملحمة كلكامش السومرية، وملحمتي أتراحسيس وزيو سدرا البابليتين**، حيث إن جميع الروايات في هذه الملاحم وغيرها تورد حكاية خلق النظام من الفوضى الأولية على يد إله، ثم في قصة الطوفان في إعادة امتداد الجنس البشري بعد غضب الآلهة وإحداثها الكارثة عليهم، فيما يكون دائماً هناك القديس الذي ينذره الإله ليتجنب الهلاك، وليكون البذرة التي من خلالها يعيد إنتاج السلالة البشرية الجديد، وهو في كلكامش أوتنابشتيم، وفي التوراه أخنوخ.

أما قصة حواء، فقد اكتشف عالمان هولنديان في أوغاريت نسخة قديمة جداً لقصة آدم وحواء، قالا إنها تعود إلى 800 عام قبل سفر التكوين في التوراه. القصة منقوشة باللغة الأوغاريتية على لوحين من الطين وتعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

أما أسطورة الطوفان، فنجد لها أساساً آخر عند الفرس القدماء، وكانت نتيجة لذوبان الثلوج، حيث تتحدث الأسطورة الفارسية أن أهورامازدا نصح الإنسان «يم» بالصعود إلى قلعة.. ويوجد عند البابليين الإله برومنيه، وعند الهنود القدماء يوجد مرادف أيضاً. أما ملحمة كلكامش فإنها تعود إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وهي تظهر التطور العظيم في البناء وأطوار العبادة التي كانت سائدة. تتحدث كلكامش عن هذا الملك وقصته مع صديقه أنكيدو الذي مات بالمرض، فراح يبحث عن سر الخلود إلى أن وصل إلى الفيلسوف أوتانابشتيم الذي قص عليه قصة الطوفان العظيم، الذي نحل قصته محررو التوراه على أنه أخنوخ.

أما قصة زيارة الرب مع اثنين من ملائكته لأبرام الذي كان جالساً في باب خيمته، حيث استضافه، فبشره الرب بأنه سيعود إليهم عندما تنجب ساراي ابنها، وضحكت الزوجة في مطبخها للدعابة كونها عاقر وهرمة، ولكن الرب أكد لها الأمر بعد أن أنبها على هزئها بوعده، **هذه القصة مسروقة حرفياً عن ملحمة دانيل الأوغاريتية.**

وما حكاية يعقوب وعيسو إلا حكاية أهرمان وأهورامزده إلهي الشر والخير عند الفرس واللذين حمل بهما الإله زوران الذي عاش 9999 سنة ولم يرزق بولد، وعندما حمل بهما، أخبر أهورامازدا بأن الخارج الأول سوف يستخلفه، فأخبر هذا توأمه، فما كان من أهرمن إلا أن شق بطن حامله وخرج أولاً، ونال بركة أبيه![246] **أما قصة «أيوب» التوراتي فنجد أصلها في أسطورة الملك «كيريت»، الذي فقد زوجه وأولاده، وظل ينتحب حتى استجاب له الرب «إيل»،** وأرشده إلى الطريقة التي يكسب بها رضاه ليعود وينجب ذرية تحمل اسمه، فيطلب منه إيل أن يقدم أضحية طاهرة، إلى آخره من التفاصيل.

أما أساطير التوراه عن الولد الذي لم يفلح الشخص في إنجابه في شبابه، ثم يسعفه الرب في شيخوخته بناءً لإلحاحه، ورغم استغرابه، فإننا نجدها تتكرر على مدى الزمن، **ونقرأ مثلها في أسطورة الملك «أقحاط» في قصائد أوغاريت،** التي تبدأ كذلك بقصة ملك كنعاني اسمه «دانيل»، والذي يقدم قرابين للرب «إيل» لكي يهب له ولداً فيرق له الرب ويعده بأن يكون له ابن يسميه أقحاط، والذي يتشبه بأبيه بالعطف على الأرامل والأيتام، ما يشبه بشارة «إبراهام» على سبيل المثال.

أما **قصة موشيه التي تم نحلها عن قصة صارغون الأكادي (ق. م)** «أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سراً ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالقار ورمتني في النهر الذي حملني إلى أكي الساقي الذي انتشلني. أكي البستاني جعلني ولده ورباني. أكي الساقي جعلني بستانيه. عندما كنت بستانياً أحبتني عشتار. سدت وحكمت ذوي الرؤوس السود...»[247]. **أما قصة داود** التي يذكر الدكتور الصمادي أنها **منحولة عن قصة تحوتمس الثالث،** حيث أن داود ينسب إلى جدته بالتبني نعمى والتي كان لها ولدان ماتا بعد زواجهما من امرأتين موآبيتين، إحداهما كانت راعوث التي تزوجها بوعز أحد أقرباء زوجها المتوفى ليحيي نسله، فولدت منه عوبيد الذي أنجب يسى والد داود الذي مسحه النبي صموئيل ملكاً وهو بعد فتى.

بقي أن نشير إلى أن الإله «يهوه» ظهر في البانثيون الكنعاني كأحد أعمدة الآلهة لفترة طويلة، قبل أن يستفرد به اليهود. ثم **إن اليهودية ليست ديانة توحيدية**، «ففي العديد من أسفار التوراه، إن لم يكن في معظمها، هناك إقرار واضح بصحة وجود، وبقوة «آلهة آخرين»، ولكن يهوه، وهو أقوى هذه الآلهة[248]، يشعر بغيرة شديدة من منافسيه، ويمنع شعبه من عبادتهم[249]. أما وجود الآلهة كافة، غير يهوه، فلا ينكره إلا بعض الأنبياء اللاحقين[250]، في فترة متأخرة جداً في التوراه»[251].

وعلى هذا المنوال نجد بالمقابل لكل شخصية أسطورية مرادفاً توراتيّاً: **فـ «هابيل» الراعي يقابل «إينميش» عند السومريين، أما «قايين» الفلاح فيقابل «إينتن» عند السومريين.**

أما في العادات والطقوس، **فيكفي ذكر أن الختان هو في الأساس قربان الخطيئة عند المصريين القدماء، فيما تحريم الخنزير أخذ من المصريين القدماء الذين حرموه لأنه تستر به «ست» لقتل «أوزيريس». أما التابوت المقدس فيعود إلى مساكن آلهة النيل المتنقلة، والشمعدان السبعي هو المنارة المقدسة لعبادة إله الشمس «أتون رع» في مصر القديمة**... إلخ.

الآلهة السابقة ليهوه اليهودي

لقد كانت حضارات الشرق القديم تعطي الكثير من وقتها لثقافة الآلهة، وكما رأينا فإن الموضوع الغالب على الأساطير التي وردت يكون العلاقة مع الآلهة، وحسب كل حقبة فإن التطور يطاول الأسلوب الأدبي حسب تسلسله من التجسيد إلى التجريد إلى الوصف.

وللمقارنة مع ما يمكن أن يأخذه المحررون التوراتيون من أشكال العبادة وصفات الآلهة، لا بد من التأشير إلى أن هناك مصدرين إلهيين للمشرق:

– «الديانة الحنيفة التي تدين للإله إيل (رب الأرباب الواحد الساكن في الأعالي) وتدين به الشعوب المستقرة التي تعتمد على الزراعة الارتوائية (الآبار والأنهر)، وأول من اعتقد به هم الأكاديون في الألفية الثالثة، وكان إله شبه جزيرة العرب.

– المعتقد البعلي (البعثي)، ومنه اتخذ المصدر اليهوي (التوراتي الثاني)، وانتشر عند الناس الذين يمارسون الزراعة البعلية. وهو إله البانثيون السوري.

– أما الديانة اليهودية التي تدين للإله الرعوي (يهوه) وهو يسكن على الأرض أو متنقلاً بين الغيوم والأرض، فلم تكن سوى الحالة الانتقالية بين الرعوي والبعلي. «وكما لم يتوحد شعبا التراثين (الإسرائيلي الحنيفي، واليهودي اليهوي) في وحدة إثنية واحدة كما أراد القادة لهما، كذلك لم يستطع محررو التوراه اليهود أن يوحدوا بشكل مقنع تراث الشعبين وتاريخهما»[252].

كان الكنعانيون على منوال غيرهم من الشعوب القديمة، وخصوصاً أقرباءهم الفينيقيين قد طوروا مع الزمن توليفة من الديانات المصرية وديانات ما بين النهرين. وكانت طقوس عباداتهم لا تختلف كثيراً في البدء عن طقوس هذه الشعوب التي تأثروا بها.

ومما لا شك فيه أن ديانات التوحيد الأولى تظهر مدى التشابك بين ماورائيات مجموعة الشعوب التي كانت تسكن المشرق القديم، ومن هنا نرى التأثير الواضح للديانة الفارسية الزرادشتية، وكذلك للديانة المصرية القديمة في الديانة اليهودية، مثل معتقد الإله الواحد خالق ذاته وكل شيء.

وكانت العادة أن تتخذ كل مدينة مثلثاً من الآلهة: إله مُسن يملك القوة والحكمة يسمى في العادة «بعل» (السيد)، وإلهة أُنثى تمثل الحكمة والحياة، وإله شاب يمثل الخصوبة. ولم يختلف الأمر كثيراً في ديانات بلاد الرافدين، حيث أخذ الكنعانيون عنهم، الإله «أدد» أو «هدد» (كما في النصوص السومرية) أو «حداد» (كما في نصوص رأس شمرا، الذي استمده الآراميون من السومريين) وهو إله الرعد والعواصف، الذي تروي نصوص رأس شمرا أنه حامي الآلهة من شراسة المياه التي ناصبتها العداء وظلت تهدد باجتياح الكون لتمحو ما خلفته الآلهة وتعيد كل شيء إلى ما كانت عليه أيام الفوضى الأولى التي سبقت خلق الكون، فهب «حداد» لنصرة الآلهة والبشر كما فعل «مردوخ» مع «تيامات».. فهزم المياه ووزعها توزيعاً حكيماً، وجعلها في خدمة البشر. و«بعل حداد» يعني السيد أو الرب كما «أدونيس» وهو أدنى مرتبة من «إيا» الذي هو كبير الآلهة.

التلمود

من الكلمة العبرية تلمود وتعني تلمذة، تعليم. أما «تلمود توراه»، فتعني «دراسة الشريعة». والتلمود هو أحد أهم الكتب الدينية وأقدسها عند اليهود، وهو النتاج الأساسي للشريعة الشفوية، أي تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراه). «ويضم سجلاً لنقاشات الحاخامات حول الشريعة اليهودية، والأخلاق والعادات والأساطير والقصص، التي يعدها التراث اليهودي مؤصلة بالتواتر الشفوي. وهو مصدر أساسي للتشريع والأعراف، وللتواريخ الواقعية والمواعظ الأخلاقية.. **يتألف**

التلمود من مكونين رئيسيين: «المشناه»، وهي أول مجموعة مكتوبة من الشريعة الشفوية للدين اليهودي. و«الجمارا»، وهي نقاش حول المشناه» [253]. يضم التلمود وجهات نظر متغايرة تماماً، عبارة عن موسوعة من الدين والشريعة والغيبيات والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية، والزراعة والمهن والتجارة والربا والضرائب والقوانين والرق والفلك والقصص الشعبي، «**بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة، أي إنه كتاب جامع مانع بشكل يكاد لا يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجود النشاط في حياته العامة أو الخاصة**»[254].

بعد فشل حركة بار كوخبا سنة 136م، تم إحياء السنهدرين (المحكمة التشريعية العليا)، فأقر رئيسها يهوداه هنّاسي (الرئيس) المجموعة التشريعية التامة للمشناه، وهي التي يضمها التلمود اليوم... وخلال القرون الثلاثة التالية قام «الأمورائيم» بإضافة الجمارا (الفلسطينية والبابلية)، حتى اكتمل جمع التلمود بصورة عامة في القرن السادس الميلادي[255].

«انتشر التلمود ودراسته من بلاد بابل إلى مصر وشمال إفريقيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا، فصار اليهود يعدون هذه البلاد ملاذاً ومنطلقاً لفكرهم وعقيدتهم الروحية، وفي جميع هذه الأقطار تركز الاهتمام الفكري اليهودي حصراً في التلمود دون سواه»[256]، وقد احتاج التلمود البابلي إلى عدة قرون ابتداءً من أواخر القرن الثاني للميلاد، وهو يحتوي على ثلاثين مجلداً كبيراً (مليونين ونصف المليون كلمة).

ويعتبر التلمود عند الكثيرين أهم من التوراه ذاتها، وهناك بعض المذاهب وبعض الحاخامين الذين يقدمون التلمود على العهد القديم.

* * * *

تاريخ التوراه

الآباء الأوائل

يقول ماك كارتر: «علينا أن ننتبه دوماً، في دراستنا لروايات الآباء، إلى أن هذه الروايات هي إيديولوجيا وليست تاريخاً... لقد نشأت هذه الروايات مع بدايات تشكل الجماعة التي ندعوها يسرئيل، وساعدت على خلق هذه الجماعة عن طريق تزويدها بالإطار الاجتماعي اللازم لها. فيسرئيل لم تكن لتوجد في معزل عن القصة، تلك القصة التي وضعت القاعدة لفهم الذات والتنظيم الاجتماعي»[257].

منذ القدم كانت عبادة الأسلاف وتقديسهم ظاهرة عامة عند سائر الشعوب، فتجد العديد من القبائل الإفريقية ومن سكان أميركا الأصليين (الهنود الحمر) لا تزال حتى أيامنا الحاضرة تقدس، بل وتعبد الأجداد، وتراهم يحرمون الدوس فوق مقابرهم أو آثارهم، بل ويحتفظون ببعض مقتنياتهم يتمسحون بها. لماذا العجب!؟ **فالعالم كله محكوم اليوم بالأموات، بل وبعبادة الأموات، عبر أفكارهم، أو سير حياتهم، وما الظواهر الدينية أو حتى الفكرية عموماً سوى تجل لهذه الظاهرة القديمة.** أما عند اليهود، فقد كانت لهذه الظاهرة أبعاد أخرى، حيث إن «اليهود قدسوا الماضي على اعتبار أنه يمثل المسرح الذي تمثل عليه تاريخ الآباء الأوائل، أي إن الماضي يعني لهم تحديداً: الآباء الأوائل، وكأن اليهود كلما ابتعد الزمان ونأى ازدادوا تقديساً وتنزيهاً للماضي الذي مهما كان قاسياً بالنسبة إليهم، **فإنهم ينظرون إليه وعيونهم تملؤها دموع الحنين والندم، الندم الذي يشعرون به دائماً لأنهم حسب تصورهم قد خانوه من أجل الحاضر، ولذا فعليهم، لكي يتطهروا من آثامهم أن يعودوا إلى المكان (الفردوس المفقود) نادمين طالبين الصفح والغفران**... وهكذا فإن الحاضر عند اليهود لا تتعدى وظيفته دور مطية تعبر بهم نحو الماضي، أي تعيدهم إلى الماضي، ولكن في المستقبل... ولذا فقد أوكل إلى الرب اليهودي (يهوه) مهمة حراسة، وحماية الماضي اليهودي من

الضياع والتشتت... وعليه فإن إعادة تكوين (دولة يسرئيل) على الجغرافيا التي جاءت بها التوراه على أنها هي مملكة داود هو إحياء لداود نفسه»[258].

ومن الأجداد تبدأ الرواية التوراتية، تؤسس للمستقبل، فتنحت صفات الأجداد، وعلاقتهم بالرب، وبما حولهم، وتصوغ أهدافهم وحركاتهم لتحقيق هذه الأهداف، وكذلك هفواتهم التي يرتكبونها في سبيل هذه الأهداف تصبح محل تبجيل، **كما أنّ الأمكنة التي تطأها أقدام الآباء تصير ملكاً مستقبلياً لا جدال فيه.** وعليه، فإن الراوي التوراتي يبغي من الحبكة الروائية وضع القوانين العامة لما سيصبح عليه السلوك المستقبلي، بل والأبدي للجماعة التي سوف تدّعي التحدر من شخصيات هذه الرواية المقدسة. ومن هنا فإن الراوي يؤكد مراراً أن الجماعة أتت من الخارج، من وراء النهر، ما يفسر بأن الجماعة متميزة عرقياً، «رغم أن القسم الأكبر من هذه الجماعات قد جاء من أصل محلي»[259]. فقد غادر تارح أور وأقام في حران أقصى الشمال السوري غربي الفرات الأعلى ومعه ابنه أبرام وزوجة ابنه ساراي وحفيده لوط ابن ابنه هاران المتوفى[260]. «وبعد موت تارح (عن 205 سنوات) غادر أبرام ولوط حران ومعهما مقتنيات كثيرة وعبيد (لا ندري كيف حصلا عليها)، يكمل درب أبيه نحو كنعان بأمر الرب الذي خاطبه: إذهب أنت من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك»[261].

أما عن الأسماء فإن «اسم أبرامو يرد في وثائق إيبلا 2400 ق. م. مثلها آدامو وأشمائيل وإشرائيل وميكائيل التي استمرت بالورود ضمن تسميات الآراميين حتى العام 1200 ق. م»[262].

إذن، وصل أبرام إلى شكيم في كنعان، وكان ابن خمس وسبعين سنة، ومن هناك توجه جنوباً فخيم بين بيت إيل وعاي، فحصل جوع في الأرض فتوجه نحو أرض الكنانة، ولخوفه أن يقتله المصريون بسبب جمال زوجته (65 سنة) طلب من ساراي أن تقول إنها أخته، فحسنت في عيني الفرعون الذي أعطاه غنماً وبقراً وحميراً وإماءً وجمالاً، ما أغضب الرب فعاقب الفرعون بضربات عظيمة **(بدل أن يعاقب أبرام!)، فكان الفرعون أكثر شهامة من أبرام فعاتبه: «ما هذا الذي فعلت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك... هذه امرأتك، خذها واذهب»[263]. هذا الأمر سيكرره أبرام التوراتي مع ملك جرار حرفياً، حيث يدعي أن ساراي هي أخته، فيغضب الرب على أبيملك ويهدده بالموت إن لم يرد زوجة رجل الابتزاز المحضي عند الرب، فيردها إلى أبرام، ويزيد عليها الغنم والبقر والعبيد! ويخير أبرام في الإقامة حيث يشاء من أراضي جرار**[264].

يعود أبرام إلى كنعان، ولجهل محرري التوراه بجغرافيا ذلك الزمان، فقد جعلوا أبرام يصعد من مصر جنوباً نحو كنعان!، حيث يذكر سفر التكوين: «فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب.. وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل»[265]، **وعليه كان ليصل إلى إثيوبيا، ورغم ذلك، يعاند الجهات، ويصل شمالاً إلى حيث أقام مذبحه بين بيت إيل وعاي ومعه ابن أخيه لوط، حيث يفترقان بسبب شجار رعاة حيواناتهما**، فيرحل لوط نحو شرقي الأردن، ويبقى أبرام في كنعان، فيطلب منه الرب أن يدير وجهه في كل الاتجاهات (الهضاب المركزية) واعداً أنه سيعطي كل هذه الأرض له ولنسله إلى الأبد، فيسر أبرام لذلك، ثم ينطلق جنوباً نحو الخليل، ويتوقف عند بلوطات ممرا الشهيرة حيث يبني مذبحاً آخر للرب الذي لم يصبح يهوه بعد[266].

هنا، يبدأ الكذب التاريخي مبكراً، حيث يذكر سفر التكوين أن ملكاً (وهمياً) اسمه كدر لعومر ملك عيلام (مملكة قوية جنوب إيران) شن حرباً على شرقي الأردن يرافقه ملك شنعار (سومر) المدعو أميرافل وثلاثة ملوك آخرين، فينتصر على ملوك شرقي الأردن ويأخذ الغنائم والأسرى ومن ضمنهم لوط. فيجهز أبرام حملة من 300 رجل (أتباعه وعبيده) ويلحق بالمعتدين في دان شمال فلسطين ويلحق بهم مجتمعين هزيمة ماحقة ويستعيد الأسرى والمنهوبات[267]. وطبعاً لا يوجد في التاريخ أسماء لهؤلاء الملوك، ولا يرد أي ذكر لهذه الموقعة، فضلاً عن هراء أن ثلاثمئة عبد يهزمون خمسة جيوش جرارة!

بقي أن نذكر أنه، وتأسيساً للمعجزة، يذكر الراوي أنه لم يكن لأبرام نسل، فتبنى خادم بيته أليعازر الدمشقي، إلا أن الرب يعقد صفقة مع أبرام بأن يهبه ذرية مقابل أن يعبده هو وذريته من بعده، والرب يؤمن لهم الحماية والرعاية، إضافة إلى أرض كنعان. وبعد عشر سنين لما يئس من وعد ربه، تقدم له زوجته ساراي (أو يسكاه) خادمتها المصرية هاجار ليدخل بها وتنجب له ولياً للعهد (وكان عمره 86 سنة)، فتحمل هاجار بيشمعيل. وعلاوة في التكريم، ولما صار عمر أبرام تسعين سنة أبرم الرب عهداً جديداً معه، حيث يكثر ذريته عبر يسكاه التي سيصبح اسمها ساراي، مقابل فرض هو الختان، ويبدل اسمه إلى أبراهام. ولأن الضرة مرة، تحبل ساراي وتنجب يصحاق (وعمرها 76 سنة)، فتتآمر لإبعاد يشمعيل، فيخرجه أبراهام مع أمه هاجر ويتركهما لمصيرهما في برية بئر السبع[268].

ولكي لا يتأخر التناقض في الروايات، فقد ظهر سريعاً في رواية أخرى للموضوع نفسه في الأصحاح الثامن عشر من السفر نفسه (التكوين الذي يلي مباشرة)، وفحواه أن أبراهام كان جالساً في باب خيمته ظهراً فرأى ثلاثة رجال قادمين إليه فهب لاستقبالهم وكان الرب مع اثنين من ملائكته، وجهزت لهم ساراي الطعام، وفيما الأربعة ينتظرون الغداء في الخارج بشره الرب بأنه سيعود إليهم عندما تنجب ساراي ابنها، وسمعت ساراي فضحكت للدعابة كونها عاقر وهرمة، ولكن الرب أكد لها الأمر بعد أن أنبها على هزئها بوعده **(وقصة زيارة يهوه لأبراهام ووعده له بإعطائه ذرية، هي مسروقة حرفياً عن ملحمة دانيل الأوغاريتية)**[269].

ولم ينس الرب أن يخبر أبراهام بأنه سوف يدك سدوم وعمورة **(المدينتين الخياليتين اللتين لم يعثر لهما المنقبون على أثر)** بالنار والكبريت لفساد أهلهما، وطبعاً سوف لن ينجي من أهلهما سوى لوط وأسرته شرط ألا ينظر أحد خلفه، وتحولت زوجة لوط التي خالفت الأمر إلى عمود ملح! **ولكن ابنتي لوط الخائفتين على ضياع ذرية والديهما أسكرتاه وزنتا به على التوالي وولدتا ابنين هما موآب وعمون اللذان سوف يؤسسان مملكتين ستكونان من ألد أعداء «بني يسرئيل»، فتوجب على راوي التوراه أن يجعلهما ابني زنا.**

لم ينس الرب أن يمتحن أبراهام، فأمره أن يقدم ابنه يصحاق أضحية مشوياً على رأس الجبل، ثم يعفو عنه بعد أن رأى امتثال أبراهام للأمر وعوضه بكبش.

بعد عودة أبراهام إلى حبرون، تموت ساراي، ويعطيه أحد الحثيين هناك مغارة المكفلاه ليدفن زوجته فيها، إلا أن أبراهام رفض أن يكون العطاء مجاناً، فدفع ثمناً رمزياً ثمن المغارة التي صارت مذاك مدفناً للأسرة المحظية لدى الرب[270]، **لكي يؤكد أصحاب المصلحة بعدها الحق التاريخي، وأن الموقع اشتري بالنقود ولم يكن أعطية!**

كان عمر يصحاق 37 سنة عندما رأى أبراهام أن يزوجه، فاستدعى ولده بالتبني أليعازر الدمشقي الذي تحول إلى القائم على أمور المنزل واستحلفه ألا يزوج ابنه من بنات كنعان، بل يذهب إلى آرام النهرين حيث أخوه ناحور، ويخطب ليصحاق فتاة من عشيرته، ففعل الرجل وسافر بالهدايا ليخطب ربقاه زوجة ليصحاق.

نلاحظ طبعاً، أن كل هذه العناصر في الرواية لا يمكن تأريخها، ولكنها تؤسس لعنصرية التوراه، عبر القدسية، **وتبرر الطريقة الخداعية لحصول أتباع أبراهام على ما يبتغون في المستقبل، وما على الرب إلا أن يجد المخرج المناسب من تداعيات هذا السلوك.**

بعد موت ساراي يتزوج أبراهام (عمره 140 سنة) من قطوراه، فتنجب له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشبان وشوحا، **وهذ أسماء لقبائل فعلية «كانت تتحرك في المساحات الواقعة بين البادية السورية وشمال الجزيرة العربية خلال الألف الأول قبل الميلاد** (وليس لها أي علاقة بأبراهام، فقد كانت سابقة على عهد أبراهام المزعوم بمئات السنين)، **ومنها: مديان حول خليج العقبة، وشبا أو سبأ وددان من قبائل العرب الواردين في السجلات الأشورية»**[271]. وبالطبع فإن محرر التوراه في القرن الخامس قبل الميلاد قد عايش هذه القبائل، التي شأنها شأن فرع يشمعيل لا تشكل جزءاً من العائلة المقدسة التي ستنحدر من صلب يصحاق فقط والتي ستحمل رسالة يهوه فيما بعد. ويقول فان سيتير: **«هي قصص مكتوبة وموضوعة لأول مرة خلال فترة السبي البابلي وما بعده. وهي في خطوطها العامة وما تتضمنه من تفاصيل وعادات وأسماء أعلام وعلاقات اجتماعية، إنما تعكس الأوضاع العامة السائدة في فترة التدوين، أي منتصف الألف الأول قبل الميلاد»**[272].

مات أبراهام عن مئة وخمس وسبعين سنة، بعد أن أعطى كل ما يملك ليصحاق دون غيره، ودفن في مغارة المكفلاه قرب ساراي. ولم يوفق يصحاق في الإنجاب إلا بعد عشرين سنة على زواجه من ربقاه، ولم ير أبراهام أحفاده من ابنه المدلل، حملت ربقاه بتوأمين كانا يتصارعان في بطنها، وعندما ولدت، خرج عيسَو الأحمر أولاً، وكان شقيقه يتبعه ممسكاً برجله محاولاً منعه من التقدم عليه، لأنه يريد البكورة لنفسه، فسمي يعقوب. وكان الرب قد جدد العهد مع يصحاق، ويأمره بالذهاب إلى جرار، لأن مجاعة ستضرب الأرض، فكرر هناك فعلة والده أبرام، بأن ادعى أن زوجته هي أخته، ليكسب بذلك أعطيات، ويكتشف ملك جرار (أبيمالك أيضاً) الكذبة، ولأن إيمانه أقوى من إيمان يصحاق، يحذر شعبه من نكاح ربقاه خوفاً من غضب الرب، لكنه سمح للضيف الماكر بالإقامة في بلاده، فاشتغل يصحاق بالزراعة ما أدى إلى غيرة الملك منه (هكذا) فطلب منه المغادرة، فأقام في وادي جرار [273].

يهيىء الرب العنصري يهوه لاستمرار القداسة في نسل يصحاق، ويبشر الأم بأنه ستخرج من بطنها أمتان، ويفترق شعبان، شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد الصغير[274]، وهكذا يصبح عيسَو جد الشعب الآدومي الذي أقام جنوب البحر الميت نحو خليج العقبة، فيما تستمر الشجرة المقدسة في نسل يعقوب الذي سوف ينجب اثني عشر سبطاً، **فاشترى بكورة أخيه عيسو الصياد الجائع بصحن من طبيخ العدس، ثم ساعدته أمه على أخذ البركة فألبسته جلد جدي وقدمته إلى أبيه الضرير على أنه عيسو الذي ولد مكسواً بالشعر الأحمر. انطلت الحيلة على**

يصحاق، فبارك ابنه الأصغر، ولم يشأ بعد انكشاف الأمر أن يعيد حسابه، بل زاد بأن الرب قد جعل كل إخوة يصحاق عبيداً له، ما أثار غضب عيسو، فطلب الشيخ من ابنه المدلل أن يفر إلى حران ويقيم عند خاله لابان، «حتى يرتد غضب أخيه عنه، وأن يتزوج هناك من إحدى بنات خاله»[275]. وأثناء فراره يظهر له الرب في الحلم ويجدد معه عهد أبراهام ويصحاق في إعطائه الأرض التي يقيم عليها له ولنسله من بعده.

يذكر التلمود أن عيسو أمر ابنه أليفاز وبعض رجاله ليقتلوا يعقوب أثناء فراره إلى حران، ولكن يعقوب اشترى سلامته بما يحمل من ذهب وفضة، ما أثار امتعاض عيسو. **ولكن هذه الرواية لم ترد في التوراه،** ما يعني أنها مضافة لأجل هدف بعينه!

وفي حران يشترط عليه خاله أن يخدمه سبع سنوات في الرعي لكي يعطيه ابنته راحيل، وبعد مرور السنوات السبع خدعه خاله حيث أدخل عليه ابنته الصغرى الضعيفة النظر ليئاه، ودخل بها دون أن يدري، وعندما احتج على فعلة خاله اشترط عليه الخدمة سبع سنوات أخرى ثمناً لراحيل فقبل[276]**، ولم يعرف السر لماذا يعده الرب بإعطائه أرض كنعان، ولا يكشف له خديعة خاله الطماع!**

وبعد أن كبر أولاد يعقوب الأحد عشر – من زوجتيه الشقيقتين – وكبرت ثروته، قرر العودة إلى كنعان. فخدع خاله في القسمة، بعد أن كان خدعه في التسمين وفي تقسيم الولادات طوال فترة الخدمة. **وعند الرحيل، سرقت راحيل أصنام أبيها وخبأتها تحت هودجها، لتضعها في بيت زوجها يعقوب (ما يظهر لنا نوعية الإيمان والآلهة الذين كانت أسرة يصحاق ويعقوب تتعبد لها).** وفي «مخاضة يبوق» يظهر الرب ليعقوب على هيئة رجل، فيصارعه حتى الفجر ويتغلب عليه، فاستعطفه الإله أن يطلقه، فاشترط عليه يعقوب أن يباركه في المقابل، فيفعل الرب، ويبدل اسمه من يعقوب إلى يسرئيل: «لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل يسرئيل، لأنك جاهدت مع الرب والناس وفزت»[277]. **(ويقصد محرر التوراه هنا إلى الربط بين أسطورة الآباء وبين دولة إسرائيل الكنعانية الحقيقية التي قامت بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ليؤمن التواصل التاريخي لروايته، مع الانتباه إلى أن إيل هو إله السماء عند الكنعانيين وهو رئيس مجمع آلهة أوغاريت).** وعند وصوله إلى كنعان، كان يعقوب يتوجس خيفة من أخيه عيسو الذي لم ينس بالتأكيد ما ارتكبه أخوه بحقه، ولكن يسرئيل المفضل عند رب يسرئيل استطاع استرضاء أخيه بالماعز والثيران والأغنام والحمير، وذلك كله مقابل ترك كنعان، «وأخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وكل نفس في بيته، وماشيته

وكل بهائمه وسائر مقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان، وانتقل إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه»[278]. «ورحل بكل مقتناه إلى أرض سعير فلم يرجع مطلقاً إلى أرض كنعان[279]، التي غدت ميراثاً أبدياً ليسرَئيل»[280]، وهكذا صارت الأرض بكلمة ملكاً ليعقوب الذي صار بكلمة اسمه يسرئيل! وفي ممرا في حبرون يموت يصحاق عن 180 سنة فيدفن في المكفلاه، ويبقى يعقوب هناك.

يحب يعقوب صغير أبنائه يوسيف، ويميزه من بقية أولاده ما يدفعهم إلى الغيرة منه، وما زاد الطين بلة أحلام يوسيف التي تحتقر إخوته، ومعلومة قصته عندما ذهب مع إخوته إلى الرعي، وتخلصوا منه بإلقائه في البئر، **وكذلك الروايتين المختلفتين اللتين توردهما التوراه لكيفية بيعه إلى التجار اليشمعيليين حسب إحدى الروايات، أو التجار المديانيين (الشعبان اللذان لم يكونا قد تشكلا بعد تاريخياً)**، ثم يباع يوسيف في مصر إلى فوطيفَر، ليصل بعد ذلك فيتسنم وزارة الفرعون، ويصبح «رجل مصر القوي». ويتزوج يوسيف من أسنات بنت فُوطي فِرَع كاهن أون، فأنجبت له مِنَشِّيه وإفرايِم. **ولم يستنكر أحد من بني يسرئيل هذا الزواج من خارج العائلة المقدسة!**

تمثل شخصية يوسيف التوراتية نقطة الاتصال بين عصر الآباء وعصر العبودية في مصر والخروج منها، «فقصة يوسف لا تنتمي إلى عصر الآباء ولا إلى ملحمة الخروج، وقد تم التقاطها بعناية من قبل المحرر التوراتي لملاءمتها التامة للربط بين تقليدين مستقلين كل الاستقلال»[281]. فمع دخول يوسيف إلى مصر كان التأسيس لموسم الهجرة اليسرئيلية إليها خصوصاً بعد المجاعات التي حصلت في كنعان وتوافد الكنعانيين إلى وادي النيل للحصول على الحنطة، ومن الجملة انتقل يعقوب وأبناؤه إلى مصر بعد توليفة قصصية جعلت يوسيف يكتشف إخوته أثناء توجههم لشراء الحنطة من مصر، فيقوم بعملية ملتوية ليستجلبهم إليه عبر دس مقياس الحنطة ضمن أكياسهم ليتهمهم ويوقف أخاهم الأصغر مشترطاً جلب أبيهم إلى مصر، **ما يؤسس لغربة «بني يسرئيل» في مصر من أجل استمرارية «حدّوثة» عزرا. وبالطبع لم تذكر كل أحافير ولا وثائق تل العمارنة وزيراً اسمه يوسيف، على ضخامة الاسم. كما غاب عن محرر التوراه أن يتذكر اسم الفرعون طالما أورد كل هذه الأسماء والأحداث التي لم تعثر على أي منها كل التنقيبات الأركيولوجية، مع العلم أن يوسيف التوراتي المزعوم قد عايش فرعونين، وذكرت اسم قائد الجند والكهنة! فإذا ما قرنّا وزارة يوسيف بعهد الفرعون أخناتون، فقد غاب عن المفسرين أن هذا الفرعون قُتِل شاباً بعد اضطرابات قادها الكهنة الذين أضر بهم إصلاحه الديني. إضافة إلى كون لقب الفرعون (فرعو أو برعو وتعني البيت العظيم)، «لم يستخدم في مصر إلا بعد طرد**

الهكسوس من مصر، وكان أول من تلقب به هو تحوتمس الثالث (1490– 1436 ق. م)... أما بقية الألقاب... فإنها تشبه الألقاب والمناصب المعروفة لنا من سورية وفلسطين أكثر منها شبهاً بمتوازياتها في مصر. والأرض التي أسكن يوسيف فيها إخوته وأهلهم والتي دعاها أرض رعمسيس، قد اكتسبت اسمها في عصر الفرعون رمسيس (أو رعمسيس) الثاني (1290– 1224 ق. م)»[282]، وهو الفرعون المفترض لزمن خروج موشيه ويهوده من مصر، حسب مفسري التوراه! وهو الفرعون الذي خاض حرب قادش (1274 ق. م) مع الحثيين التي دامت ست عشرة سنة، وانتهت بأول معاهدة في التاريخ القديم. أما يوسيف التوراتي فقد مكث في مصر ثلاثاً وتسعين عاماً بالتمام والكمال، كان في ثمانين منها الآمر الناهي على أرض الكنانة!

مات يسرئيل (يعقوب في مصر) وكانت وصيته لابنه يهوداه (الذي تآمر على يوسيف) بأن ملوك يسرئيل يكونون من صلبه[283]. **(هكذا يكافئ الرب اليسرئيلي مجرميه، تأسيساً لتبرير السلوك الجمعي اللاحق لأتباع هذه الديانة)**، وأوصاه أن يحمله بعد موته لدفنه في مغارة مَكفِلاه[284]. فبعد أن حدد الراعي البدوي– البارع في صوغ البروتوكولات– لكلٍ زاويته التي يحملون بها نعش أبيهم، استثنى من هذا العبء بعضهم لأمور مستقبلية: «أما ليوي فلا يحمل نعشي أو يساعد في حمله، لأن نسله يكونون حملة تابوت عهد الرب في جيوش يسرئيل[285]. ويوسيف لا يشارك في الحمل، لأنه ملك، بل يأخذ مكانه ابناه، فيمشيان بالقرب من أخيه بنيامين»، **وهذه المعلومات لا ترد في التوراه، حيث انفرد بها التلمود.**

ولكن عيسو الذي قيل عنه قبلاً إنه لم يعد إلى أرض كنعان، يظهر فجأة قبل دفن أخيه، عندما بلغ موكب الجنازة بيدر أطاد عبر نهر الأردن، حيث توقف الموكب، لإقامة مناحة وندب عظيمين. **مناحة انضم إليها ملوك كنعان «تعبيراً عن محبتهم للأب الراحل»[286]ربما بسبب مجزرته التي ارتكبها بحق أبنائهم وهم مختونون! أما خبر وصول عيسو فيذكره التلمود ولا يوجد له ذكر في التوراه،** حضر عيسو ليمنع دفن أخيه في المكفلاه لأنها له ولأبيه فقط، فيغضب يوسيف لهذا الأمر ويقول لعمه: «ألم يشتر يعقوب أبي منك. عقب موت يصحاق، كل أملاكك في أرض كنعان حقاً قبل خمسة وعشرين عاماً، لقاء مبلغ من المال، لكي تكون ميراثاً لأبنائه إلى الأبد؟»[287]ثم أراه الصكوك المكتوبة بذلك، وعليها توقيعه! **وبالطبع فهذا الأمر مرده لإظهار وجود صكوك بيد يوسيف تثبت الملكية!**

بعد طول عمر، مات يوسيف في مصر، فحنط جسده (على غير عادة اليهود) ودفن بقرب ضفة النيل (على غير عادة المصريين) وناح عليه المصريون الأوفياء سبعين يوماً، أما إخوته فاكتفوا بالنوح عليه سبعة أيام فقط!

وعندما مات يوسيف كان قد مضى على دخول بني يسرئيل إلى مصر واحد وسبعون سنة. أما الفرعون الذي حكم بعد موت يوسيف، فيتذكر محررو التوراه والتلمود أن عمره تسع وأربعون عاماً، ولكنهم لا يذكرون اسمه. وها هو يضطهد اليسرئيليين، تحت طلب شعبه، لأن بني يسرئيل أضحوا أكثر عدداً من المصريين، وبات المصريون يخافون من انضمام بني يسرئيل إلى أعداء مصر في حال نشوب حرب. ويأمر الفرعون بترميم قلعتي رعمسيس وفيتوم ويشركون اليسرئيليين بواسطة الحيلة في البناء ثم يعمدون على استعبادهم باستثناء بني ليوي الذين رفضوا السخرة! مع أن اسم رعمسيس اتخذه عدة ملوك، بدءاً من 1291 ق. م، **ما يعني أن الكلام هنا عن قلعة مدمرة على اسم فرعون سيولد بعد أكثر من مئة سنة على أقل تقدير!**

هذا الأسلوب يؤسس لفكرة العداوة والكراهية اليهودية تجاه مصر، أرض الغربة والعبودية لبني يسرئيل (ولعل الوظيفة الذهنية/الأمنية، كحاجز بشري عند تخوم مصر القوية، خدمة للراعي الفارسي المؤسس لهذه الديانة، تحديداً في هذا الحيز الاستراتيجيي). وبناءً على هذا التأسيس سينتج الخروج الخلاصي بقيادة موشيه، كما سيظهر لاحقاً في سفر الخروج، خصوصاً وأن اليسرئيليين راحوا يزدادون عدداً بالرغم من أعمال السخرة التي فرضت عليهم! وعليه، كان اقتراح أيوب، مستشار الفرعون، (وهو أيوب الذي خصصت له التوراه سفراً على أساس أنه من الصديقين، وليس نبياً)، أن يصدر الفرعون أمراً مكتوباً بقتل كل مولود ذكر لبني يسرئيل، وهذا تأسيس لرواية موشيه، المنحولة عن قصة صارغون الأكادي. (ولكن لا تظهر الحكمة من تحميل هذا الاقتراح لأيوب، المفترض أنه يسرئيلياً).

موشيه

كان على رب بني يسرئيل أن يقوم بمعجزة تخرج «شعبه» من مصر، فاقتبس محرر سفر الخروج قصة ولادة الملك الأكادي صارغون ونشأته (سرجون الأول 2340- 2284 ق. م) بحذافيرها لإسقاطها على الشخصية المركزية في الرواية اليهودية للعداوة التاريخية مع مصر. لذلك جعل يوكيبيد زوجة عمرام (وأم أهرون ومريم) تلد المخلص موشيه، الذي سيظهر إلى الوجود رغم

حلم الفرعون الذي فسروه له أن ابن يسرئيل هذا سيدمر مصر ويخرج قومه من العبودية. فما على الملك إلا إهلاك نسل بني يسرئيل قبل ذلك. وعليه البدء بقتل المواليد الذكور بناء على نصيحة المستشارين، إلا أن موشيه نجا من المجزرة وعاش في بلاط الفرعون ذاته، والقصة معروفة، وهي منحولة عن قصة صارغون الأكادي كما ذكرنا.

ويبدو أن الفرعون كان يعرف أن موشيه يهودي، لأنه شد التاج عن رأسه وهو في حضنه، فكان رأي الساحر بِلعام بن بِعُور: «إن روح الفهم مغروسة منذ البداية في نفس هذا الطفل، وهو يحتجن مملكتك لنفسه. فهذا كان يا مولاي أسلوب شعبه، إنهم يدوسون بأقدامهم من أحسن إليهم، ويغصبون بالحيلة سلطان من دعمهم وحماهم..» ويعدد الساحر أفعال أبراهام ويصحاق ويعقوب وأخوة يوسيف، ويقترح على الفرعون تجربة الطفل بوضع صحن فيه جمر وآخر فيه ذهب، وينتقي الصبي بمعجزة جمرة يحرق بها لسانه! وعليه ترعرع الصبي في البلاط يلبس ثياب الملوك ويتنعم بأطايب الحياة. **والمهم في الأمر أن محررو التوراه يتعمدون من خلال ذلك الاعتراف بتربية أجيال اليهود على التنكر وكسر اليد التي تساعد والانقلاب على فعل الخير، في غائية السيطرة على أملاك الأغيار، وعدم الأمان لهم. وللعلم فإن هذه الرواية برمتها لا ترد في التوراه فيما خلا أن موشيه كان ثقيل اللسان، ولكنها ترد في التلمود.**

المهم أن موشيه يقتل مصرياً لضربه أحد اليهود، ويفر من مصر إلى حين. **ويذكر التلمود رواية لا أساس لها في التوراه عن التحاق موشيه بجيش قيقانوس الحبشي الذي حارب الآشوريين وأخضعهم وأرغمهم على دفع الجزية،** وبالطبع هذه الأحداث الخيالية لا وجود لها سوى من أجل تمضية الوقت وتهيئة الأرضية للخبرة التي سيكتسبها موشيه الهارب من مصر. ولأن قيقانوس قد تعرض لانقلاب يهودي آخر عليه هو بلعام بن بِعور الفار من وجه الفرعون المصري، فقد عينه قيقانوس وصياً على العرش أثناء حربه على الآشوريين. وبموت قيقانوس خارج أسوار الحبشة محاولاً استرداد عرشه، قام جنوده بتعيين موشيه ملكاً عليهم، فيقتحم المدينة بالطريقة نفسها التي ستقتحم بها أريحا، ويفر بلعام بن بعور عائداً إلى مصر، ليعود إلى ممارسة السحر! **وهكذا يصير موشيه ملكاً على الحبشة ويتزوج بأرملة سيده قيقانوس، وهي من نسل حام المحرمة مصاهرتهم.** وعاد الآشوريون إلى التمرد، فيخضعهم موشيه مجدداً ويفرض عليهم الجزية! أما هو فيتخلى عن عرش الحبشة بروح رياضية عندما طالبت زوجته بالعرش لابنها، ورفض الشعب الذي أحب مليكه اليهودي العادل! وودعه بكثير من الأعطيات الثمينة، فيغادر «الملك» نحو مدين، حيث تلتحق رواية التلمود برواية العهد القديم، حيث أن **كل هذه الرحلة الحبشية ليس لها أثر في**

العهد القديم التي يفر فيها موشيه من مصر إلى مدين مباشرة، حيث يلتقي ببنات رِعوئيل عند بئر الماء، فيساعدهن على سقي ماشيتهن رغم مزاحمة رعاة مدين، وعليه يتزوج «الملك» العازف عن عرشه براعية ماشية مدينية اسمها صِفُراه **(في سفر الخروج يصبح اسم حمي موشيه يثرون، أما في سفر القضاة فيصبح حوباب القيني، أما في سفر العدد فيظهر حوباب ابناً لرعوئيل المدياني، وعلى القارئ أن يتدبر أمره!)** التي ولدت له ابنيه جرشوم وأليعازر **(في سفر العدد نعرف أن زوجة موشيه هي كوشية–أثيوبية وليست صفوراه)**، وريثيه الشرعيين اللذين لم يلعبا أي دور في المستقبل، ربما لأن أمهما ليست من الشعب المختار! بل كان دور يوشع واللاويين أحفاد أهرون. وراح موشيه يرعى غنم حميه إلى أن تجسد له الرب ناراً في عليقة، وكلمه بأنه رأى مذلة العبرانيين في مصر فقرر أن يرسله ليخرجهم من مصر إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، وقرر الرب أخيراً أن يستقر على اسم استقاه من أرباب الكنعانيين: «هكذا تقول لبني يسرئيل. **يهوه** إله آبائكم إله أبراهام ويصحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم».. «وأما باسمي يهوه، فلم أعرف عندهم»[288]. لم يصدق موشيه الحكاية، ولم ير في نفسه أهلية للقيام بالأمر، فهو فار من العدالة في مصر، وهو لا يملك مؤهلات الخطابة، ولكن الرب يأمره بإلقاء عصاه فتتحول إلى حية تسعى، ويأمره أن يضع يده ي جيبه، وعندما أخرجها كانت بيضاء، فيصدق موشيه أن هذه معجزة الرب، ويقبل المهمة مستعيناً بأخيه الفصيح أهرون ليفسر ما سوف يقول. أما عصا موشيه، فهي العصا التي خرج بها آدم من الجنة وتوارثها الآباء إلى أن وصلت إليه عبر يوسيف، وقد نقلها رعوئيل إلى الحبشة أثناء فراره من مصر.

الخروج

من مدين كان على موشيه التوجه إلى مصر لإخراج شعبه الذي يتعرض لأسوأ أنواع العذاب. وفي مصر يدخل موشيه وأخوه على الفرعون تكراراً يطلبون إعتاق اليسرئيليين، لكن الفرعون يرفض ويزيد أعباء السخرة عليهم، إلى أن بدأت الكوارث تحل تباعاً على المصريين، وفي كل مرة كان الفرعون يستنجد بصلاة موشيه لتخف اللعنة، ثم يعود إلى الظلم بعد زوالها، إلى أن رضخ الفرعون وسمح لموشيه بإخراج شعبه من أرض الكنانة، ولم ينس موشيه أن يوصي الشعب بسرقة الذهب والفضة والثياب من المصريين، فخرج من العبرانيين من مصر ستمئة ألف إضافة إلى نسائهم وأطفالهم، ما يجاوز الثلاثة ملايين على أقل تقدير! (في لوغاريتمية متواضعة للتناسل يجب أن يكون تعداد اليهود في العالم اليوم ثلاثة مليارات على أقل تقدير!) «**وكانت إقامتهم في مصر**

أربعمئة وثلاثين سنة»[289] «منذ أن تجلى الله لأبراهام في الرؤيا المعروفة باسم «عهد الأشطار» وأخبره أن ذريته ستكون «غرباء في أرض ليست لهم». لكنهم مع ذلك «عاشوا في مصر **حسب التلمود مئتين وعشرة أعوام فحسب»**[290]**؛ أما سفر التكوين فيحدد الإقامة بأربعمئة سنة فقط**[291]؛ **أما في قصة يوسيف فلم تتجاوز إقامتهم في مصر أكثر من عمر جيل واحد من أحفاد يوسف أولاد ماكير**، الذين وجدوا يحاربون مع يوشع أثناء اجتياحه كنعان كما يشير سفر يشوع، **وعلى القارئ أن يحل هذه التناقضات**، أو يتقبلها كما يجدر بـ «المؤمنين الحقيقيين»**!** طبعاً كان بإمكان هذا الإله الاستغناء عن كل هذه العقوبات بإرادة إلهية تقول للشيء «كن فيكون»، ولكنه في المقابل يصبر على اليهود في كل توجهاتهم نحو الأذية والتمرد على أوامره، لأنه إله عنصري لجماعة عنصرية.

أما من الناحية التاريخية فمن الصعب تصديق أن الخروج الذي يحدث بعد 480 سنة من العبودية، ما يعني أنه حدث في العام 1438 ق. م. أي في عصر العمارنة (عصر الإمبراطورية المصرية في أعز مراحلها) خلال فترة الفرعون تحوتموس الثاني وابنه تحوتموس الثالث اللذين شنا الحملات على كنعان ووصلا إلى الفرات، معلنين خروج مصر إلى الحلبة الدولية، ومتحديين بذلك المملكة الحورية ـ الميتانية المسيطرة.

المهم أن الرب راح يسير أمام شعبه في رحلة الخروج من مصر، في النهار عمود سحاب، وفي الليل عمود نار، ويقرر الفرعون أن يعيدهم، فيلحق بهم عند بحر سوف (البحر الأحمر) فيشق موشيه البحر بعصاه، ويعبر اليسرئيليون، ويغرق الفرعون وجنوده. **والمفارقة هنا أن الرب الذي يشرف شخصياً على عملية إجلاء شعبه من مصر، «لم يهدهم في طريق الفلسطينيين مع أنها قريبة»**[292]**مع العلم أن أول تسمية للفلستين وردت في نص للفرعون منفتاح حوالى 1185**، بعد رده لشعوب البحر عن مصر، ولم تكن البلاد قد اتخذت اسمهم بعد.

ثم يتيه الشعب المختار أربعين سنة في صحراء سيناء (وهنا يرزقهم الرب المن والسلوى ويحدث موشيه معجزاته بإخراج الماء من الصخر، وصعوده لمقابلة الرب مع التناقضات الكبيرة في كونه صعد منفرداً أو أن الرب أمره بإحضار أخيه أهرون، وفي رواية أخرى أنه أحضر الكهنة وشيوخ يسرئيل السبعين ورأوا وجه الرب على عكس التحذير الأولي من ذلك. وعلى جبل حوريب تنزل عليه ألواح الشريعة (في مديان على الجهة الشرقية لخليج العقبة، ويرد في أمكنة أخرى جبل سيناء)، ويكسر موشيه الألواح غاضباً عندما يجد ارتداد شعبه مع أخيه إلى عبادة العجل الذهبي،

ويحدث عليه عدد من حالات التمرد التي كانت تنتهي لمصلحته بمذبحة حقيقية يقودها الكهنة اللاويون.

من سيناء يرسل موشيه جواسيسه لاستطلاع الهدف النهائي، كنعان. وبعد انقضاء الأربعين سنة التي شرّد فيها الرب شعبه، كان الجيل القديم قد مات كله، فانطلق الركب نحو أدوم (رفض ملك أدوم السماح لموشيه بالعبور نحو كنعان)، ثم مات أهرون ودفن عند جبل هور، وعندما وصل إلى الحدود بين موآب وبلاد الأموريين عسكر في موقع أرنون، وعندما رفض الملك الأموري أن يسمح لموشيه بعبور أراضيه، قاتله وأخذ كل مدنه وقراه (بدون اسم الملك ولا أسماء المدن)، ولم يصطدم مع موآب وعمون، ولكنه يتجه شمالاً نحو حوران (باشان) فيحتلها بعد هزيمة ملكها، ثم يعود إلى «عربات موآب» في شرقي الأردن مقابل مدينة أريحا التي سيكون «شرف» الإجهاز عليها من نصيب يوشع، لأن الرب حرم موشيه من شرف دخول كنعان لأنه خالف أوامره في الصحراء. **ثم يدور موشيه على قوم حميه مديان، فيجزر بهم ويحرم رجالهم وحيواناتهم، ويسبي نساءهم وأطفالهم، بأمر من الرب، لأن شعب يسرئيل قد زنى مع بنات مديان وتعلق بآلهتها (هكذا).** ويموت موشيه عن 120 سنة، وليس قبل أن يؤشر لشعبه إلى الأرض الموعودة، ويترك مهمة احتلالها على عاتق نائبه يوشع بن نون. **مع العلم أن هذه الدويلات لم تكن موجودة خلال زمن الخروج الافتراضي بسبب الجفاف الذي عم العصر البرونزي المتأخر وبداية عصر الحديد.** ولأن الكاتب «كان يستلهم الجغرافيا البشرية والسياسية المعروفة لديه وقت تحرير الأسفار»[293]. وهناك استنتاجات تقول بإمكانية مقتل موشيه في انقلاب قاده يشوع بن نون وبالتآمر مع أليعازر بن أهرون.

هكذا نكون عند بوابة كنعان، وبالرغم من كل «قدسية» هذا الكتاب، إلا إنه وحتى الآن لم يستطع الباحثون (حتى أكثرهم تعصباً للنظرية التوراتية أمثال فوليم فوكسويل أولبرايت) بشكل مباشر العثور على مفاصل يمكن عندها مقاطعة أية قصة من قصص الآباء، أو أي عنصر ثانوي من عناصرها، مع أي حدث أو معلومة تاريخية من عصر البرونز الوسيط(1950- 1550ق. م) أو حتى من عصر البرونز المتأخر[294]، **فالتواريخ لا تتناسب، فيما يحصل الفرق بأكثر من 700 سنة كما بين التاريخ الحقيقي لمدينة حاران التي لم تزهر قبل العصر الآرامي أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، أما بئر السبع، المقر الرئيسي لأبرام فلم يعثر فيها على دلائل سكنية تعود لما قبل الألف الأول قبل الميلاد، وهذا يعني فرقاً يتجاوز 800 سنة أقلّه.**

أسطورة غزو كنعان

يورد كتبة التوراه قصتين مختلفتين لهذا الغزو، إحداهما ذات طابع عسكري صاعق على يد يوشع بن نون، الذي عبر بمساعدة الرب الذي شق له «عباب» نهر الأردن ليسير بقومه على اليابسة (كما فعل مع موشيه)، ثم بتدمير أريحا وقتل كل ما يتحرك فيها بأمر من الرب، ثم إحراقها بالنار (مع أن أريحا لم تنهض لمقاتلته حسب الرواية)، ثم يقاتل خمسة جيوش لملوك أورشليم (**التي كانت لا تزال بلدة صغيرة في ذلك الزمن**، والتي يقع في التناقض بعدها حيث أن اليهود يضطرون للعيش بين مواطني أورشليم اليبوسيين)[295] كذلك الأمر بالنسبة إلى جازر التي يدعي أنه أباد شعبها وقتل مليكها، ليعود ويقول إن سبط أفرايم لم يطردوا الكنعانيين من جازر بل عاشوا بينهم[296]، إضافة إلى ملوك كل من: حبرون وبرموت ولخيش وعجلون، الذين هزمهم يوشع، (**وبالطبع لا تورد الرواية أسماء لهؤلاء الملوك الذين وقفت الشمس ليوشع كي ينهي مقتلته على نور**)، ثم قتل الملوك الذين أسلمهم الرب له وعلقهم على الخوازيق. ثم يأتي دور حاصور في الشمال، ليعمل فيها يوشع مقتلة ويدمرها ويحرقها ويقتل ملكها (الذي لم يسمه) ثم يستولي على كل المدن، ويوزع الأرض على الأسباط، ثم تستريح المنطقة من الحرب[297]. **ليظهر بعد ذلك أن كل هذا الجهد كان هراء، لأن يشوع في سفر القضاة لم يستولِ على أرض كنعان،** «بل قام بتوزيعها نظرياً على الأسباط، تاركاً كل سبط يعمل على اكتساب نصيبه بنفسه وعلى طريقته الخاصة»[298]. **ومن أعداد المواشي التي استولى عليها يوشع سيكون لزاماً عليه أن يستولي على مراعي البرازيل لتستطيع استيعاب هذا الكم الهائل من الأرقام الفلكية، ليظن القارىء أن كنعان خلال موجة الجفاف تلك كانت تعيش في كوكب آخر وترفل بنعيم لم تفلح في الحفاظ عليه: (675 ألف رأس غنم؛ 72 ألف رأس بقر؛ 61 ألف حمار إلخ[299]. كل هذه التهاويم التوراتية تجري – حسب مؤرخي التوراه – حوالى العام 1200 ق. م. ولا نعلم كيف لم يصطدموا بشعوب البحر! ثم جهلهم بالفرعون مرنفتاح الذي هزم شعوب البحر والفلستين (الذين لم تذكرهم الرواية التوراتية كذلك) ثم حملة رعمسيس الثالث الذي تعقب شعوب البحر حتى بيت شان سنة 1191 ق. م، حيث نصب لنفسه تمثالاً هناك، عثر عليه إلى جانب نص يتحدث عن حملة الفرعون تلك**[300].

أما التنقيبات الآثرية فلم تشأ إلا أن تخيب أمل مصدقي روايات التوراه، فقد ظهر أن مدينة أريحا تعرضت للدمار العام 1560 ق. م. ولم يعد بناؤها، ولم يكن لها سور خلال الفترة الافتراضية لغزو يشوع الخيالي. وأما الرواية الثانية للسيطرة على كنعان، فتتحدث عن التسلل السلمي التدريجي! و«من هنا، فإن قصة الخروج من مصر تبقى معلقة في فضاء تاريخي تام،

ولا يستطيع التاريخ إثبات أي جزء من أجزائها، بل إن المؤرخين الجدد يميلون إلى نفيه جملة وتفصيلاً»[301]. وعن الموضوع عينه يقول الباحث اليهودي الأميركي سارنا: «إن خلاصة البحث الأكاديمي حول مسألة تاريخية الخروج تشير إلى أن الرواية التوراتية تقف وحيدة دون سند من جهة، وهي مليئة بالتعقيدات من جهة ثانية... والبينة الموضوعية الواضحة على تاريخية النص التوراتي هنا، مفقودة تماماً، بما في ذلك نتائج التنقيب الأثري»[302]، **ومع ذلك لايزال المؤمنون يصدقون الرواية الدموية ويقدسونها ويستسلمون لترهات عزرا الفارسي، ويلعنون الفراعنة وملوك كنعان ونبوخذ نصر وكل من يفند هذه الأكاذيب العنصرية، إلى أبد الآبدين!**

الملوك: وحدة المملكة وانقسامها

«يسرئيل» التوراتية في كنعان

يحطم سفر القضاة رواية سفر يشوع في الهجوم الصاعق، ليستبدلها بالتوزيع النظري لكنعان على الأسباط، وقد عدل الرب عن طرد الكنعانيين لأن «يسرئيليين» لم يسمعوا إليه[303]. ولكن سفر القضاة يعود إلى الكذب حين يذكر أن الرب أمر يهوداه ليكون البادىء في أخذ حصته من الكنعانيين، فرافقه أخوه شِمعون، وهاجما أورشليم، وضربوها بحد السيف وأحرقوها[304]، ليعود في الأصحاح التاسع عشر[305] ليغير كذبته حيث تبدو أورشليم ما برحت مسكونة من أهلها اليبوسيين، وأنه «ليس أحد من بني يسرئيل هنا»، أي في يبوس (أورشليم). ويتابع التناقضات في ما يلي ليقول: إن اليسرئيليين أقاموا بين الكنعانيين، ولم يطردوهم لا من جازر ولا من قطرون ولا عكو ولا صيدون ولا أحلب ولا أكزيب ولا بيت شمس ولا بيت عناة «بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض»، ليس هذا فقط، بل «حصر الأموريون بني دان (اليسرئيليين) في الجبل لأنهم لم يدعوهم ينزلون إلى الوادي»[306].

كل هذا الكذب والتناقض ولا يزال المؤرخون يحاولون الاحتيال من أجل صنع تاريخ من هذه التفاهات! وكل هذه الحكايا ما هي إلا حكايا شعبية كنعانية متوارثة أراد المحرر التوراتي أن يصنع منها حبكة تخدم أهدافه، لكن المخيلة المشتتة، وتعدد المحررين، لم تفلح في الحفاظ على سياق متسق للكذبة، فخرج التناقض صارخاً من سطر إلى آخر، ومن فقرة إلى فقرة. فلم ينتبه محررو التوراه، أوأقلّه المؤرخون الذين يصرون على إسقاط الروايات على أرض الواقع، **أنه في العصر المفترض لسفر القضاة كان الشرق على موعد مع الانتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد،**

وقدوم جماعات شعوب البحر والفلستين ليغزوا المنطقة التي كان قد أرهقها الجفاف. وانتهت مملكة الحثيين في الأناضول، ومملكة الحوريين (ميتاني)، ودمرت أوغاريت، وخرجت آشور إلى الحلبة الدولية كمملكة قوية، ويقود تغلات فلاسر الأول حملته على المنطقة 1100 ق. م. بينما كان الرواة يتسلون بقصص شمشون. و«إنّ غياب أخبار مصر بشكل خاص وأخبار آشور، التي وصلت قوتها إلى مسافة عشرات الأميال عن مسرح قصص القضاة، وعدم تعرض النص التوراتي إلى ذكر أية حادثة أو شخصية تتصل بأحداث تلك الفترة، **يدل على أن محرري التوراه الذين كانوا خلال العصر الفارسي يؤسسون لأصول يسرئيل في عصر منقطع عنهم تماماً، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ذلك العصر».** [307]و«إذا وضعنا النص التوراتي جانباً، **فإن علم الآثار لم يتوافر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر (ق. م) قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين اتخذ وضعه كأمة مكتملة، ومع نهاية القرن الحادي عشر (ق. م)**[308] ينقضي عصر القضاة دون كثير عمل، ومناصب القضاة هي مناصب رسمية سرقت عن مناصب النبلاء الذين حكموا المدن–الدويلات الفينيقية (شوفيتيم). ولكن همنا هنا أن نصل إلى مزاعم التوراه عند بداية عصر الملوك، حيث تظهر فترة حكم القضاة هنا كمرحلة انتقالية وصولاً إلى المملكة المزعومة. **ويعتبر سفر صموئيل بأنه سفر الانتقال من عصر القضاة إلى عصر الملوك، وفي الوقت عينه سفر انتقال السيطرة من يسرئيل إلى يهوداه.** وصموئيل هو آخر قضاة بني يسرئيل، وكان كاهناً في مدينة شيلو، فاختار له الرب خليفة «شاؤول» راعي الحمير، فمسحه ليكون أول ملك على يسرئيل، فكان على هذا الملك أن يهزم الفلسطينيين والأدوميين وصوبة والأموريين والعماليق، وطبعاً ككل الروايات، فقد حرم وقتل وسبى. ولأن شاؤول عفا عن أجاج ملك العماليق غضب عليه الرب فكان ذلك تأسيساً لوصول الراعي «داوِد» إلى سدة الملك بأمر من الرب، ومسح صموئيل له[309]، ومعروفة قصة داوِد مع جوليات عملاق الفلسطينيين الذي قتل بضربة مقلاع.

والقصة هنا تفيد صاحب النص في نقل الثقل من يسرئيل إلى يهوداه، حيث إن شاؤول هو ملك المملكة الشمالية، يعيش إلى الجنوب بين الهضاب المركزية ومرتفعات يهوداه التي سينتقل الثقل إليها، تأسيساً للمملكة الموحدة تحت سلطة داود من دون قبائل يسرئيل العشر في الشمال.

بعد خلاف داود وشاؤول، هرب الفتى من درب مليكه الذي أراد الغدر به، وصار يعمل لحساب ملك جت الفلسطيني ضد أبناء جلدته، إلى أن ينتحر شاؤول ويصلب الفلسطينيون جثته.

بالطبع لا يخلو سفر صموئيل من التناقضات، حيث يذكر في الإصحاح 13 أنه حكم سنتين، يعود ليذكر أن شاؤول قتل في معركة جلبوع وهو كهل، فتقوم قبائل يسرئيل بتنصيب ابنه أشبوشت ملكاً وعمره 40 سنة ما يدل على أن حكم شاؤول تجاوز الأربعين لأنه لم يكن متزوجاً عندما مسح ملكاً[310]. وعندما علم داود بموت شاؤول رثاه وذهب إلى حبرون حيث مسحه رجال يهوداه ملكاً، في مقابل أشبوشت ملك يسرئيل في الشمال. فتنشب الحرب بين المملكتين، ليقتل أشبوشت غيلة على يد اثنين من جماعته (بعد سنتين لولايته)، طمعاً بمكافأة داود، حيث دخلا مخدع الملك بحجة أخذ الحنطة، **فقتلا الملك في قيلولته، وقطعا رأسه، إلا أن داود الذي مسحه اليسرئيليون ملكاً عليهم، قتل الرجلين وقطع أوصالهما**[311]، ويصل الكذب هنا ذروته، حيث يورد الراوي أن داود توجه واحتل أورشليم التي كانت لاتزال مدينة كنعانية يسكنها اليبوسيون!

وأخيراً يقرر رب اليسرئيليين أن يستقر، فقد سئم الرب السكن في الخيمة مذ صعد وشعبه من مصر! فأمر داود أن يبني له بيتاً، وطبعاً لم يكن لدى داود متّسع لبناء دار لربه، فقد شغل بالفتوح وفي بناء قصره على يد بنّائي أحيرام الصوري الذي لا نعلم عنه شيئاً في تلك الحقبة المفترضة من التاريخ! وكان على الرب أن ينتظر شلومو ليقوم بالمهمة. وكالعادة يخرج داود فيضرب عمون ومؤاب وصوبة التي لا وجود لها وعماليق وكل الممالك التي كان سيطر عليها مجتمعة أسلافه كل بدوره!

أما القصة التي تثير الاستغراب والاشمئزاز، فهي قيام داود باغتصاب بَتشَبَع زوجة ضابطه أوريا الحثي، الموجود على الجبهة يقاتل في سبيل سيده الذي يتمشى ضجراً على سطح داره. فأنجبت له وريثه على عرش المملكة، شلومو الذائع الصيت، ليكون أول ملك يتحدر من زنى ملوك التوراه.

أما أمنون بن داود فقد زنى سفاحاً بأخته ثامار بالتواطؤ مع خاله الذي نصحه بالتمارض كي تأتي وتعتني به، فيغتصبها لأن نفسه مالت إليها، فيقتله أخوه أبشلوم بحيلة ويهرب من غضب أبيه داود. وينقلب أبشلوم على أبيه، وتنشب حرب يقتل فيها الولد بعد أن كان داود قد فر من وجه ابنه إلى شرقي الأردن، ولكن الرب ينصر داوده على أبشلوم. ثم انتهت المقتلة بمصرع شيع بن بكري الذي قاد جماعة أبشلوم بعد موته، حيث رضي سكان مدينة آبل بيت معكة بتسليم شيع مقابل فك الحصار.

وجاعت يهوذا ثلاث سنوات إلى أن أطفأ داود غضب الرب بقتل زوجة شاؤول وأبنائه لأن الأخير كان ضرب جبعون مخالفاً عهده لأهلها[312]. ثم يغضب الرب على داود لأنه أحصى الشعب فجعل وباءً قتل سبعين ألف رجل من يسرئيل، ثم ندم الرب على فعلته[313] **(عدالة السماء تقتص من الأبرياء انتقاماً، لتعليم فلسفة الانتقام من الأقارب عقاباً، والتي لايزال اليهود يمارسونها، ثم يقتل الرب يهوه الأبرياء بسبب غلطة مصطفاه، ثم يندم، وباستطاعته ألا يندم ويعيدهم إلى الحياة، أو يضرب نبيه).**

ملك داود المزعوم 40 سنة ونصف السنة، منها سبع سنوات ونصف السنة على أورشليم، و33 سنة على المملكة الموحدة. **وبالطبع لم تتحدث الحفريات عن شيء من هاتين المملكتين المزعومتين، ولا عن ملك يحمل هذا الاسم المزعوم، برغم الجهود الهائلة في سبيل تحقيق التاريخ الوهمي لهذه الروايات، وقد «سكب المؤرخون أطناناً من الحبر حتى الآن من أجل إعادة ترتيب هذه الأخبار المختصرة الغامضة ووضعها في إطار تاريخ مقبول، فأخرجوا ممالك من العدم وأسبغوا عليها الطابع التاريخي ورسموا حدودها ووصفوا علاقاتها مع الممالك الوهمية الأخرى استناداً إلى الرواية التوراتية وحدها»**[314]، مثال مملكة صوبة التي لا وجود لها البتة إلا كمشيخة قبلية قريبة تاريخياً من زمن كتابة التوراه! ولم تتحدث الوثائق الآشورية، ولا التوراه عن اصطدام داود «الفاتح» بالآشوريين الذين كانوا يسيطرون على كامل المنطقة في القرن العاشر قبل الميلاد، الزمن المزعوم لمملكة داود التوراتي، والذي لم يكن سوى «شبح تاريخي» حسب وصف الباحث فراس السواح في كتابه «آرام دمشق وإسرائيل».

وفي آخر أيام داود، وسوس النبي ناثان إلى بتشبع[315] أن تدخل عليه لتقنعه بتتويج شلومو كخليفة بدل أدونيا بن حجيث، ودخل ناثان وراءها واقتنع داود وطلب أن يمسح شلومو على العرش! **فذعر أدونيا وتمسك بقرون المذبح واستحلف شلومو ألا يقتله، فوعده بذلك، وبعد موت داود كان أول عمل يدشن به شلومو عهده هو البطش بأخيه أدونيا، ومساعده يوآب قائد جيش داود الذي لم يسعفه لجوؤه إلى مذبح الرب (فلا حرمة لشيء عند اليهود في سبيل السلطة).**

صاهر شلومو فرعون مصر الذي نسي الراوي ذكر اسمه، والذي يغزو مدينة جازر الكنعانية التي لا تقع على مرمى حجر من أورشليم، وكانت لا تزال خارجة عن طاعة الإمبراطورية الشلومونية، فدمرها الفرعون وأعطاها مهراً لابنته زوجة شلومو الذي أعاد بناءها، (ومعلوم أن المصريين لم يزوجوا قط بناتهم من غريب خوفاً على العرش المصري، حتى أنهم احتالوا في

ضعفهم على قمبيز الفارسي وأرسلوا إليه فتاة تخدم في القصر على أنها ابنتهم، تلبية لطلبه). كما صاهر شلومو ملك صيدون وصار يتعبد لآلهة الكنعانيين والفينيقيين. ثم تأتي ملكة شِبا بعد أن سمعت به وبمملكته. ومعروفة معزوفة بلقيس التي لا يذكر اسمها لا في التوراه ولا في التلمود، ولكن اسمها يرد شفاهاً عن المرويات المسماة بالإسرائيليات التي أدخلت إلى ثقافة المؤمنين عموماً. ومعلوم أن مملكة سبأ في جنوب الجزيرة العربية قد ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، أما الرواية التي يوردها النص التوراتي هنا فيمكن أن «تعود إلى قبيلة السبئيين التي كانت تتجول في شمال الجزيرة العربية خلال العصر الآشوري الجديد، وورد ذكرها في أكثر من نقش كتابي آشوري من القرن السابع قبل الميلاد. وقد كانت لبعض القبائل العربية، التي وردت في السجلات الآشورية ملكات شهيرات محاربات، منهن الملكة شمسة والملكة زبيبة والملكة طاربو»[316]، قد يكون سمع بها الراوي التوراتي فاستخدمها، ولكن في كلتا الحالتين (مملكة سبأ أو قبيلة السبئيين) لم تكن أي منهما معاصرة لعهد شلومو التوراتي.

أما الكذبة الكبرى فتتعلق بعلاقة شلومو مع حيرام ملك صور، الذي ما إن سمع بتتويج الملك شلومو، حتى أرسل إليه بالتهاني، فطلب منه الأخير خشباً ونجارين وبنائين ليشيدوا قصور نسائه وهيكل الرب. فسخر شلومو ثلاثين ألفاً يروحون ويجيئون بين فلسطين ولبنان من أجل نقل الأخشاب ومواد البناء، وسبعين ألفاً يحملون أحمالاً، وثمانين ألفاً يقطعون في الجبل، ما عدا المشرفين الذين بلغوا الثلاثة آلاف، فاكتمل بناء البيت في السنة الأربعمئة والثمانين للخروج من مصر والتي تصادف السنة الرابعة لحكم شلومو[317]. وهنا، ناهيك عن أن حجم الأعمال الذي يضاهي الأعمال التي استهلكها بناء الأهرامات مجتمعة فلم يشاهد أيّ شيء من كل هذا عبر الكم الهائل من الحفريات، فلو سلمنا أن الأخشاب أحرقت، أو اندثرت، أين ذهبت كل هذه الحجارة؟

أما عن مقادير الذهب وقوة الأسطول الذي بناه وقاده الفينيقيون لمصلحة شلومو على بحر سوف (الأحمر) فأكثر من أن يصدقها إلا من أرادوا أن يصدقوا أية ترهة. **فقد كانت كل آنية قصور الملك ومعابده من الذهب وكانت الفضة كالحجارة في أنحاء أورشليم،** وخشب الأرز مثل خشب الجميز[318]، ناهيك عن مخازن الذهب والعاجيات! **أما عن الحفريات التي أجريت لتأكيد الرواية التوراتية فقد منيت بضربة ساحقة على يد المنقبة الأثرية كاثلين كينيون التي وجدت في القدس سور المدينة اليبوسية القديمة الذي يعود إلى العام 1800 ق. م. والذي خضع لعدة ترميمات أبقته قائماً حتى دمار المدينة على يد نبوخذ نصر البابلي عام 587 ق. م. أما ما بينهما فليس له أثر إطلاقاً، ما يعني غياب العصر الذهبي المزعوم لشلومو التوراتي.**

أما عن هيكل شلومو، فتقول الرواية التوراتية أن زربابل العائد من المنفى البابلي قد أعاد بناءه حوالى العام 520 ق. م. فدعي بهيكل زربابل. وتقول كينيون إنه أجريت عليه عدة ترميمات في عهد المكابيين، ثم وسعه الملك هيرود الأدومي (غير اليهودي)، **وقد اكتشفت المنقبة أن النحوت الموجودة على وجه حجر هيكل هيرود تعود إلى العصر الفارسي وبالتالي لا تمت بشيء إلى العصر الافتراضي لشلومو التوراتي، وقد بقي هيكل هيرود قائماً لقرن من الزمن حتى دمره الرومان سنة 70 للميلاد. أما هيكل شلومو المزعوم فلم يتم العثور على حجر واحد منه حسب قول كينيون. أما حائط المبكى فتعود حجارته إلى هيكل هيرود أيضاً**[319].

أما عن مساحة الإمبراطورية اليهودية، فإنه ولصغر المدينة في القرن العاشر قبل الميلاد، لم يتعد عدد سكانها الألفي مواطن، أما في فلسطين كلها فلم يتعد عدد السكان المئة ألف على أبعد تقدير[320]، فأين هي المملكة المزدهرة التي تجاوز عدد نساء شلومو فيها الألف، منهن 700 زوجات و 300 سريات. ولأن الرب غضب لأن شلومو تزوج من خارج الملة، فقد عاقبه بتمزيق المملكة[321]!

وعليه، يمكن القول إن «يسرئيل التوراتية تظهر إلى الوجود، لأول مرة، كنتاج فكري من نواتج الوضع الخاص للمجتمع الأورشليمي المصطنع في العصر الفارسي. من هنا فإن هذه اليسرئيل لا تتمتع بوجود موضوعي خاضع لعملية الاستقصاء التاريخي، وأي مجهود يبذل في هذا الاتجاه هو مجهود لا طائل تحته»[322].

أما عن رأي المؤرخين اليهود في حقيقة وجود مملكة شلومو، فإن يسرئيل فنكلشتين، وهو أحد أهم علماء أركيولوجيا التوراه في تل أبيب ومؤلف كتاب «The bible unearthe»، يقول في أحد البرامج الوثائقية من إنتاج «BBC learning» سنة 2003: **«لم نتمكن من الحصول على أي دليل أثري على الإطلاق يؤيد قصة مملكة شلومو. كل ما لدينا هو النص المقدس. والنص نفسه كتب في فترة متأخرة جداً»**، كما قال عالم الآثار الإسرائيلي الأستاذ في جامعة تل أبيب زائيف هيرتسوغ في صحيفة ها آرتس بتاريخ 28/11/1999: **إن الحفريات المكثفة في أرض «إسرائيل» خلال القرن العشرين قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة، كل شيء مختلق ونحن لم نعثر على أي شيء يتفق والرواية التوراتية، كما أن قصص الآباء في سفر التكوين هي مجرد أساطير ونحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج منها. لم نته في صحراء سيناء ولم ندخل فلسطين بحملة عسكرية صاعقة. وأصعب هذه الأمور أن المملكة الموحدة داود وشلومو كانت في أفضل الأحوال**

إن وجدت مملكة قبلية صغيرة (مملكة المدينة). كما أن القلق سينتاب كل من سيعرف أن يهوه إله يسرئيل كان متزوجاً من الإلهة الكنعانية عشيرة. وأن يسرئيل لم تتبن عقيدة التوحيد على جبل سيناء وإنما في أواخر عهد ملوك يهوذا أي حوالى (600 ق. م).. إني أدرك باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي وتلميذاً للمدرسة التوراتية مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا وبين الواقع، وإني لأحس بثقل هذا الاعتراف على كاهلي ولكني ملتزم بالأخذ في الاعتبار ما توصل إليه زملائي من نقد وتفسير جديد للوقائع[323].

بعد موت شلومو

يبدأ الصراع بين يربعام بن نباط ورحبعام بن شلومو الذي طالبه بنو يسرئيل بتخفيف النير الذي فرضه أبوه عليهم، فتوعدهم بأقسى منه، لذلك لجأوا إلى يربعام فملكوه عليهم، ولم يبق لرحبعام سوى سبطي يهوذا وبنيامين، وعاد يربعام إلى عبادة العجل الذهبي، وبنى معبدين في كل من بيت إيل ودان وعين كهنة من خارج اللاويين[324]، كذلك عمل يهوداه الشر في عيني الرب ولم يخلصوا في عبادته، ومات رحبعام فتملك على يهوداه ابنه أبيَم الذي سار على خطايا أبيه ونشر الأصنام، وكان على حرب مع يربعام، مات أبيَم فخلفه آسا الذي سار على مذهب داود فأزال الأصنام[325].

بعد موت يربعام خلفه ابنه ناداب الذي قتله بعشا من نسل يساكر مع كل بيت يربعام، ثم قامت حرب ضروس بين يهوداه ويسرئيل، حيث استعان آسا اليهودي بملك دمشق المزعوم بن هدد بن طبريمون بن حزيون الذي ضرب يسرئيل وأخذها، فكف بعشا يده عن يهوداه وعاد بن هدد إلى دمشق **(أنظر التناقض، كيف ضرب بن هدد يسرئيل وأخذها، فكف بعشا اليسرئيلي يده، مع أن بن هدد أخذ يسرئيل، ثم عاد إلى دمشق!).**

توفي بعشا بعد حكم دام 24 سنة وملك ابنه إيله فخرج عليه قائده زمري بعد سنتين وقتله وهو يسكر، وضرب كل بيته بحد السيف، إلا أن العسكر الذي كان يقاتل الفلسطينيين لم ينصع له بل بايعوا قائدهم عمري الذي حاصر زمري في بيته في عاصمته «ترصة»، ولم يشأ الأخير أن يستسلم بل أحرق نفسه ومن معه في البيت، ولم يملك سوى سبعة أيام. أما عمري فقد ملك 12 سنة، 6 في ترصة، و6 في السامرة العاصمة الجديدة التي بناها لنفسه.

ومع عمري تبدأ التوراه بدخول التاريخ الحقيقي لأنه كان في وقت قريب من تحريرها الأول على يد عزرا، بعد حوالى مسيرة ألف عام من الاختلاق والتزوير! «وسيكون علينا أن ننتظر إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وهي فترة تدوين أسفار المكابيين، لكي نتلمس تغييراً جذرياً

في أسلوب النص التوراتي، وإكتسابه لأول مرة شكل الكتابة التاريخية ومضمونها. ذلك أن أسفار المكابيين قد دونت باللغة اليونانية، كما أن محرّريها متأثرون بالثقافة اليونانية، التي عرفت جنس الكتابة التاريخية وبرعت فيه»[326].

حساب السنين

إذا سرنا مع مفسري العهد القديم بأن أبرهام عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد (حوالى 1800 ق. م) وإذا كان يوسيف على زمن أخناتون[327] (1371- 1354ق. م) الذي مات في السنة الثانية والثلاثين لدخول بني يسرئيل إلى مصر، يكون الدخول 1386 قبل الميلاد، وعليه يكون الخروج 1171 ق. م، وإذا أنقصنا هذا الرقم من زمن وجود أبرهام، يتحصل لدينا الرقم 624 سنة من المكوث في مصر، بدل الوعد الإلهي 430 سنة، ويكون الفرق 194 سنة تقريباً! ومع هذا لم يستسلم مؤرخو التوراه الذين حاولوا عبثاً إسقاط الروايات على الواقع لحقيقة الأرقام، ولكنهم اعترفوا بفشلهم في إثبات شيء عبر التنقيبات الأثرية.

ولد شلومو سنة 2912 لبدء الخليقة حسب التقويم اليهودي (3761 بدء الخليقة ق. م)، يعني 849 ق. م. وحكم 40 سنة.

ما بين حكم شلومو وخراب الهيكل 433 سنة حسب التلمود، يعني دمر الهيكل 416 ق. م. على زمن الفرس، وليس 586 ق. م على يد نبوخذ نصر.

أما الكذبة الحقيقية فهي في تعداد السنوات، من سنة إتمام البناء لبيت شلومو (480 سنة من زمن الخروج) إلى تاريخ الخروج ليظهر أن الخروج كان في فترة 1420 ق. م. (قياساً على تقدير زمن شلومو حسب مؤرخي التوراه)، يعني على زمن تحوتموس الرابع والد أمنحوتب الثالث وجد أخناتون فرعون يوسف حسب روايات التوراه. هذه الكذبة لن يحلها أي ساحر، حتى ولو كان موشيه عينه!

* * *

المرحلة الفارسية

لن نخوض كثيراً في المرحلة الإسرائيلية والأورشليمية الكنعانيتين، لأننا بحثنا تاريخهما الحقيقي، وبالتالي فإن الادعاء التوراتي لم يعد ذا شأن بوجود الأصيل، خصوصاً وأن الخلط في التواريخ والأحداث هو النهج العام في روايات العهد القديم، وبالتالي فإنّ مسألة الإشارة إليه في حقبة بحثناها جدياً في موقعها الصحيح. ما يهمنا من أجل مواصلة البحث، هو المرحلة الأخمينية المؤسسة لتلك الروايات، **ونبدأ حيث سعى اليهود طوال حياتهم إلى ممارسة موضوع التقرب من مراكز صنع القرار واستغلاله، وتحديداً الخدمة في البلاطات الملكية، أو العمل ضمن فريق التحرير في القصور، أو الأهمية في موضوع التمويل، واستغلال الخبرة والإمكانية في ذلك المجال.**

تبدأ القصة مع الكاتب موردخاي ابن عم السيدة الأولى في بلاط الملك الفارسي أحشويروش، إستير (هدسّاه) اليهودية. وقد غضب الوزير هامان على موردخاي هذا لأنه رفض السجود أمامه، كون هامان من نسل عيسو، بينما موردخاي من نسل يسرئيل «المقدس». وتدعي الرواية أن هذا السبب كان كافياً من أجل أن يقوم هامان بإيغار صدر الملك أحشويروش واستصدار قرار منه لإبادة اليهود، فيطلب موردخاي من إستير أن تتدخل، فتنجح هذه بقلب الأمور على هامان لمصلحة اليهود، حيث أثارت إستير غيرة الملك بدعوتها هامان إلى إحدى الموائد وحصر الاهتمام به، ليعتقد الملك أنه على علاقة بها. ومن ثم أحسنت التمثيل أمام زوجها واستجلبت عطفه على اليهود، وغضبه على وزيره، فوضعه بتصرف موردخاي الذي أجهز عليه، وهو الحدث الذي يحتفل اليهود فيه بعيد الفوريم.

أما الدرس من كل هذا الجرد الطويل الذي يسمى سفر إستير كذلك، هو حض اليهود على تسنم المراكز أو الخدمة أو السقاية في بلاط الملوك، أو حتى البغاء في سبيل هذا الأمر، وهذا ما سوف نجد مثيلاً له في العصر الحاضر مع الوزيرة الصهيونية تسيبي ليبني التي كانت عميلة موساد، وورطت العديد من المسؤولين الفلسطينيين والعرب في مغامرات جنسية معها، يجري استغلالها من قبل الكيان الصهيوني أيما استغلال. وبحالة إستير يريد محررو التوراه أن يفسروا الاهتمام الفارسي بموضوع اليهودية، بينما مصالح الإمبراطورية الاستراتيجية تعالج بطريقة فارسية هادئة وأكثر ذكاءً.

إذن، تستمر المرحلة الفارسية في الشرق ومنه فلسطين لمدة مئتين وخمس سنوات (538-333ق. م)، وتذكر بعض المصادر أن عدد العائدين من أحفاد المنفيين لم يتجاوز 42 ألفاً. وتدعي روايات العهد القديم أن هؤلاء قاموا ببناء الهيكل. **وقد تميزت الفترة الأولى للمرحلة الفارسية**

في فلسطين، بفرض الديانة اليهودية بقوة الإمبراطورية الفارسية وسلطانها. «ومن خلال سفر نحاميا، ساقي الملك أرتحشستا، الذي عين حاكماً فارسياً ليهودا ويتمتع حتى بسلطات أكبر، يتبين لنا إلى أي حد كان دور الإكراه الأجنبيي، (يقابله في يومنا هذا الإكراه الإمبريالي)، دوراً فعالاً في فرض الديانة اليهودية، وبنتائج دائمة»[328]. **هذا كل ما في الأمر، انقضت المرحلة الفارسية بفرض للديانة التي ستخدم فارس في فرض الولاء والاستقرار ومعاداة المصريين.** أما عن الدور السياسي الذي يمكن أن يكون هؤلاء «العائدون» قد لعبوه، فحتى روايات العهد القديم لا تعطي شيئاً ذا أهمية. وللنظر إلى الأمر من خلال مصير المنطقة ككل، فقد **جعل الفرس بلاد الشام مقاطعتهم الخامسة وضموا إليها قبرص. وكان داريوش الأول (526- 486 ق. م) قد قسّم البلاد إلى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى «مرزبانة»، يحكم كل منها حاكم يدعى «مرزبان». وكان هذا الأخير حاكماً مدنياً وليس عسكرياً، ويقوم إلى جانبه قائد وأمين سر مستقل كل منهما عن الآخر ويتصلان بالعاصمة مباشرة. وفرض على كل «مرزبانة» حصة معينة من «الجزية» تدفعها إلى الخزينة الملكية[329]. غير أن المعلومات عن السياسة التي اتّبعها الفرس في فلسطين، في الفترة الممتدة من عام 539 قبل الميلاد وحتى عام 333 قبل الميلاد، تظل شحيحة، وذلك على الرغم من وجود المصادر الكلاسيكية المتعلقة بتاريخ المنطقة، مثل تاريخ هيرودوت (القرن الخامس ق. م)، الذي لم يشر إلى أي ذكر لشيء اسمه اليهود، مع أنه فصل في أمور أكثر هامشية، وذكر أن الفلسطينيين هم سوريون. ويشير الباحث نقولا زيادة إلى أن الفرس «أطلقوا على منطقة القدس اسم اليهودية، وأعادوا إليها جماعة من يهود السبي البابلي»[330]، وهي معلومة مستقاة من العهد القديم على الإغلب، كما يؤكد زيادة، بسبب غياب أية وثائق - باستثناء كتابات بعض العلماء التوراتيين - تثبت وجود "مقاطعة يهوذا (يهد) في فلسطين إبان الحكم الفارسي للإقليم»، مضيفاً بأن المرجع الوحيد المزامن للتقسيمات الإدارية للإمبراطورية الفارسية، أي هيرودوت "لم يشر لا إلى إقليم يهد ولا إلى يهوذا أو يسرئيل»[331]. أما فيليب حتي فقد أشار إلى أن الفاتح الفارسي «قورش» وجد، بعد دخوله بابل، جالية يهودية "يعود أصلها إلى سبي نبوخذ نصر»، فسارع إلى إصدار مرسوم يخوّل الذين يودون الرجوع من أفرادها إلى فلسطين، وأضاف بأن اليهود تمتعوا، في ظل الحكم الفارسي، بامتياز «الحكم الذاتي»، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الآرامية في حين ظلت اللغة العبرية تستخدم كلغة دينية[332].**

المرحلة الهللينية (333- 63 ق. م)

بعد انتصار الإسكندر المقدوني على داريوش الثالث في معركة إيسوس سنة 333 قبل الميلاد، احتل عاصمتهم تخت جمشيد ودمرها، وأحرق الوثائق والمدونات التي كانت فيها، ومن ضمنها الكتب الدينية.. وقطع سقوط الإمبراطورية الأخمينية الصلات السياسية لليهود مع بلاد فارس، ووضع هؤلاء اليهود في ظل مؤثرات جديدة، هي المؤثرات الإغريقية والهللنستية. وهكذا أضيفت إلى أسفار العهد القديم أسفار جديدة نجد فيها أخبار ردات الفعل المؤيدة أو المضادة للهلنسة، ومع ذلك تهلنس العهد القديم، وعلى هذا انتهت المرحلة الأخمينية، وهي المرحلة الأولى من تاريخ تدوين أسفار العهد القديم، وبدأت مرحلة جديدة سوف يكون لها تأثير كبير وديمومة[333]. وفيما وقعت مصر تحت الهيمنة الإغريقية، هاجرت أعداد كبيرة من اليهود إليها، حتى أضحت الإسكندرية أكبر مركز لهم. وقد لجأ الكاهن الأعظم لليهود أونياس الثالث إلى هناك، فيما أسس ابنه أونياس الرابع هيكل أون (هيليوبوليس) بتشجيع من البطالمة. وقد قامت صراعات بين اليهود والهللينيين ما تسبب في تدخل السلطات الرومانية[334].

وقد شهدت المرحلة الهللينية تمرد المكابيين عام 168 ق. م، واستيلاءهم على أورشليم وظهور الأسرة الحشمونية حتى سقوط المنطقة في قبضة الإمبراطورية الرومانية التي سمحت بدورها للحشمونيين بحكم أورشليم تحت رعايتها في عام 63 ق. م، من ضمن التشكيلات المحلية التي سيطر من خلالها الرومان، كما الإغريق، وكما الفرس من قبلهم على المنطقة، وحافظوا على الاستقرار وانتظام سيولة الضرائب وسير التجارة. واستمرت هذه الأشكال من الإدارة الذاتية حتى التمرد الأخير (أو ما قبل الأخير حسب بعض المؤرخين) الذي أخمده الرومان و«هدموا الهيكل» سنة 70 م، وحكموا فلسطين بصورة مباشرة. **وكانت القيادة المحلية في تلك المرحلة تتركز أساساً في كهنوت الهيكل والأرستقراطية اليهودية «الحشمونيين ثم الهيروديين». هذا في فلسطين، أما في بابل فكانت زعامة الجماعة الدينية اليهودية تتمثل بـ «رأس الجالوت» وتسانده طبقة الفقهاء والأثرياء. وكانت إدارة اليهود الذاتية تقتصر على تصريف الأمور الدينية، وبعض الأمور الدنيوية المحلية ذات الطابع الإداري كجمع الضرائب ومعالجة بعض الأمور البينية.** أما السلطة السياسية فكانت محصورة في يد القوة الإمبراطورية الحاكمة. ويمكن القول أنه بعد التمرد الحشموني سمح للحشمونيين في الفترة 152– 63 ق. م، بسلطة تتسم بالاستقلال النسبي عن الإمبراطورية الهللينية، «وإن كانت هللينية من الناحية الحضارية. أما حكم الهيروديين فكان حكماً تابعاً للرومان، وكان لقب «دوكس»، أي ملك روماني، الذي كان يحمله الهيروديون لقباً شرفياً وحسب. وبعد هدم

الهيكل، بدأ أمير يهودي (ناسي–بطريرك)، وهو قائد ديني ذو صلاحيات دنيوية محدودة، يترأس اليهود»[335].

أما اليهود القاطنون خارج أماكن السيطرة اليهودية، فكانوا «أحراراً من الإكراه الديني اليهودي.. كما كان نشوء المسيحية في حد ذاته، ممكناً بسبب هذه الحرية النسبية[336]، وهو الأمر نفسه الذي مكن من اتخاذ جزء من الجماعة اليهودية ضمن المركز الفلسطيني خياراً خاصاً، حيث انشقت طائفة السامريين عن التيار الأساسي لليهودية، خلال المرحلة الهللينية. كما يلاحظ أيضاً، بدء التحول إلى لعب الدور الوظيفي للجماعات اليهودية في العالم. «فعلى سبيل المثال، ظهرت الجماعة اليهودية القوية في بابل، التي أصبح لها تراثها الديني المستقل ومعاهدها الدينية، **واضطلع بعض أعضائها بوظائف التجارة والربا وجمع الضرائب. ثم ظهرت، بعد ذلك، الجماعات اليهودية المختلفة المنتشرة في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل الإسكندرية، وكانت جماعات وظيفية قتالية واستيطانية ومالية.** وكان لكل جماعة مراكزها ومؤسساتها الدينية القوية المحلية التي كانت تمثل نقاطاً تجذب بعيداً عن الهيكل[337].

التمرد الحشموني (168- 142 ق. م)

من الممكن اعتبار أنّ تمرد الحشمونيين، قد قام بتدبير من الفرثيين الفرس أنفسهم، وبتشجيع من الرومان الذين كانوا يتحضرون للخروج إلى الشرق. واستغلت القوى المنافسة للسلوقيين الحالة الاعتراضية لبعض اليهود على ارتباط النخب المحلية بالسلطة الإمبراطورية، وقاموا بممارسة دور الخادم لهذه السلطة، عبر الحفاظ على الهدوء، وجمع الضرائب، وكان المفجر لهذا الاعتراض زيادة الضرائب على كاهل الفقراء، وقرار أنطيوخوس فرض العبادة الهللينية في فلسطين، من ضمن عملية إدماج فلسطين في المملكة السلوقية. ومن هنا يمكن فهم لماذا اعتمد التمرد الذي قاده المكابي على فقراء اليهود من الفلاحين والحرفيين وصغار الكهنة ضد أنطيوخوس الرابع والسلوقيين وأثرياء اليهود المرتبطين بالهيكل، بل وتوسعت الكراهية اليهودية إلى المكونات غير اليهودية في شرقي الأردن والجليل والشريط الفلسطيني الساحلي، إضافة إلى المنطقة الأدومية في الجنوب.

قاد التمرد عام 168 ق. م الكاهن ماثياس الحشموني (من حزب القديسيين) وأبناؤه الخمسة. ولكن القوات السلوقية ألحقت به الهزيمة، فلقي مصرعه وهو يحاول الهرب، فتولى ابنه يهوداه المكابي القيادة من بعده وسيطر على كل مقاطعة يهوداه السلوقية، ثم استولى على أورشليم عام

164 ق. م باستثناء قلعة يونانية. وقام بتطهير الهيكل وهي المناسبة التي يُحتفَل بها في عيد التدشين (حانوكاه). وقد تبعت ذلك مجموعة من الغارات، إلا أن يهوداه هُزم عام 163 ق. م في المعركة التي قُتل فيها أخوه إليعيزر. **وذبح الحشمونيون في هذه الجولة الكثير من اليهود المتهلنسين، وقاموا بختان الأولاد عنوة، كما ذبحوا أعداداً كبيرة من السكان غير اليهود، وحاولوا تهويد الجماعات غير اليهودية تحت طائلة القتل.**

وفي المحصلة، ولأن الحركة الحشمونية كانت تفتش عن دور سياسي بغطاء ديني، ضمن السيطرة الهللينية، فقد «نجح الحشمونيون في توقيع معاهدة سلام مع السلوقيين ضمنت لهم شيئاً من الحرية الدينية. ولكن يهوداه وجماعته طمعوا في الحرية السياسية، ولذا فقد استمروا في الحرب مع أن بعض القوات الحشمونية التي وجدت أن شروط التسوية مقبولة انسحبت منها. وقد تحرَّك يهوداه على الصعيد الدولي، فحصل على تأييد البطالمة والأنباط، كما بعث برسالة إلى روما (القوة العظمى الصاعدة في ذلك الوقت) مؤكداً لها أن دولة يهودية مستقلة في فلسطين ستخدم المصالح الرومانية. وقد سعى كذلك إلى الحصول على الاعتراف بأن دولته دويلة صغرى لا يمكنها البقاء إلا تحت حماية دولة عظمى. وقد اعترفت روما بالفعل في عام 161 ق. م بالقوة الحشمونية»[338].

وأخيراً، قتل يهوداه وأخوه يوحنا 161 ق. م، ، فحل محله أخوه يوناثان الذي حصل على منصب الكاهن الأعظم وحاكم مقاطعة يهوداه السلوقية من الإمبراطور السلوقي سنة 152 ق. م. وحصل خليفته وأخوه شمعون على إعفاء من الجزية عام 147 ق. م، وعلى عهد شمعون استكملت السلطة الكهنوتية كاملة في يده، حيث انحصرت به وظائف الكاهن الأعظم بالوراثة وزعامة الشعب وقيادة العسكر (140 ق. م). وفي صراع على السلطة اغتيل شمعون واثنين من أبنائه، على يد زوج أخته (بطليموس) حاكم أريحا (135 ق. م)، ولكن ابنه الآخر يوحنا هيركانوس نجح في الاحتفاظ بالسلطة. وفي سنة 133 ق. م، هادن الحشمونيون وخضعوا لسلطة السلوقيين، مع احتفاظهم بالإدارة الذاتية.. وفي عهد «الملك» اليهودي المتهلنس الكسندر جانيوس 103– 76 ق. م شمل حكمه شرقي الأردن الذي سماه اليهود بيريا وتوغل إلى الساحل أيضاً. وقد حكمت بعده أرملته سالوم الكسندرا حتى 67 ق. م، ثم تخاصم إبناها على الحكم وتدخل العرب الأنباط في مساعدة هيركانوس الثاني ضد أخيه أريستوبولوس. ومع سقوط المنطقة بيد الرومان سنة 63 ق. م. ولأن الحشمونيين كانوا يتعاملون مع الرومان سراً ويتجسسون لمصلحتهم، فقد «استقبل بومبيوس ملك الحشمونيين أرستوبولوس في دمشق. وجرى تعيين هركانوس شقيق أرستوبولوس كاهناً أعظم من قبل الرومان، ومن ثم اقتحمت القوات الرومانية القدس وأنهت سلطة الحشمونيين، وأخذ

أرستوبولوس أسيراً إلى روما»[339]. والجدير ذكره أن الحشمونيين كانوا يحاولون اللعب على الصراع بين السلوقيين في سورية والبطالمة في مصر، حيث ساعد الاضطراب الديني في كلتا المملكتين الإغريقيتين على انتشار اليهودية، وساعد في ذلك هلنسة أسفار العهد القديم. كما تجدر الإشارة إلى ظهور جماعة الاغتيال الدموية المسماة الزيلوت أو القنائن، والتي كان أعضاؤها يحملون الخناجر ذات الرأسين كوسيلة للقتل في كل الاتجاهات وبث الرعب في صفوف الناس في الأسواق، وقد «مارست الاغتيال والنهب والسلب وترويع الآمنين. وازداد هذا الوضع واستشرى بعد سقوط حكم كل من السلوقيين في سورية ثم البطالمة في مصر، ودخول المنطقة بأسرها تحت حكم الإمبراطورية الرومانية.»[340].

إذن، كان الحشمونيون يفرضون التهود بالإكراه على غير اليهود، والضغط على المتهلنسين منهم إلى التعاون معهم. ومن نماذج التهوّد البارزة كان تهوّد أنتي جونوس الذي قبل اليهودية مجبراً، بهدف استرضاء اليهود (المكابيين) والاحتفاظ بحكم أورشليم، والذي كان قد تسلمه بمساعدة الفرس (43- 40 ق. م.)[341]. وبمقتل أنتي جونوس انتهت السيادة الإسمية لليهود على أورشليم، وهي السيادة التي كانت على الدوام سيادة منقوصة تابعة لدول أخرى (الفرس، اليونان، الرومان).

الأسرة الهيرودية الأدومية

خلال صراعات الرومان ومقتل بومبيوس وقيام يوليوس قيصر، استغل الفرثيون انشغال روما، فقاموا سنة 40 ق. م باحتلال سورية. وفي هذه الأثناء ظهرت الأسرة الهيرودية الأدومية العربية في فلسطين محل أسرة الحشمونيين. وبعد اغتيال القيصر سنة 44 ق. م، ذهب هيرود بن أنتيباتر إلى روما لأخذ بركة قادتها الجدد أنطونيوس وأوكتافيوس، فعينه مجلس الشيوخ حاكماً على القدس (شيخ ربع)، وعاد إلى فلسطين وساعد على طرد الفرث من سورية، واستولى على القدس سنة 37 ق. م، ووسع سلطته على كامل فلسطين وأدوم في شرقي الأردن وصولاً إلى السويداء السورية، وظل هيرودوس الذي صار يعرف بالكبير حاكماً حتى سنة 4 قبل الميلاد. **وكان يتعبد للبعل الكنعاني برغم ادعاء اليهود أنه كان يهودياً سيئاً، وهناك معبد للبعل بني على زمنه في قرية سيع في السويداء**[342].

بعد وفاة الملك هيرود الكبير، ساءت الأوضاع في أورشليم، وكانت فترة ظهور يسوع الناصري. وكان على الرومان إعادة احتلال فلسطين من جديد. أخذ هيرودوس أنتيباس مكان أبيه، وحمل لقب رئيس ربع الجليل حتى العام 39 ميلادي، وهو الذي أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان، وحاكم المسيح بطلب من الكهنة اليهود ورعاية بيلاطوس الروماني. وجاء من بعده هيرودس أغريبا الأول الذي حكم حتى 44 م، وهو الذي قتل القديس يعقوب وسجن بطرس الرسول، وبعد فترة انقطاع عين الرومان أغريبا الثاني ملكاً على يهوداه سنة 50 وبقي خلال عهد نيرون (54– 68 م) الذي انتدب القائد فسباسيان حاكماً على سورية، فحضر إلى أنطاكية سنة 67م، ثم التحق به ابنه تيتوس، وانضم إلى الفيالق الرومانية حاكم أدوم أغريبا الثاني، وسهيم ملك حمص العربي، ومالك الثاني ملك الأنباط. ترافق غزو فلسطين مع انتحار نيرون، وتسمية فسباسيان إمبراطوراً، فغادر إلى روما، واستمر ابنه في فتحه الممنهج لفلسطين في ظل استمرار أعمال القتال بين العصابات اليهودية، وفي سنة 70 م، سقطت القدس في يد تيتوس فلافيوس[343]، فدمرت، ولحقت بها بقية المدن الفلسطينية، وتمت إبادة جماعة القنائين الذين يدعي يوسيفوس أنهم لجأوا إلى قلعة مسعدة ورفضوا الاستسلام، ومن ثم انتحروا باستثناء أحد زعمائهم الذي أقنعهم بالانتحار وفر إلى الإسكندرية، ويعتقد أنه يوسيف فلافيوس شخصياً.

ومن الجدير ذكره أن قوات من حدياب[344]، حاربت إلى جانب المتمردين اليهود ضد الرومان (68- 70م). وتجب ملاحظة أن حدياب كانت تابعة للفرثيين وهم القوة العظمى الأخرى من الشرق الأدنى القديم والتي كانت تنافس الرومان وتهاجمهم في فلسطين بالذات. وقد حاول الفرثيون تجنيد اليهود إلى جانبهم ضد الرومان متبعين في ذلك سياسة الإمبراطورية الفارسية[345]، وهنا تظهر النظرة الاستراتيجية للفرس من وراء إنشاء اليهودية!

من هو يوسيفوس؟

هو يوسيف بن ماتيتياهو هاكوهين (38– 100 م) سياسي وقائد عسكري ومؤرخ يهودي من مقاطعة يهودا الرومانية في العصر الهلليني، من أسرة كهنوتية أرستقراطية، وكانت لأمه علاقة قرابة بالأسرة الحشمونية، أي إنه كان من الطبقة الحاكمة والنخبة المتهلنسة القريبة من روما المرتبطة بها، انضم في سن التاسعة عشرة إلى فرقة الفريسيين، ووصف بأنه كان شديد الطموح لا ضمير له.. وحين نشب التمرد اليهودي الأول (66– 70) انضم إلى التمرد بعد تردد، وعين قائداً عسكرياً لمنطقة الجليل عام 66 م. لعرقلة قدوم الرومان من الشمال، ولكن التحصينات اليهودية تساقطت

الواحدة تلو الأخرى، وحاول يوسيفوس الهرب ولكنه أرغم من قبل جنوده على البقاء معهم، إلى أن تحصنوا في قلعة مسعدة، حيث أفلح في إقناع جنوده بالانتحار بالقرعة، كيلا يقعوا في يد العدو، وضمن لنفسه البقاء في النهاية، وهكذا فقد استسلم بعد انتحار الجميع إلى القائد فلافيوس فسباسيان. **ومن ثم انضم إلى قوات تيتوس التي تحاصر القدس وصار متحدثاً باسم الرومان، وأقنع المتمردين بالاستسلام، وسار في موكب النصر ضمن الحامية الرومانية، وهكذا حصل هذا الخائن على امتيازات رومانية، وبدل اسمه إلى يوسيفوس فلافيوس تيمناً بسيده الروماني. وقد جعل من نفسه مؤرخاً، فكتب في روما «الحرب اليهودية» بالآرامية وترجمها إلى الإغريقية، وهدف من وراء الكتاب إقناع يهود بابل ببراءة تيتوس من حرق الهيكل، وبراءة اليهود من التمرد على روما، حيث ألقى باللائمة على بعض الغيورين الذين دنسوا الهيكل في الأساس وورطوا اليهود في حرب لم يريدوها، وكتب سنة 93 م. كتابه قدم اليهود (تاريخ اليهود منذ بدء الخليقة حتى التمرد الأول)، ثم كتب كتاباً آخر يدافع فيه عن نفسه ويناقض ما كتبه في الكتب السابقة، وتعتبره الموسوعة اليهودية كاتباً لا يعتد به، ومع ذلك تأخذ الصهيونية عنه قصة مسعدة (ماسادا) على أنها حقيقة تمثل التضحية اليهودية، بالرغم من أنها لم تذكر خارج ترهات يوسيف فلافيوس.**

بالطبع لم تكن التمردات على المحتل الإمبراطوري محصورة باليهود، فقد جرت عمليات كبيرة ضد القوات الإمبراطورية الرومانية في أكثر من مكان، لعل أكثرها فاعلية كانت تحركات العرب الأيطوريين الذين اتخذوا من منطقة عرقاتا (عرقة شمال لبنان) عاصمة لهم. وقد جرى التعتيم عليهم كثيراً، وحتى عندما جيء على ذكرهم، فقد وصفوا بأنهم قطاع طرق، أو أوباش، خصوصاً على لسان محرري الوثائق الكنسية المتعاطفة مع المحتل الروماني. ونتيجة للاهتمام المتزايد بتاريخ الجماعات اليهودية بعد إدماج العهد القديم بالكتاب المسيحي المقدس، واتخاذ تاريخ اليهودية السابق على المسيحية، على أنه الجزء المؤسس لها، خصوصاً فيما يعود إلى روايتي الخلق والطوفان، والآباء الأوائل لليهودية وأنبيائها الذين تبنتهم المسيحية كلياً، كما سيحدث لاحقاً مع الإسلام.

أما على الصعيد الفلسطيني، فقد كانت نتيجة التمردات والمشاغبات مصرع أعداد كبيرة من سكان فلسطين، إضافة إلى هجرة أو تهجير كبير، أهمها تهجير مجموعات من أتباع يوحنا المعمدان إلى الجزيرة الفراتية وجنوب العراق، كما هاجرت أعداد من اليهود إلى مصر وبابل والحجاز وأنحاء أوروبا. لذلك كان عدد اليهود، خلال القرن الأول المسيحي (قبل هدم الهيكل)،

خارج فلسطين أكثر من عددهم داخلها. ولأن اليهودية كانت منشغلة في تلك الحقبة بالشعب داخل الميدان الفلسطيني، (بتوجيه من الفرث غالباً)، وبمواجهة المسيحية داخل فلسطين وخارجها، فلا مجال للحديث إذن، عن إنجاز حضاري يهودي، «فكتابات فيلون هي نتاج التراث الهلليني ولم يكن لها تأثير يذكر في التطور اللاحق لليهودية، وكذلك تواريخ يوسيفوس. أما من ناحية الفنون، فلا توجد إنجازات معمارية تشكيلية ذات أهمية تذكر»[346].

بعد وفاة فسباسيان، استدعي ابنه تيتوس (79– 81) إلى روما، فدبت الفوضى مجدداً في فلسطين، وأخذت طابعاً دينياً، وقام تمرد آخر (115– 117)، وكانت المسيحية تنتشر بسرعة في أنحاء الشرق، وقد لعب الطابع الهلليني الذي اصطبغ به يهود الإسكندرية دوراً كبيراً في تهيئتهم لتقبل المسيحية، فانخرطت أعداد كبيرة منهم في الدين الجديد[347]، وفي ظل استمرار القلاقل حتى العام 124 ميلادي. وفي العام 132 قام شمعون بار كوخبا (الذي اعتقد الحاخامات أنه الماشيَّح) بتمرد دام حتى العام 136، ما أرغم الإمبراطور هدريانوس (117– 138) على القدوم شخصياً لإنهاء العنف، فنفى من أراد نفيه، ومنهم اليهود، وأعاد بناء مدينة القدس تحت اسم إيليا كابيتولينا، وأعاد بناء معبد جوبيتر الذي سيصبح كنيسة القيامة. وأصدر بياناً منع فيه اليهود من السكن في القدس، هذا القرار الذي سوف يجدده هرقل بعد انتصاره على الساسانيين عام 627م[348].

ولأن اليهود يرفضون التعلم من التاريخ، ويصرون على ملء أذهان أجيالهم بالترهات التي تؤدي إلى استمرار تبعيتهم الذهنية إلى حاخاماتهم من أجل استلابهم واستغلالهم، فإنهم يعزون دمار الهيكل الأول إلى خرافة أن يرمياه قد ترك يروشلايم وذهب إلى أرض بنيامين، ولو أنه بقي فيها لما حدث خرابها على يد نبوخذ نصّر. أما الخرافة الأخرى فتعزو دمار الهيكل الثاني إلى وشاية بار قمصا الذي دعي عن طريق الخطأ إلى وليمة رجل ما، فأهانه الرجل، ما تسبب بحنق بار قمصا والوشاية باليهود أمام الملك الروماني، فحدث ما حدث لهم!

طوال هذه الفترة كانت قضية مقتل يسوع الناصري ما زالت تتداعى، وكان انتشار المسيحية يسير بسرعة لم تتوقعها السلطات الإمبراطورية في فلسطين، وقد وصلت تداعياتها إلى روما. لذلك كان لا بد من فعل شيء يبدل في سير الديانة الجديدة، طالما لم يكن بالمستطاع وقفها بالرغم من مصرع ملهمها، وبالرغم من التصفيات والمجازر التي كانت تجري بحق المؤمنين بالتبشير الجديد. كان على أحدهم أن ينفذ المهمة، وكان اليهودي المتهلنس شاؤول الطرسوسي رجل المهمة، لأنه كان على إلمام كبير بظروف الجماعة المسيحية، وخصوصاً وأنه كان المكلف من قبل سلطات الإمبراطورية، ومن قبل الكهنوت اليهودي على السواء، بوضع حد لانتشار ظاهرة المسيحية، ففشل

في الأولى، ولكنه نجح في مهمة السيطرة على الجماعة من داخلها. فقد أعلن أن رؤيا نزلت عليه في الطريق، تدعوه إلى الدخول في الدين الجديد وهو يقود جماعة من المؤمنين من طرسوس لإعدامهم في دمشق، وهذا ما حصل، فقد صار شاؤول رسولاً للمسيحية، وبدل اسمه إلى بولس، ووصل بدعوته إلى روما.

بالنسبة إلى تداعيات المسيحية بالنسبة إلى اليهودية، لم تكن ملاحظة أرنولد توينبي في محلها على المدى البعيد، حيث يقول: «إنه من سخرية القدر أن شعب الجليل الذي تهود بالقوة أنجب يسوع المسيح الذي عارضه زعماء اليهود في ذلك العصر مما أضاع على اليهودية مستقبلها». **والحقيقة أن اليهودية تسللت برؤيا إلى قلب المسيحية منذ نعومة أظفارها، فغيبت الكثير من نهج المؤسس الفعلي، لمصلحة روايات وتهويمات لا تهتم للجمهور ولا للرؤى السامية التي ثار لأجلها المؤسس.** والحقيقة أيضاً، أن تماهي السلطان الإمبراطوري بكل أشكاله مع الكهنوت اليهودي، المتهلنس على وجه الخصوص، في موقفه تجاه دعوة المسيحية، ترافق مع العمل الحثيث على إبقاء اتجاهات هذه الدعوة ضمن حيز المراقبة والسيطرة، إلى الوقت الذي كان ادعاء الإيمان بهذه الديانة أصبح ضرورة حيوية، تؤمن استقرار السيطرة الإمبراطورية دون نتائج سلبية على المصالح الكبيرة لها.

ولأن اليهودية ضمن الجغرافيا الفلسطينية قد أثارت المتاعب للسلطات الإمبراطورية كما رأينا، فقد كان لزاماً عليها السكون بأية وسيلة. أما خارج هذه الجغرافيا، فقد ثبت أن الممالك الهللينية والجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية أتاحت حرية لليهود المتهلنسين، خارج المركزين اليهوديين الأساسيين داخل فلسطين، رافقها «إبداع أدبي مكتوب باليونانية، ما لبثت اليهودية أن رفضته بمجمله فيما بعد، وقد حفظت المسيحية بقاياه[349]. كما كان نشوء المسيحية في حدّ ذاته، ممكناً بسبب هذه الحرية النسبية في المجتمعات اليهودية.. **ولكن هذا التسامح لاقى نهايته في حوالى العام 200 م، عندما أقدمت السلطات الرومانية، على فرض الديانة اليهودية على اليهود كافة في الإمبراطورية[350] وبحسب ما كانت هذه الديانة قد تطورت وشرحت في فلسطين»**[351].

تاريخ الجماعات اليهودية بعد سقوط الهيكل الثاني

بعد سقوط الهيكل الثاني يصبح الحديث عن اليهود بشكل عام داخل إطار تاريخي موحد أمراً مستحيلاً. حيث يحل مصطلح «تواريخ الجماعات اليهودية» مكان مصطلح «تاريخ اليهود»،

لأن الجماعات اليهودية المتفرقة كانت مستقلة عن أي مركز ديني أو سياسي موحد، ومرت كل جماعة منها بظروفها التاريخية وحركيتها المستقلة عن ظروف وحركيات الجماعات الأخرى، وتخضع في تفسير سلوكها لدراسة المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه، أو على هامشه. أما على صعيد القيادة الذاتية لكل جماعة يهودية، بعد غياب القيادة الحشمونية، «فقد استمر «ناسي–بطريرك» اليهودي تحت حكم الرومان، و«رأس الجالوت» تحت حكم الفرس، في إدارة شؤون الجماعة، بالنيابة عن السلطة الحاكمة، وقد ادعى بعضهم أنه من نسل داود، ليكتسب قدراً من الشرعية، ولكن هذه الشرعية ظلت شرعية دينية لا تحمل أي مضمون سياسي. وقد واكب هذا ظهور اليهودية الفريسية التي حاولت أن تطرح صيغة جديدية لليهودية تفصل الدين عن الدولة أو عن القومية، كما تفصله أيضاً عن المكان (الهيكل)، ولا تفصله عن الإثنية. وقد انعكس هذا الاتجاه في الاهتمام بتدوين المشناه[352]، وفي البدء بكتابة الجماراه[353] (وهما القسمان المكونان للتلمود)، كما يتضح هذا الاتجاه في ظهور المعابد اليهودية المستقلة عن الهيكل والعبادة القربانية»[354].

وبناءً على ما تقدم، يمكن تقسيم تواريخ الجماعات اليهودية إلى مراحل تاريخية تنقسم بدورها جغرافياً (مناطق)، وتاريخياً (فترات)، هي: مرحلة القرون الوسطى حتى القرن الخامس عشر؛ بعد القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر، عصر النهضة والاستنارة في الغرب والعثمانيين في الشرق؛ وما بعد عصر النهضة.

مرحلة القرون الوسطى حتى القرن الخامس عشر

في العام 325 ميلادي تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية بفرمان صادر عن الإمبراطور قسطنطين، وقد توج ذلك الإرهاصات الرومانية للحاق بإيمان الجمهور المتسارع في أنحاء الإمبراطورية، وتزامن مع بعث الزرادشتية في الإمبراطورية الفارسية منذ القرن الثاني. **في هذه المرحلة تولى الكهنة والأثرياء اليهود قيادة جماعتهم، وكانت هذه القيادات تضطلع بأعباء دنيوية ودينية متعددة في ظل النظام الحاكم للدولة حيث توجد الجماعة، شأن الجماعات والطوائف الأخرى غير اليهودية. وقد لعبت الجماعات اليهودية في الغرب خلال القرون الوسطى، أدواراً وظيفية داخل البلاطات الحاكمة، أو في الترجمة والكتابة، إضافة إلى عملهم الأساسي في التجارة والربا.**

أما من الناحية الثقافية لدى الجماعات اليهودية، **فقد سيطر التلمود، في هذه المرحلة، بصفته كتاباً مقدساً يفوق أهمية التوراه ذاتها، ولم يكن للسياسة إلا أن تأخذ دورها، حيث إنه**

و«**في الوقت الذي كان التسافورائيم (المفسرون) البابليون يقومون بوضع اللمسات الأخيرة على عملية جمع التلمود وتنقيحه، إذا بالإمبراطور يوستينيانوس (527- 565 م) يصدر مرسومه ضد إلغاء الترجمة اليونانية للكتاب المقدس اليهودي المقامة في الكنس اليهودية.** فكان هذا المرسوم، الذي أملاه التعصب المسيحي والمشاعر المعادية لليهودية، فاتحة للحملات على التلمود، الذي اتخذ منه موقفاً مشابهاً» [355] فيما بعد.

أما في بداية العصر الإسلامي، حيث كان اليهود يعتبرون أهل ذمة، **ولأنهم كانوا يعملون بالتجارة والربا الذي حرم عليهم، فقد تحولت الجماعة اليهودية إلى جماعة وظيفية، تعمل في الترجمة والطب وفي الدواوين.** «ولكن، نظراً لوجود طبقة مهمة من التجار المسلمين، لم يكتسب اليهود القدر نفسه من التميز الوظيفي الذي اكتسبوه في الغرب»[356]. **وبسبب مركزية المملكتين الأموية والعباسية، كان اليهود ضمنهما أقرب إلى تشكيل جماعة واحدة منها في الغرب الذي كان منقسماً إلى دول إقطاعية متناحرة، حيث شكل اليهود جماعات متفرقة ضمن الممالك الإقطاعية.**

ابتداءً من القرن التاسع، بدأت تظهر حركات وكتب صوفية حلولية كمونية، كما ظهرت حركة القرائين العقلانية المحتجة على الحاخامية، متأثرة بحركة المعتزلة في العصر العباسي. أما أعمال اليهود الثقافية في العصر الأندلسي فاقتصرت على مؤلفات في الفقه اليهودي (موشيه بن ميمون، وراشي) ولم يكن لها أهمية تتعدى مضمار اليهودية، وكذلك شارك اليهود في حركة الترجمة بين اللغات. ويلاحظ نمط انتشار اليهود من البلدان المتقدمة اقتصادياً في غرب أوروبا ووسطها، نحو شرقها الأقل تقدماً **من أجل الاستفادة من عمليات التطوير التي تحتاج إلى القروض ودور الوسيط المالي الذي يتقنه اليهود،** ولكن هذه الوظيفة توقفت مع طرد يهود المارانو من إسبانيا، وانتشارهم في مدن البحر المتوسط وأرجاء السلطنة العثمانية[357].

* * *

التأثيرات الفكرية اليهودية على المسيحية

ما ساعد على استمرار روايات التوراه في تضليلها للناس على أنها تأريخ، هي عمليات الإتلاف المستمرة لوثائق التاريخ، أو التغطية عليها بسبب كونها تخالف النص الديني التوراتي في العهد القديم أو الإسرائيليات عند رواة الحديث المسلمين. فقد أحرقت مكتبة الإسكندرية على يد

الإغريقي يوليوس قيصر (سنة 48 ق. م) وإحراق مكتبة صور على يد الإمبراطور قسطنطين بذريعة أنها تراث وثني، كما أتلفت مكتبة الإسكندرية مرة أخرى على يد عمرو بن العاص (642م) على أساس أن القرآن يكفي عن كل العلوم، فإذا ما في المكتبة في القرآن فلا داعي لتكراره، وإن كان لا فلا حاجة للمسلمين به، كما أحرقت مكتبة الحكمة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي[358]، وأقفل الأزهر كمنارة للعلم بأمر منه لمئة عام. ثم جاء المغول على مكتبات بغداد لأنها تعني مصدر قوة العرب، إضافة إلى السرقات وحروب الإنكليز والفرنسيين والعثمانيين وأخيراً الصهاينة والأميركيين. وبالرغم من كل هذا فقد ظهر ما يكفي من الوثائق التاريخية التي كذبت الروايات التوراتية بما لا يدعو للشك، وأعادتها إلى أصولها السومرية والكنعانية والفينيقية والآشورية والبابلية والفارسية التي نحلت منها. **كل هذا التدمير الممنهج لوسائل العلوم، أفسح المجال للكتاب الوحيد (العهد القديم) الذي بقي في منأى عن الإتلاف، وبالتالي أصبح في متناول القيمين عليه الادعاء بتاريخيته، ولجوء الآخرين إلى الغرف من خرافاته، وحشو أفكار المؤمنين، بل والمتعلمين بروايات دمر ما يمكن أن يناقضها، أو يفصح عن الحقيقة التي غطي عليها في غياب التنقيب الأثري.**

وبما أن القرآن يتحدث عن زيف التوراه الموجودة، ويتحدى أحبار اليهود أن يظهروا كتابهم، إلا أن الإخباريين الإسلاميين أول من اعتمد ترهات التوراه والتلمود ككتب ومراجع تاريخية في تفسير أحاديث القرآن، عن قصور أو عن تآمر، حيث لم تكن للكرونولوجية التأريخية أية أهمية عندهم، بل كانت الذرائعية والتسرع في رفد الفراغات في النصوص بروايات جاهزة من التوراه والتلمود، ولم تكن التنقيبات بعد قد كشفت أن هذه الروايات هي منحولة عن «أساطير الأولين». ومعلوم أن «التاريخ عند المسلمين هو تاريخ ثقافي سردي، غايته العبرة والعظمة.. بينما أراد النص التوراتي اليهودي لتلك القصص أن تحمل بعداً تاريخياً أيديولوجياً الغاية منه امتلاك الأرض والتاريخ، وتأكيد شرعية ملكية اليهود التاريخية للأرض المتنازع عليها»[359]. **فعليه، يكون المحدثون المسلمون قد قدموا خدمة غير مسبوقة للصهيونية بالمساهمة في ترسيخ التزييف التوراتي سبقهم عليها المسيحيون الذي دمجوا التواره (العهد القديم) بالإنجيل (العهد الجديد)، وأسبغوا عليها من القداسة بحيث أصبح كل تشكيك بتلك الروايات يستجلب الإدانة.**

وقد استعملت روايات التوراه وبعض روايات التراث العربي الحنيفي، وأضيف إليها من مخيلة المحدثين، لسد الثغرات التاريخية أو الروائية التي لم يكن من المتاح الإجابة عليها في حينها. **«وقد جرى تعرض التراث أو التصور الحنيفي العربي إلى الاختراق، والبعثرة، وتشتيت تماسكه، في**

صدر الإسلام بعد إدخال التراث والتصور اليهودي التوراتي في التراث والتصور العربي الإسلامي، على يد اليهود الذين أعلنوا إسلامهم (كانت الرواية جاهزة لديهم، والإرادة كذلك)، وعلى يد الإخباريين المسلمين في مرحلة لاحقة»[360].

وما هو أخطر من هذه الأمور، هو ربط العرب بالسلالة الإسرائيلية، من خلال نسبهم إلى يشمعيل (على أنه الأب الأول للعرب) المتحدر من أبرام التوراتي، كما جرى ربط عيسى الناصري وتلاميذه بتلك السلالة أيضاً، حيث القول بأنه ولد من عائلة يهودية، وكان يعرف الأسينيين، إن لم يكن عضواً منهم. وكان متّى يعتقد أن يسوع هو المسيح الذي بشر به أنبياء العهد القديم، وجرى تصويره كمتمم للناموس التوراتي وليس ناقضاً له، وأن حركته أتت لإقامة مملكة الله على الأرض تحقيقاً لنبؤة التوراه! ومن الممكن أن تكون أقوال جديدة نسبت إليه بعد موته، إلا أن حركته الإصلاحية استهدفت في الأساس السلوك اليهودي العام في فلسطين ذلك الزمان. ومن هنا القول المنسوب إليه: «لقد جئت للخراف الضالة من بني إسرائيل» و«لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم الكل». وبما أن الاعتقاد أن الانفصال مع اليهودية جرى في مجمع أورشليم الأول سنة 48 ميلادي[361]، إلا **أن الواضح أن المسيحية عادت لتأخذ اليهودية كمرجع لها، بعد دخول شاؤول في الكنيسة. إلا أن العودة إلى العهد القديم ازدهرت بعد تنصر الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الرابع للميلاد، وقيام جيرونيموس**[362] **بترجمة جميع أسفار العهد القديم إلى اللاتينية، لتصبح النص المعتمد عليه في الكنيسة الغربية**[363]، إضافة إلى أن آباء الكنيسة الأوائل اعتمدوا العهد القديم كمرجعية وجزء أول من كتاب المسيحية المقدس! ولا يجب أن ننسى ذكر صراعات المسيحيين الأولين حول الختان وغيرها من عادات اليهود، ثم الخلاف بين بطرس وشاؤول، ثم الصراعات بين المذاهب المسيحية وما تبعه من مجازر وقتل ونفي، لندرك أي تيار من هذه التيارات سيطر على الفكر المسيحي.

بالرغم من فشل المنقبين الأثريين والمؤرخين الغربيين في البرهنة على صدق أي رواية من روايات التوراه، وبالرغم من الجهد الهائل الذي بذلوه في التنقيب وفي محاولة التزوير التي أرادوها عبر ربط اعتباطي لبعض أحداث التاريخ ببعض الروايات، ما أثبت لاحقاً عدم صحته، والدفع بهؤلاء المؤرخين للاعتراف بأن كل تلك الروايات ليس لها أي أساس تاريخي، ومن هؤلاء أولبرايت وتومسون وكينيون وغيرهم. بالرغم من كل هذا ما زالت الرواية التوراتية مترسخة في أذهان المؤمنين، كونها سردت على أنها تفسير ديني لروايات الكتب المقدسة للمسلمين والمسيحيين على السواء.

اليهودية في الإسلام (الإسرائيليات)

يقول الدكتور الذهبي: «إن لفظ الإسرائيليات – وإن كان يدل بظاهره على القصص الذي يروي أصلاً عن مصادر يهودية– يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه على ما هو أوسع وأشمل من القصص اليهودي، فهو في اصطلاحهم يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما»[364].

وهكذا استطاع معتقد اليهود أن يتمدد عبر الديانات الأخرى التي شكلت حاملة له عبر الأزمان، وخصوصاً في الإسلام الذي ندد باليهود ووصفهم بالأكثر عداوة للمؤمنين. ومع ذلك نجد أن روايات الكتب اليهودية هي التي تعتمد كتفسيرات للقصص القرآنية التي أوجزها من أجل العظة والحكم وأخذ العبرة، دون أن يولي الأسماء والأماكن أي اهتمام، إلا حيث استوجب الأمر.

وكان الحسن البصري (622م– 728م) أول من وضع كتاباً بتفسير القرآن وأدخل الإسرائيليات إلى الدين من خلال التفسير. فهو أول من تحدث عن هبوط آدم وحواء ودفنهما، وعن نوح وأبنائه سام وحام ويافث ونسلهم، وكل ذلك نقلاً عن التوراه[365].

وتقدر الباحثة د. أمال ربيع المدرس أنّ **عدد النصوص التوراتية الموجودة في تفسير الطبري المعروف باسم «جامع البيان في تأويل القرآن»، يصل إلى 344 نصاً وأثراً، نقلها الطبري عن 29 راوياً وعشرات المصادر والكتب بدءاً من أسفار التوراه وحتى كتب الأساطير التي وضعها أحبار اليهود.**

أما كيف دخلت الإسرائيليات في الإسلام، فتجيب الدكتورة أمال ربيع في مقابلة لها: إن الرواية اليهودية تسربت في مرحلتين: الرواية والتدوين. ففي مرحلة الرواية كانت نفوس الصحابة تتوق إلى معرفة تفاصيل بعض القصص المجمل في القرآن، والذي لم يسأل النبي فيه، فكانوا لا يتحرجون استناداً لبعض أحاديث النبي مثل (وحدثوا عن نبي إسرائيل ولا حرج)، وقوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»– في سؤال أهل الكتاب من جيرانهم فيما يتعلق بهذه التفاصيل التي لا تتعلق بحكم أو تشريع، وإنما هي تشبع الفضول الإنساني إلى المزيد من المعرفة. وفي عصر التابعين، حيث دخل كثير من أهل الكتاب في الإسلام، **وحيث التساهل مع اتساع تمدد الإسلام، زادت رواية الإسرائيليات نتيجة محاولة بعض المفسرين سد الثغرات فيما لا يعرفونه من تفاصيل.** تحرجاً من اختصار القرآن في مقابل تفاصيل الرواية في الكتب اليهودية. **وبعد ذلك أصبحت هذه**

التفسيرات مسلمات لا يمكن مناقشتها، ولم يقتصر الأمر على روايات اليهود، بل تجاوزها إلى الخرافات والأساطير التي أصبحت جزءاً من التراث الإسلامي، يجري تداولها دون حرج أو تساؤل عن مدى مطابقتها للمعتقد أو للمنطق.

أما في مرحلة التدوين، فتقول الباحثة نفسها: إنه بدأت بالنقاء شبه التام من الإسرائيليات نتيجة التزام السند، والتشدد في قبول الرواة، **وبعد الانفصال بين تدوين التفسير وتدوين الحديث، وحذف الأسانيد كثرت الإسرائيليات وزادت الخرافات التي لصقت بالتفسيرات، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها**[366].

ومن أهم التفسيرات اليهودية لقصص القرآن قصة استراحة الله في اليوم السابع، وتفصيل قصة بشارة أبرام التوراتي بالتناسل، وقصة هلاك قوم لوط، إضافة إلى الروايات التي تنسب مظاهر الفساد إلى الأنبياء الذين وردت أسماؤهم في القرآن، مثل قصة داود التوراتي مع زوجة أوريا الحثي، وخداع يعقوب وأمه لأخيه عيسو، وقصة أبرام مع فرعون مصر وإبيمالك حين تخلى عن زوجته وادعى أنها أخته، وفحش ابنتي لوط اللتين أسكرتا والدهما وجامعتاه، إضافة إلى صناعة العجل الذهبي على يد هارون، ورواية هجوم يوشع على أريحا والمجازر التي ارتكبها، ثم قصص السبي اليهودي، وتمجيد العنصرية والكراهية والإبادة اليهودية بذريعة كونها ناتجة من إرادة ربانية، من إله عنصري لشعب مختار..إلخ من مسائل مشابهة أساءت إلى مفهوم القداسة القرآني، وأدخلت مفهوم الانتهازية والغائية إلى تفسيرات آيات القرآن، من أجل ترسيخها في نفوس المسلمين البسطاء. وكل ذلك يأتي بالرغم من كون سورة الإسراء تندد وتتوعد اليهود، وتحذر من مكرهم في المستقبل وتتوعدهم بالتدمير في كل مرة يعودون فيها إلى سابق عهدهم. ومع ذلك سيطرت رواياتهم على عقول المؤمنين، وكذلك أساليبهم في التدمير والإبادة وهتك الحرمات والاغتصاب والكره والتكفير، واتخذت قدوة من بعض الفرق الإسلامية كونها استعملت من قبل أنبياء شعب الله المختار!

* * *

تهود مملكة الحميريين

إذا أردنا أخذ الانتشار اليهودي عبر العالم، والادعاء باتصال العنصر اليهودي بسلالة يعقوب فهو ادعاء واهٍ لا يصمد أمام أي بحث جدي. فإذا أخذنا يهود اليمن على سبيل المثال، وإن

كان بينهم في الأصل بعض الجماعات التي تتصل بالعرق القديم المدَّعَى، **فإن أغلبيتهم قد تهودت بعد قرار الملك اليمني تبع أسعد كرب في القرن الرابع الميلادي، حيث الحياة الاقتصادية والتجارة رائجة في بلاد اليمن، وقد حاول اليهود بحكم الحس التجاري عندهم التغلغل في تلك البلاد، فعملوا للتقرب من الملك (تبع بن أسعد كرب) ملك الحميريين، وبعد أن أوضح حبران من أحبار يثرب مدى الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها من جرّاء تهوّده، اعتنق تبع اليهودية، وأدخلها إلى اليمن في القرن الرابع الميلادي بالقوة والإجبار[367]، وقد استكمل التهود على يد ذي نؤاس الحميري أوائل القرن السادس الميلادي، والذي عمد إلى إجبار المسيحيين على اعتناق اليهودية، وقام بإحراق الرافضين لهذا الأمر.**

والحقيقة أنه بعد اكتشاف طريق الملاحة البحرية في المحيط الهندي بين الهند وإفريقيا، كان الحميريون في اليمن يستخدمون هذه الطريق في تجارتهم منذ ما بعد القرن الأول الميلادي. وبنوا لذلك مدناً ساحلية تعبر خلالها البضائع نحو بيزنطة، وكانت الحبشة الواقعة على المقلب الآخر للبحر الأحمر واقعة تحت التأثير البيزنطي، وكانت رسمياً على مذهب المسيحية، وعبر الحبشة كانت بيزنطة تنوي السيطرة على طرق الملاحة هذه، واستخدمت الدين جرياً على العادة. «أخذ الأحباش يشنون الغارات على مواقع الحميريين في اليمن تحقيقاً لمطامع السياسة البيزنطية باسم المسيحية، واتخذ الدين سلاحاً لكسب مسيحيي اليمن كحلفاء للحبشة. وقد كان رد الحميريين على ذلك أنهم أخذوا يعملون لنشر اليهودية في بلادهم. ومن هنا أصبحت اليهودية سلاحاً **سياسياً أيضاً لمحاربة المسيحية بوصفها وسيلة لسياسة الأحباش»[368].**

أما السبب الحقيقي الآخر في تهوّد الحميريين، فهو حاجتهم إلى عقيدة محايدة بين قوتي الصراع الأساسيتين، الساسانيين (الزرادشتيين) من جهة، والبيزنطيين (المسيحيين) من جهة أخرى، خصوصاً وأن البيزنطيين عقدوا تحالفاً منذ معركة الأكسيوم في الحبشة مع ملوكها (المسيحيين)؛ وحاجة الحميريين في مجابهة ملك الأكسيوم إلى المال والجواسيس، الوظيفة التي طالما أبدع فيها اليهود واستغلوا بها القوى السياسية منذ زمن أرتحشتا أقلّه! «وكان الأباطرة البيزنطيون يشجعون الأحباش ويحرضونهم على فتح البلاد العربية الجنوبية للمزايا التي سيحصلون عليها، إلى أن فتح الأحباش اليمن، ودخلت البلاد في النصرانية... واتخذ الأحباش الدين وسيلة لكسب نصارى اليمن كحلفاء لهم. وكان رد الحميريين على ذلك أنهم أخذوا يعملون لنشر اليهودية في البلاد[369]. وقد أصبحت اليهودية هي الدين الرسمي لمملكة حمير حتى زمن ذي نؤاس، ويُقال له «المسروق». وقد أورد المسعودي والطبري وقائع حياته. وذو النؤاس أحد ملوك حمْير (في

جنوب الجزيرة العربية – اليمن حالياً). ويُقال إنه تَهوَّد قبل أن يعتلي العرش (وأضاف اسم يوسيف العبري إلى اسمه العربي) ونجح في توحيد أعضاء النخبة الحاكمة ورؤوس العائلات الأرستقراطية في حمْير، من أهمها عائلة ذي يزن. وقد حاول ذو نؤاس أن يضمن ولاء كل المدن والمناطق التابعة له. وقد استولى الثوار المسيحيون على العاصمة الحمْيرية عام 517. فجمع ذو نؤاس قواته وأنزل بهم هزيمة ساحقة وحطم كنيستهم كما ألحق الهزيمة بالقوات الحبشية في العام التالي. وقد شك الملك في ولاء السكان المسيحيين في نجران حيث اندلعت الثورة فهاجمها ونَكَّل بأهلها وذبح منهم المئات أو الألوف[370]. **وكان ذلك ذريعة للتدخل الخارجي في اليمن حيث جرد الإثيوبيون حملة عبرت البحر الأحمر بقيادة أرياط (أرتياس) وأبرهة (أبراميوس) للسيطرة على اليمن، سنة 525، ما أدّى إلى مقتل ذي نؤاس.** ولكن الثابت تاريخياً، يقول المسيري، إن عدد المتهودين في حمْير كان صغيراً للغاية حتى بين أعضاء النخبة، ومن ثم لم يحدث أي انتشار لليهودية في هذه المنطقة. ويكون من الشطط الحديث عن مملكة حمْير اليهودية[371]. وهناك قبائل يهودية عربية من أقحاح العرب منها نضير وهي فخذ من جذام، وبنو قريضة فخذ من جذام الذين تهودوا أيام عادية بن السموأل[372] الشاعر العربي المعروف بشهامته. وتهودت قبائل عربية غير تلك مثل الأوس وبني كثانة وكندة وبني ركاب وقبائل بربرية مثل جرادوة ونفوسة وبهلولة وبني بازار ومديونة.

* * *

خزاريا اليهودية

الخزر هم خليط من عشائر المغول والتركمان استقروا حول بحر قزوين فسمي باسمهم. وكان هؤلاء الأتراك الطورانيون يلعبون منذ القرن الثالث للميلاد على طرف الصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية على أرمينيا. وهناك اعتقاد قوي بأن الخزر هم من مخلفات حملات الهون التي ضمت إليها جماعات أخرى. وقد أدى موت أتيلا إلى ظهور فراغ كبير وهو ما يفسِّر عملية ظهور الخزر باعتبارهم قوة في المنطقة التي شغلوها، فقاموا بصهر واستيعاب وقهر بعض القبائل التركية الأخرى، ثم هزموا البلغار في نهاية الأمر واضطروهم إلى الهجرة... ولكن قبل استقلال الخزر الكامل في المملكة، كانوا يشكلون جزءاً من الإمبراطورية التركية الغربية التي استمرت حتى العام 650 م. حيث صارت كلمة تركي تشير إلى الأتراك دون غيرهم. وتطلق

التواريخ الروسية المعاصرة على الخزر مصطلح «الأوجاريين البيض»، مقابل «الأوجاريين السود»، وهم الهنغار أو المجريون.

ومع انتصار العرب على الفرس واندفاعهم نحو أرمينيا، تحالف الخزر مع الروم، وكانت أول حرب قامت بين العرب والخزر بين 642- 652 على زمن عمر بن الخطاب الذي أمر باحتلال عاصمتهم «بالانجار»، ففشل العرب في ذلك. أما الحرب الثانية فوقعت بين 722- 737 وهزم فيها الخزر على يد مروان بن محمد (مروان الثاني الأموي)، وترك على إثرها خاقان الخزر ديانته الشامانية[373] وأسلم ظاهرياً، لكنه ارتد فيما بعد. ونقل الخزر عاصمتهم إلى «أتل» عند مصب الفولغا حسب المسعودي[374].

بعد سقوط خزاريا بيد العرب، فتحت البلاد أمام التجارة، «فكان يؤمها التجار من البلدان المجاورة، ولا سيما التجار اليهود الكثيرون المطرودون من القسطنطينية، ينافسون المسلمين والمسيحيين في استمالة الشعب الخزري الوثني لإخراجه من وثنيته، وجهد اليهود في تمهيده مرتعاً لهم، حتى تم لهم الفوز سنة 740»[375]. مستغلين الصراع الأموي العباسي.

توسعت مملكة الخزر حتى أصبحت إمبراطورية، وامتدت من بين جبال الأورال، وسيطرت على القرم وأوكرانيا إضافة إلى مناطق جورجيا وأرمينيا وآذربيجان وتوركمانيا وأوزبكستان، وكان يحكمها ملك يسمى خاقان، وكانت على نزاع مع الروم والروس. لذلك **فكر الخاقان بولان خلال القرن التاسع أن يختار ديانة مستقلة عن بيزنطة وروسيا والمسلمين، فتبنى الديانة اليهودية، بتأثير من التجار اليهود وأموالهم.** ويقول المسعودي: «وقد كان تهود ملك الخزر في خلافة الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (هجرية) وهو أرمنوس نقل من في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم»[376]. وبعد موت بولان استجلب خلفه عوباديا مدرسي التوراه والتلمود، وبنى الكنس، وهكذا ازدهرت اليهودية في خزاريا، وتوسعت المملكة لتصبح على زمن حفيده الملك يوسيف دولة مترامية الأطراف، تصل ما بين البحرين الأسود وقزوين، ومن القوقاز إلى الفولغا في روسيا. **وهي تعتبر من أهم عوامل توقف المد العربي شمالاً باتجاه أوروبا الشرقية، وجعلت الإسلام يتوقف عند تخوم القوقاز، ومنعته من التوغل في أوروبا من جهة الشرق، في الوقت الذي كان شارل مارتل يصد هذا التمدد عند تخوم فرنسا.**

ويقول بنيامين فريدمان، استناداً إلى الموسوعة اليهودية[377] وغيرها، «إنه امتزجت حياة شعب الخزر وتاريخه بالبداية الأولى لتاريخ يهود روسيا، وإن إكراهه القبائل البدوية في السهول من جهة، وتوقه إلى السلب والانتقام من جهة أخرى، دفعه إلى توطيد أسس مملكة الخزر في معظم أجزاء روسيا الجنوبية، قبل قيام الفارانجيين (سنة 855م) بتأسيس المملكة الروسية، حين كانت مملكة الخزر في أوج قوتها تخوض غمار حروب دائمة. وعند نهاية القرن الثامن تحول ملك الخزر ونبلاؤه وعدد كبير من شعبه الوثنيين إلى الديانة اليهودية. ويبدو عند حوالى القرن التاسع، أن جميع الخزر أصبحوا يهوداً، وأنهم اعتنقوا اليهودية قبل وقت قصير فقط»[378].

في العام 965م استطاع أمير كييف فياتوسلاف من الانتصار على ملك خزاريا، ما قلص حدود هذه الإمبراطورية، داخل حدود المملكة الجغرافية على قزوين. ومع اعتناق الأمير الروسي فلاديمير المسيحية، صارت خزاريا بين فكي كماشة روسي بيزنطي. وظل الروس والبيزنطيون يضيقون عليها ويستنزفونها حتى سقطت خلال القرن الثاني عشر[379]، وهكذا هاجر اليهود فيما يعرف بـ «الشتات الخزري» إلى أنحاء أوروبا، خصوصاً بلغاريا والمجر وروسيا ورومانيا، وبقية أوروبا الغربية، وإلى بولندا بشكل أساسي، «وزاد انتشارهم غرباً على أثر غزوات جنكيزخان التتري بين سنتي 1162 و 1227»[380]. يساعدهم في نزعة الهجرة اشتغالهم بالتجارة والربا، وليس العمل الزراعي الذي يستوجب الاستقرار.

يعزى تهود مملكة الخزر إلى موقعها الاستراتيجي، حيث كانت تتحكم في الطرق التجارية الموصلة بين الشرق الأقصى وبيزنطة، وكذلك بين العرب والبلاد السلافية، وتقع كمجتمعات وثنية شامانية بين إمبراطورية الإسلام وإمبراطوية بيزنطة المسيحية. **ويبقى تهوّد مملكة الخزر من أبرز حالات التهود في التاريخ، وكان لها الأثر البارز في مصير اليهود إلى يومنا هذا.**

ومن تداعيات تهود الخزر، أنه في القرن الثاني عشر بدأت أول حركة صهيونية على يد سليمان بن دوجي الخزري الذي ادعى أنه النبي إيليا، وولده مناحيم الذي اعتبر نفسه «المخلص» واتخذ لنفسه اسماً هو داود الروي. وقد أطلق الكاتب آرثر كوستلر في كتابه إمبراطورية الخزر، على هذه المحاولة **«حركة للخلاص، وكانت محاولة بدائية اصطبغت بالصليبية اليهودية، واستهدفت استعادة فلسطين بقوة السلاح»**. انتقل مركز هذه الحركة إلى كردستان حيث أمل داود هذا بمساعدة اليهود المحليين، وقد أسس فرقة مسلحة قرب الموصل، لتشق طريقها نحو القدس عبر سورية، **وهو أول من اعتمد النجمة السداسية شعاراً**. ويعتقد بأن هذه الحركة تعتبر رداً على فشل

الحملات الصليبية في مهمتها. وقد أرسل داود أحد رجاله إلى بغداد، ليدعو اليهود هناك إلى الصعود ذات مساء فوق أسطح بيوتهم لنقلهم إلى القدس فوق بساط الريح، إلا إن داود قتل على يد صهره بتشجيع من الوجهاء اليهود في العراق، ليسلموا من مغبة حركته.

* * *

الجماعات اليهودية منذ القرن الثالث عشر

شهدت بداية العصور الوسطى في الغرب (القرن الرابع ميلادي) شيئاً من الاستقرار النسبي بالنسبة إلى الجماعات اليهودية في الغرب المسيحي ثم في الشرق الإسلامي بسبب استقرار الأحوال السياسية والاقتصادية فيها. وبدأ نمط الهجرة في هذه الفترة يتضح، أي الهجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة، وقد كانت أوروبا من أكثر المناطق تخلفاً في العالم آنذاك. وكانت توجد ثلاثة خطوط أساسية للهجرة إلى أوروبا: من فلسطين إلى جنوب إيطاليا ومنها عبر جبال الألب إلى فرنسا وألمانيا، ومن الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) عبر وادي الدانوب إلى وسط أوروبا، ومن العراق ومصر عبر المغرب إلى إسبانيا. وهكذا انتقلت الكثافة السكانية اليهودية (عامي 500 ق. م– 1000 م) من الشرق الأوسط إلى أوروبا[381]. **والمهم الإشارة إلى أن الهجرة تستهدف المناطق التي تؤمن مردوداً اقتصادياً أفضل، حيث الاقتصادات المتخلفة تكون ربحية التجارة فيها أعلى، وكذلك البلدان في فترة انتقالية بيع عصرين، تحتاج إلى خبرات وتمويل يؤمنه المرابون اليهود، كما سنرى.**

الاضطهاد الأوروبي لليهود

في مرحلة تحضيرية للسيطرة الفكرية اليهودية على العقلية البراغماتية الأوروبية (المسيحية)، كان اهتمام السلطات بالكتب والنشاطات اليهودية، ما سوف يؤدي إلى التأثر بما في هذه الكتب، خصوصاً عندما كان المال اليهودي مواكباً لعملية الاهتمام هذه، سلباً أو إيجاباً. وما هو جدير بالذكر في هذا المضمار، هو اهتمام السلطات الأوروبية بعمليات الكتابة والتجديد التي خضع لها التلمود اليهودي، وما يحمله من مكونات عنصرية وكراهية أدت إلى وضعه تحت المراقبة والمنع، خصوصاً في مرحلة كانت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا تسيطر على الحياة العامة وتحصي الأنفاس. «وأدت التهم الملقاة على التلمود من قبل اليهودي المرتد نيكولاس دونين إلى قيام المناظرة

العلنية الأولى ما بين اليهود والمسيحيين، وإلى أول عملية حرق لنسخ من التلمود (في باريس بساحة جنيف عام 1244م). وأيضاً كان التلمود موضوعاً لمناظرة أخرى في برشلونة عام 1263م ما بين الحاخام موشيه بن نحمان (نحمانيدس) وبابلو كريستياني.. كما قام كريستياني المذكور بحملة على التلمود، ما أسفر عن أمر رسمي بابوي ضده، وعن أول قانون رقابة عليه، تم تنفيذهما في برشلونة على يد هيئة مفوضة من الآباء الدومينيكان، الذين أمروا بحذف مقاطع يشجبها المنظور المسيحي (عام 1264م)[382]. أضف إلى ذلك مناظرة طرطوشة بإسبانيا عام 1413، حيث طرح إيرونيمو دي سانتافيه طائفة من الاتهامات، بما في ذلك التأكيد القاطع على أن إدانة الوثنيين والكفرة المرتدين المنصوص عليهم في التلمود إنما المقصود بهم في الواقع المسيحيين. وبعد عامين قام البابا مارتينوس الخامس، بإصدار أمر بابوي يحرم فيه على اليهود قراءة التلمود، ويأمر بإتلاف نسخه كلها»، إلا أن الأمر لم ينفذ.

لم يكن الأمر دينياً محضاً كما يظهر للوهلة الأولى، ولكن الأمور الاقتصادية تدلي بدلوها حتى في الأمور الدينية، وعليه، نرى أنه «ومع إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي في المجتمع الغربي في القرن الحادي عشر، ومع ظهور طبقات من التجار والممولين المسيحيين، تم طرد اليهود من إنكلترا في عام 1290 (ويقال إن عددهم كان لا يتجاوز أربعة آلاف)، كما طردوا من فرنسا عامي 1306 و1394، فاستقروا في بادئ الأمر في ألمانيا وإيطاليا وشبه جزيرة إيبيريا، ولكنهم طردوا أيضاً من إسبانيا في عام 1492 ثم من البرتغال، فهاجروا أساساً إلى شمال إفريقيا وإلى إيطاليا وصقلية. كما هاجرت أعداد منهم (نصفهم كما يقال) إلى الإمبراطورية العثمانية التي كانت تشجع اليهود على الهجرة إليها لتنشيط التجارة. ولقد تدخلت بعض الدول الغربية لمنع هجرة اليهود منها خشية أن يؤدي ذلك إلى انهيار النظام المصرفي والمالي والتجاري، الذي كان اليهود يلعبون فيه دوراً أساسياً. وقد تلت هذه الفترة سقوط مملكة الخزر اليهودية حيث هاجر سكانها إلى المجر فبولندا. ومع أواخر العصور الوسطى، بدأت الإمارات الألمانية في طرد أعضاء الجماعات اليهودية. وقد ساهمت حملات الفرنجة، وهي تعبير عن إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي، في اجتثاث جذور أعضاء الجماعات في وادي الراين وغيره من المناطق، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بولندا، حيث لم تعد هناك جيوب متخلفة أخرى يستطيع اليهود التقهقر إليها، باعتبار الهجرة الوظيفية تقتضي أن تتم إلى المناطق التي توفر إمكانات مردود أفضل، وهذا ما ينطبق حينها على أوروبا الشرقية بالنسبة إلى الغربية المتطورة. وتجدر الإشارة إلى أن الهجرة كانت تتم بالتدريج وببطء شديد. وكثيراً ما كان اليهود المحليون

يتصدون لليهود الوافدين لأنهم يشكلون خطورة اقتصادية عليهم، فكانوا يمارسون حق حظر الاستيطان، كما كان يهود البلاط يمنعون هجرة أي يهودي إلى المنطقة التي يتولون قيادتها[383].

الجماعات اليهودية إبان عصر النهضة في الغرب

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد بأن الله قد عاقب اليهود على صلب المسيح بطردهم من فلسطين إلى بابل، وعليه تكون ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهت، وأن النبوءات الدينية التي تتحدث عن العودة قد تحققت فعلياً على يد قورش الفارسي. وأما من أسس لهذا الفهم، فهو القديس أوغسطين الذي «كان يعتبر القدس مدينة العهد الجديد، وأن فلسطين هي إرث المسيح للمسيحيين»[384].

كانت فرنسا وإنكلترا خاليتين من اليهود، قبل القرن الخامس عشر الميلادي. ومع سقوط غرناطة بيد الإسبان في العام 1492، وانطلاق محاكم التفتيش على الفور لتفتك بالمسلمين وباليهود معاً، أرغم المسلمون على الهجرة عبر البحر إلى شمال أفريقيا (المغرب وتونس والجزائر)، رافقتهم أعداد كبيرة من اليهود، بينما توجهت مجموعات كبيرة أخرى منهم براً إلى أوروبا، ومن هناك ستصل فيما بعد إلى تركيا. وقد حمل اليهود معهم الثروتين العلمية والمالية اللتين جمعوهما من الأندلس، هاتان «الثروتان معاً أسستا قاعدة التغلغل اليهودي في المجتمعات الأوروبية[385]».

وكانت الاتهامات بالعنصرية والكراهية تكال للجماعات اليهودية، في تلك المرحلة، وخصوصاً فيما يتعلق بأسفار التلمود المليئة بمثل هذه المشاعر. تلا ذلك العديد من المناظرات الكتابية، التي يمكن اعتبارها بداية لمرحلة الإصلاح اليهودي التي واكبت وتأثرت بموجة الاستنارة في أوروبا. وكنتيجة غير متوقعة في زمنها، صدرت الطبعة الأولى الكاملة من التلمود البابلي في فينيسيا الإيطالية عام 1520 تحت حماية مرسوم بابوي. وفي عام 1523م نشر بومبرغ الطبعة الأولى من التلمود الفلسطيني. ولكن حفلة إحراق شاملة للتلمود حدثت خلال حملات محاكم التفتيش في العام 1553م وبأمر من الفاتيكان، وتدرج الأمر ليشمل جميع الكتب اليهودية وصولاً إلى أمر البابا بيوس الرابع عام 1656م بحرمان التلمود حتى من اسمه[386]، وكانت الحجة الأصلية هي حديث التلمود عن الكفرة والمرتدين والوثنيين، واعتبار المسيحيين أن هذا الوصف يقصد به المسيحي تحديداً.

وفي تحول مثير للجدل، فقد حج القس الألماني مارتن لوثر إلى الفاتيكان في العام 1517، حيث رأى بأم عينه الفساد المستشري ضمن المجمع اللاهوتي، فكتب رسالة احتجاج تضمنت خمساً وتسعين نقطة علقها على أحد الأبواب، وبدأ بحركة إصلاح اتخذت إسم البروتستانت (المحتجة). ونتيجة لرفضه العودة عن انتقاده، حرم كنسياً سنة 1520 من قبل البابا ليون العاشر، ونفي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتهمة الهرطقة. لجأ لوثر بعد ذلك إلى العمل السري **وعمل على استمالة بعض اليهود الذين كان لهم نفوذ كبير في المجتمع عن طريق التأكيد أن مذهبه الجديد يعيد الاعتبار إلى اليهود الذين كانوا يعانون ازدراء الكنيسة الكاثوليكية.** أصدر لوثر كتابه «عيسى ولد يهودياً» سنة 1523 وقال فيه: **إن اليهود هم أبناء الله وإن المسيحيين هم الغرباء الذين عليهم أن يرضوا بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل ما يسقط من فتات من مائدة الأسياد.**

يرى الكثير من الكتاب والمؤرخين أن هذه الفترة تعد الولادة الحقيقية والفعلية للمسيحية اليهودية التي قامت على تفضيل الطقوس العبرية في العبادة على الطقوس الكاثوليكية بالإضافة إلى دراسة اللغة العبرية على أساس أنها كلام الله.

* * *

لمحة عن الحروب الدينية في أوروبا

في العام 1517م، نشبت في أوروبا ما يعرف بالحروب الدينية، والتي استمرت لمئة وثلاثين عاماً، حصدت مئات الآلاف من الضحايا، وخلفت دماراً هائلاً، وأخرجت إلى الوجود اصطفافات جيوسياسية جديدة. ولأنه لا توجد حروب دينية بمعزل عن مصالح الدول والزعامات، خصوصاً منها الاقتصادية، فإنه جرى استغلال الزوبعة التي أحدثتها الحركة البروتستانتية على أوسع وجه في حروب اجتاحت كلاً من سويسرا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبوهيميا وهولندا وإنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا والدنمارك.

دخلت البروتستانتية فرنسا حوالى العام 1520، وحسب الحاجة، تباينت سياسة الملك فرانسوا الأول حيالها ما بين التسامح والقمع. وكان الملك الفرنسي قد تورط ما بين 1515- 1547 في الحروب الإيطالية التي استمرت ما بين 1494- 1559، فدعم الأمراء البروتستانتيين المتمردين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة. لكن الأمر تبدل بعد توزيع ملصقات معادية

للكاثوليكية في أنحاء مختلفة من باريس عام 1534، حين أعاد فرانسوا الأول تصنيف البروتستانتيين كأعداء، لتبدأ مرحلة من الاضطهاد ضدهم.

أما دخول البروتستانتية إلى بريطانيا فقد حدث بعد انفصال الملك هنري الثامن (1509–1547) عن روما.

ولكي يظهر سبب العنف ومن يقف وراءه، فقد استمر اضطهاد البروتستانت في فرنسا أثناء عهد هنري الثاني (1547– 1559)، ليصل إلى حدود تأسيس محكمة للهراطقة، أطلق عليها البروتستانتيون اسم «حجرة النار». ويمكن النظر إلى ذلك باعتباره رداً على تزايد أعداد معتنقي البروتستانتية الكالفينية التي طغت على بقية المذاهب المسيحية البروتستانتية في فرنسا خلال تلك الحقبة.

في العام 1555عمل الإمبراطور شارل الخامس على عقد صلح في أوغسبورغ أنهى العنف القائم بين اللوثريين والكاثوليك في ألمانيا. ونصت بنود الصلح على ما يلي: أن يختار الأمراء الألمان (225 أميراً) ديانة ممالكهم كل حسب اعتقاده (لوثرية أو كاثوليكية)؛ حرية اللوثريين في ممارسة طقوسهم في المناطق الكاثوليكية؛ احتفاظ اللوثريين بالأراضي التي انتزعوها من الكنيسة الكاثوليكية منذ معاهدة صلح باساو 1552، وتسليم الأملاك الكاثوليكية التي بقيت بيد الأساقفة الذين تحولوا إلى البروتستانتية؛ وعدم فرض ديانة الملك الذي احتل منطقة تخالف عقيدته. إلا أن العديد من المشاكل ظلت بلا حل: فقد اعتبر الصلح في الواقع مجرد هدنة مؤقتة ولا سيما من جانب اللوثريين، إضافة إلى ذلك، بنيت بنود المعاهدة على أساس الانضمام إما إلى المعتقد الكاثوليكي وإما اللوثري مستبعدة جميع المعتقدات الأخرى، بما في ذلك الكالفينية، التي أخذت في الانتشار بسرعة في عدة مناطق من ألمانيا في السنوات التالية وأصبحت القوة الدينية الثالثة في المنطقة، ولذا لم يدعم الكالفينيون بأي شكل من الأشكال بنود أوغوسبورغ.

أمّا في فرنسا، فقد اندلعت الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت سنة 1562 واستمرت إلى 1598م. وقد تضمنت الحروب المدنية والعمليات العسكرية المسلحة. والصراع بين أسرة البوربون واتحاد أسرة جوس مع الاتحاد الكاثوليكي. وكانت بالفعل حرباً بين الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا والملكة اليزابيث الأولى ملكة إنكلترا.

في العام 1572 وقعت مذبحة سان بارثولوميو (Saint Bartholomew) الشهيرة، والتي قتل فيها ما يقارب 5000 من البروتستانت الفرنسيين، وكان المدبرون لهذه المذبحة هم

ملك إسبانيا فيليب الثاني والبابا وبعض الكاثوليك، وقد اعتبر الكاثوليك هذه المذبحة نصراً للكاثوليكية.

ظهرت في بريطانيا أول دعوة لانبعاث اليهود كأمة الله المفضلة في فلسطين، على يد عالم اللاهوت البريطاني توماس برايتمان (1562– 1607). فقد نشر كتابه (Apocalypsis Apocalypsos)، وهو الكتاب الذي قال فيه: إن الله يريد عودة اليهود إلى فلسطين ليعبدوه حيث يفضل أن تتم عبادته في هذا المكان دون غيره من الأمكنة... تحلق حول هذه الدعوة عدد من الشخصيات البريطانية الأدبية والفكرية والسياسية، أحد هؤلاء، هنري فنش الذي قال في كتاب له صدر في عام 1621م: «ليس اليهود قلة مبعثرة، بل إنهم أمة. ستعود أمة اليهود إلى وطنها، وستعمر كل زوايا الأرض، وسيعيش اليهود بسلام في وطنهم إلى الأبد»[387].

وفي هذه الفترة من الهدوء، استغلت الجماعات اليهودية والمناصرين لها من معتنقي البروتستانتية الأجواء المستجدة في ظل التوتر في أوروبا، فأعادوا طبع التلمود كاملاً في بولونيا بين الأعوام 1602– 1605، تلاه طبع بعض أجزاء منه في مناطق مختلفة، لم تسلم كذلك من التحريم والمصادرة. وكما هو متوقع، فإن كثافة الاهتمام بأمر معيَّن سوف يؤدي إلى ظهور فريق متسامح، وآخر متأثر ببعض أو كل ما كان في البداية خطراً وممنوعاً.

في العام 1618 عادت الحروب مجدداً إلى أوروبا، فيما يعرف بحرب الثلاثين سنة، وقعت بدايةً في وسط أوروبا (خصوصاً أراضي ألمانيا الحالية) العائدة إلى «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، ولكن اشتركت فيها تباعاً معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر فيما عدا إنكلترا وروسيا. في الجزء الثاني من هذه الحروب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا وكتالونيا.

اندلعت الحرب في البداية كصراع بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا والنمسا. وكانت فرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكاردينال ريشيليو، وبرغم ذلك ساندت الجانب البروتستانتي في الحرب لإضعاف منافسيهم آل هابسبورغ لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوروبية بارزة، ما أدى في النهاية إلى المواجهة بين فرنسا وإسبانيا.

ويمكن تصور استفادة الجماعات اليهودية من هذه الحروب، حيث الحاجة إلى التمويل الكبير، إضافة إلى تمويل إعادة البناء بعد توقف الحروب، وإعادة عجلة الاقتصاد التي لم يكن

أحد يستطيع فعلها إلا الجماعات اليهودية المالية، وبشروطها طبعاً! وما يؤكد هذا الأمر، هو استخدام جيوش المرتزقة على نطاق واسع في هذه الحروب، والتدمير الكبير الذي طاول مناطق بأكملها، وانتشار المجاعات والأمراض وهلاك الكثير من سكان الولايات الألمانية، وبشكل أقل حدة الأراضي المنخفضة وإيطاليا. انتهت الحرب بمعاهدة مونستير، وهي جزء من صلح وستفاليا الأوسع عام 1648. ولكنها سدت على آل هابسبورغ إمكانية التوسع نحو الغرب، وأرغمتهم على توجيه نظرهم نحو الجنوب الشرقي، مسببين سلسلة متواصلة من الحروب مع العثمانيين»[388].

مرحلة الانقلاب الرأسمالي الليبرالي في أوروبا

(ابتداءً من منتصف القرن 18 في غرب أوروبا وبدايات القرن 19 في شرقها)

مع التحولات الطبقية العميقة في المجتمع الأوروبي الغربي، وخصوصاً مع الثورة الفرنسية، انخرط اليهود في التطور الجديد وصارت قياداتهم جزءاً من النخب الحاكمة (أحزاباً وبرلمانات). ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى فترتين:

أ- الفترة ما بين 1800- 1880، التي شهدت سقوط الغيتو وأشكاله الإدارية (مثل القبالاه) ومحاولة إدماج اليهود في المجتمعات الأوروبية، وظهور الحركات اليهودية الإصلاحية، فنشطت عمليات هجرة اليهود بين أقطار أوروبا وإلى العالم الجديد، ومن هنا بدأت عملية العلمنة اليهودية وتخلخل القبضة الحاخامية، وبدأ انخراط الشباب اليهود في الحركات الثورية في أوروبا.

ب- فترة الإمبريالية: حيث تقاسمت دول الغرب الإمبريالية آسيا وإفريقيا وبدأت في تصدير مشكلاتها وفائضها إليهما، وترافق ذلك مع ازدياد علمنة اليهود واندماجهم في الغرب، بينما تأخر ذلك في شرق أوروبا مترافقاً مع طفرة تكاثر يهود أشكنازي الذي زاد عن خمسة أضعاف، ما دفعهم إلى طلب الهجرة نحو بقية أقطار أوروبا وإلى العالم الجديد (صارت الولايات المتحدة تضم أكبر تجمع يهودي في العالم)، ثم إلى فلسطين مع وعد بلفور. وترافق ذلك مع ظهور الحركة الصهيونية بين الإشكناز ووجدت التأييد في الغرب، كما ترافق مع تأسيس حزب البوند وتزايد انخراط الشباب في الأحزاب والحركات الثورية. **ومع دعوة الصهيونية إلى صيغة قومية هلامية لليهود ذات طابع ديني دون التزام أخلاقي أو عقائدي، تشجع الهجرة إلى فلسطين، كانت الجماعات اليهودية في أوروبا تقف رافضة هذا الأمر، إلا أن تحالف الصهيونية مع القوى الإمبريالية جعلها تصادر موقع القيادة لمصلحتها من يد النخب الثورية والدينية معاً**. وهكذا أصبح اليهود يشغلون ثلاثة تجمعات

كبيرة في العالم: الولايات المتحدة، وأوروبا الشرقية (خصوصاً بولندا والاتحاد السوفييتي) وفلسطين[389]. ومع تفعيل الهجرة إلى فلسطين على أثر الإبادة النازية، تمت عمليات التهجير المخابراتية ليهود العالم العربي، وهجرة اليهود من الدول الاشتراكية والذين يصل جزء منهم إلى فلسطين. ومع هذه التغيرات لم يعد اليهود عبر العالم يخضعون لسلطة دينية أو سياسية واحدة، وإنما صاروا جزءاً من الدول التي يحملون جنسياتها، وليس لهم، وخصوصاً في الولايات المتحدة، من وحدة سياسية سوى الأثر الفكري والنفسي الذي تتركه الصهيونية (مترافقة مع مصالح الدول الحاضنة) على اليهود، وبالتنسيق مع منظمات يهودية (كالإيباك في أميركا) واستغلال هذه المؤسسات لمصالح الإمبريالية الأميركية.

واليوم تقف اليهودية أمام مرحلة مصيرية كقوة سطو تاريخية مرتبطة المصير بسيطرة الغرب الإمبريالي، ما يتوازى مع مستوى تأثيرها في هذا الميزان من الاستفادة المصلحية، حيث تتجابه مع إرادة الفلسطينيين التحررية، وتواجه اهتمام الغرب بالثروات الشرق أوسطية وما تمثله «إسرائيل» من قوة ودور في هذا الصراع.

* * *

الصهيونية المسيحية

الصهيونية هي أيديولوجية تؤيد قيام دولة قومية يهودية في فلسطين بوصفها أرض الميعاد لليهود. وصهيون هو اسم جبل في القدس. وتقول بعض المصادر إنه اسم من أسماء القدس. أما الصهيونية المسيحية فهي الدعم المسيحي للفكرة الصهيونية، وهي حركة مسيحية قومية تعمل من أجل عودة «الشعب اليهودي» إلى فلسطين وسيادة اليهود على الأرض المقدسة. ويعتبر الصهيونيون المسيحيون أنفسهم مدافعين عن الشعب اليهودي خصوصاً دولة «إسرائيل»، ويتضمن هذا الدعم معارضة كل من ينتقد أو يعادي هذه الدولة وفضحه. **ولا تقوم فلسفة هذه المدرسة على حب اليهود بالضرورة، وإنما على استغلال مأساتهم، وإبادتهم في سبيل تحقق الرؤيا المسيحية عند الجماعة المسيحية الصهيونية، ويقوم ذلك على نظرية الهلاك الحتمي لليهود كتمهيد ضروري للخلاص من «إرث الدم» الذي حمله اليهود على أكتافهم بعدما صلبوا المسيح!** وبالتالي سيظهر المسيح بعد إبادة اليهود، ومن تبقى منهم سيتحولون إلى المسيحية ولن يبقى شيء اسمه اليهودية. وقد حصل خلاف في الكنيسة البروتستانتية حول هذا الأمر، حيث يعتقد الانكليز بأن

اليهود سيعتنقون المسيحية قبل قيام دولتهم، بينما تمسك الأميركيون بتنصرهم بعد عودة المسيح، وعليه حصل الانشقاق.

وقد عمل مارتن لوثر على تهويد المسيحية عندما أصر على اعتماد التوراه اليهودية بدلاً عن كتاب «العهد الجديد». وقد قام عدد من رجال الدين البروتستانت مثل القس الإنكليزي جون نلسون داربي بإعادة قراءة العقائد المسيحية المتعلقة باليهود، ومنحهم مكانة متميزة **حتى أصبحت الكنيسة البروتستانتية هي حاملة لواء الصهيونية المسيحية أينما حلت. وينظر إلى داربي على أنه الأب الروحي للمسيحية الصهيونية قبل أن يعمل العشرات من القساوسة على نشر نظريته تلك**. ونشر وليم باكستون الذي كان من أشد المتحمسين الأميركيين لأطروحة داربي كتاب «المسيح آت» سنة 1887 والذي ترجم إلى عشرات اللغات وركز فيه على حق اليهود التوراتي في فلسطين. وبلاكستون كان وراء جمع 413 توقيعاً من شخصيات مرموقة مسيحية ويهودية طالبت بمنح فلسطين لليهود وتم تسليم عريضة التوقيعات للرئيس الأميركي آنذاك بنيامين هاريسون. **أما القس سايروس سكوفيلد فيعتبر من أشد المسيحيين الصهيونيين تشدداً، وقام بوضع إنجيل سماه «إنجيل سكوفيلد المرجعي» نشره سنة 1917، وينظر إليه اليوم على أنه الحجر الأساس في فكر المسيحية الأصولية المعاصرة.**

أما مارتن لوثر فقد نشر سنة 1544 كتاب «اليهود وأكاذيبهم» أعرب فيه عن خيبة أمله من اليهود وأقر بالفشل في استقطابهم لعقيدته الجديدة. كما أقر في شبه استسلام تلقفه اليهود قبل غيرهم بأن دخول اليهود في الدين المسيحي لن يتم إلا عبر عودتهم إلى أرض فلسطين وعودة المسيح الذي سيسجدون له ويعلنون دخولهم في الدين المسيحي حتى يعم السلام العالم[390]. **ولكن حركته كانت قد رسخت وأخذ بها بنشاط غيره من الكهنة بدافع الشهرة أو الارتزاق أو المصلحة، أو بدافع القناعة الفعلية.**

أما خلاصة التصور البروتستانتي عن اليهود، فهي أنه بالرغم من كل صفات اليهود السيئة فإنه لا غنى عنهم من أجل الخلاص المسيحي، حسب إنجيل يوحنا: «لأن الخلاص هو من اليهود»[391]. أما مارتن لوثر فقد قال عنهم قبل أن يندم ويندد بهم: «إذا أردنا أن نجعلهم خيراً مما هم، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي، لا قانون البابا»، ووصلت محاولة لوثر لاستمالة اليهود من أجل الدخول في مذهبه حداً قال فيه يوماً أمام عدد من اليهود الذين كانوا يناقشونه «إن البابوات والقسيسين وعلماء الدين – ذوي القلوب الفظة – تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحياً مخلصاً يتحول إلى يهودي متطرف، وأنا لو كنت يهودياً

ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون المسيحية فسأختار على البديهة أن أكون خنزيراً بدلاً من أن أكون مسيحياً». إلا أن هذه الدعوة اعتبرت انقلاباً على موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تنظر إلى اليهود على أنهم حملة لدم المسيح عيسى بعدما صلبوه. وكان بعض المسيحيين في أوروبا يحتفلون بمقتل المسيح عن طريق إحياء طقوس عملية الصلب، **بل وكان سكان مدينة تولوز الفرنسية يحرصون على إحضار يهودي إلى الكنيسة أثناء الاحتفال ليتم صفعه من قبل أحد النبلاء بشكل علني إحياءً لطقس الضرب الذي تعرض له المسيح من قبل اليهود.** كما أن هناك نصاً في إنجيل متى يحمل اليهود مسؤولية مباشرة عن مقتل المسيح، ويذكر بالتفصيل كيف غسل بيلاطس الحاكم الروماني للقدس آنذاك يديه بالماء معلناً براءته من دم المسيح الذي كان اليهود على وشك صلبه قبل أن يصيح فيه اليهود قائلين: «ليكن دمه علينا وعلى أولادنا».

أما أخطر الأمور التي حدثت من جراء تعويم اليهودية، فهي تسرب الأدبيات اليهودية إلى صميم العقيدة المسيحية وأهمها: إن اليهود هم شعب الله المختار، وإنهم يكونون بذلك الأمة المفضلة على كل الأمم؛ وثانياً إنّ ثمة ميثاقاً إلهياً يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين؛ أما الأمر الثالث: فهو ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيون، أي بإعادة تجميع اليهود في فلسطين حتى يظهر السيد المسيح فيهم.. «وتكريساً لهذا التحول، أصبح العهد القديم المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها، وفتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود. كذلك اعتبرت اللغة العبرية - باعتبارها اللغة التي أوحى بها الله، واللسان المقدس الذي خاطب به شعبه المختار - هي اللغة المعتمدة للدراسة الدينية»[392].

وقد بلغت هذه المعتقدات ذروة نشاطها في عهد الثورة البيوريتانية في انكلترا في القرن السابع عشر الميلادي، **وقد تأسس مذهب البيوريتانيين (المتطهرين) هذا من رحم البروتستانتية لكن كان أتباعه أشد تعصباً، وعليهم أطلق - لأول مرة في التاريخ - كلمة الأصولية (fundamentalism).** وقد حمل المهاجرون الجدد إلى أميركا الشمالية - البيوريتانيون - بدءاً من عام 1620، العقيدة البروتستانتية - خصوصاً المذهب الكلفيني المتشدد - التي كانوا يحاولون تطبيقها في إنكلترا بلا طائل، وقد طوردوا بسببها، **واستشعرت هذه البروتستانتية تماثلاً في تجربتها وتجربة العبرانيين المنفيين، كما صورتها التوراه، فأصبحت أميركا لديهم (كنعان الجديدة): فهم قد فروا إليها من عبودية الملك جيمس الأول ملك إنكلترا، كما فر العبرانيون من عبودية فرعون ملك مصر، وكان أول كتاب يصدر في أميركا هو سفر المزامير، وأول مجلة حملت عنوان «اليهودي»**

وأول درجة دكتوراه تمنحها هارفارد كانت حول موضوع «العبرية هي اللغة الأم»، وباتت أميركا بالنسبة إلى هؤلاء المستوطنين البروتستانت، هي النموذج الروحي للعهد العبري القديم بل إنهم سموا أنفسهم «أطفال يزرايل»[393].

«شهدت المرحلة البيوريتانية في القرن السابع عشر العصر الذهبي لهذه المعتقدات بعد تراجعها الكبير في العهد الإليزابيتي، **في هذه المرحلة ظهرت الطبعة الأولى لنسخ الملك جيمس من الكتاب المقدس، وبموجبه أصبح العهد القديم المصدر الأساس إن لم يكن الوحيد للاجتهاد، ولاستنباط الأحكام والفلسفة الدينيتين اللتين فتحتا أبوابهما بعد أن أبيح حق التأويل الشخصي على حساب إسقاط احتكار هذا الحق بالكنيسة عموماً وبالبابوية خصوصاً.. وكانت مجموعة لفلرز (Levelers)، البيوريتانية الجمهورية، طالبت الحكومة بأن تعلن التوراه دستوراً لبريطانيا»[394]. ومن مظاهر التطرف البيوريتاني: استعمال العبرية في الصلاة الكنسية وفي تلاوة الكتاب المقدس؛ وتعميد الأطفال بأسماء عبرية، بدل القديسين المسيحيين؛ ونقل يوم قيامة المسيح إلى يوم السبت اليهودي.**

وأما عن توظيف هذه المعتقدات في السياسة، فقد **كان أوليف كرومويل أول وأهم سياسي بريطاني يتبنى مضمون مذكرةِ عالمَيْ اللاهوت التطهريين الإنكليزيين جوانا وألينزر كارترايت، اللذين وجهاها من هولندا وطالبا فيها: «بأن يكون للشعب الإنكليزي ولشعب الأرض المنخفضة شرف حمل أولاد وبنات «يزرايل» على متن سفنهم إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومنحهم إياها إرثاً أبدياً»**.. ففي مؤتمر لتشريع عودة اليهود 1658، (أي إلغاء قانون النفي الذي أصدره الملك إدوارد) والذي دعا إليه كرومويل الذي كان رئيساً للمحفل البيوريتاني، وحضر المؤتمر العالم اليهودي مناسح بن يزرايل «الذي ربط الصهيونية المسيحية بالمصالح الاستراتيجية لبريطانيا، ومن خلال عملية الربط تلك تحمس كرومويل لمشروع التوطين اليهودي في فلسطين منذ ذلك الوقت المبكر»[395]. فيما دعا العالم الفرنسي فيليب جنتل دي لانجلير (1656– 1717) إلى مقايضة السلطنة العثمانية بالقدس مقابل روما.

و«سنة 1699 أرسل الملك لويس الرابع عشر قنصلاً يمثله في القدس الشريف وهو على ما نظن أول ممثل لهذا الدولة في المدينة المقدسة، وكان الذي تولى هذا المنصب المسيو دي برامند»[396].

أما في هولندا، فقد قامت الكالفينية بعد الحرب الدينية الكاثوليكية الإسبانية، والبروتستانتية الألمانية عام 1565. وفي العام 1609م، تكونت جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية (نسبة إلى اللاهوتي جون كالفن). أما الشاعر ميلتون فيقول في قصيدة الفردوس المفقود: «إنّ الله سيشق لليهود طريق البحر ليعودوا فرحين مسرورين إلى وطنهم، كما شق لهم طريق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم إلى أرض الميعاد».. وعليه يمكن التأكيد على أن «هذه التوجهات فلسفها فلاسفة ألمانيا وبريطانيا وفرنسا الكبار في القرن السابع عشر حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من القناعات التي تفرض نفسها في عملية اتخاذ القرار السياسي في الدوائر الحكومية في كل الدول الاوروبية»[397].

بناءً على ما تقدم، تمكن رؤية أرنولد توينبي في «**أن الغرب ككل قد تم تهويده بالتدريج، ومعنى ذلك أنه تبنى الرؤية اليهودية للكون.. ويرى أن الفكرة اليهودية الخاصة بالشعب المختار من أهم المؤثرات في الحضارة الغربية**. فالمجتمع العبراني القديم كان منغلقاً هامشياً داخل الحضارة السريانية الأوسع، وقد أصبح يهوه الغيور إله هذا المجتمع. وبسبب الانغلاق القبلي لهذه الحضارة على نفسها، أخفقت اليهودية في أن تنتهز الفرصة التي سنحت لها بظهور المسيحية حتى تتحول إلى ديانة عالمية. ولكن بدلاً من ذلك، وقع التمرد اليهودي ضد الرومان. وعندما أخمد هذا التمرد، انتهى دور اليهودية تماماً وأصبحت حفرية جامدة ميتة. وقد كانت استجابة اليهود الوحيدة لتحدي النفي والاضطهاد هو الإبقاء على الانغلاق وعلى الإطار الشعائري المركب الذي يكرسه.. **وفي نهاية الأمر، انعكست هذه العملية التاريخية الطويلة في تفجر آخر للعجرفة القبلية عبر عن نفسه في الصهيونية. فاليهود بدلاً من أن يركزوا آمالهم في الخلاص الإلهي، هاجموا الفلسطينيين العرب وطردوهم من ديارهم وأقاموا دويلة صغيرة هي قلعة عسكرية وتجمع لرعاة البقر**»[398].

* * *

انتفاضة خميلنتسكي في أوكرانيا (1648)

تعتبر حركة خميلنتسكي في أوكرانيا خلال القرن السابع عشر، انتفاضة شعبية ضد الاستعمار الاستيطاني البولندي وقوات الاحتلال التي كانت تحميه وكل المؤسسات التي تتبعه (الكنيسة الكاثوليكية والوكلاء اليهود). «والانتفاضة من أهم الأحداث التاريخية التي أثرت في

الجماعات اليهودية في شرق أوروبا، ولا تقل في أهميتها عن وعد بلفور أو الإبادة النازية لليهود»، حيث انتشر من هناك اليهود في أنحاء أوروبا، وقد استفادت الدعاية اليهودية مستقبلاً من تداعيات هذه الانتفاضة الشعبية غير العنصرية، والتي يوظف اليهود نتيجتها في سبيل تعزيز النظرية الصهيونية الاستعمارية، عن كون اليهود مضطهدين ويحتاجون إلى وطن قومي خاص بهم.

قاد الانتفاضة الزعيم القوزاقي بوغدان خميلنتسكي (1593– 1657)، الذي أصبح بانتصار الثورة ونيل الاستقلال زعيماً لأوكرانيا التي طالب بوحدتها مع روسيا. **أما أسباب الثورة فهي شروط الاستغلال إلى حد العبودية ضد فلاحي أوكرانيا على يد الوكلاء اليهود (الآرنداتور) للإقطاعيين البولونيين، وكانوا يستغلون الفلاحين أشرس استغلال، حيث كانوا يحتكرون السلع الأساسية والخمور ويفرضون على الفلاحين الأرثوذوكس حتى ضريبة الدخول إلى الكنيسة لإداء العبادة.** وكانت الكنيسة الكاثوليكية تقف إلى جانب الإقطاع، لذلك كان العامل الديني حاضراً (أوكرانيا أرثوذوكسية)، وكانت القوات البولونية تحرس الوكلاء. وقد دفع الوكلاء اليهود والجنود البولونيون والأقنان التابعون الثمن، وتدخل الجيش الروسي وفرقة القوزاق لحسم النتيجة بسرعة.

مما زاد من حدة الصراع وأوضح معالمه، ذلك التعارض الاجتماعي والديني والعرْقي الكامل بين وضع الجماهير القوزاقية والأوكرانية من جهة، ووضع النبلاء البولنديين ووكلائهم من جهة أخرى. **فهذه الجماهير كانت أساساً جماهير فلاحية تتحدث الأوكرانية وتنتمي إلى الكنيسة الأرثوذوكسية. والمستغل الحقيقي كان النبيل الإقطاعي البولندي الذي يتحدث البولندية ويتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولم يكن الوكيل اليهودي سوى أداته في الاستغلال وسوط عذابه. ولكنه مع هذا كان المستغل المباشر المنعزل تماماً عن الجماهير، فهو يتحدث اليديشية ويدين باليهودية. وكانت العناصر التي جرفتها الانتفاضة، هي القوة العسكرية البولندية والقساوسة الكاثوليك والوكلاء اليهود من ناحية، ومن ناحية أخرى الأقنان القوزاق والأوكرانيون والتتر وكل العناصر الأخرى التي انضمت إليهم.**

وقد نجحت الانتفاضة بسرعة خاطفة فوافقت بولندا عام 1649 على أن تتمتع عدة مقاطعات من أوكرانيا بالحكم الذاتي. ومع هذا فقد استمر الصراع العسكري بين بولندا والدولة الجديدة واستعان خميلنتسكي بالروس، فتقدمت القوات الروسية والقوزاقية، وتم بعد ذلك ضم أوكرانيا وسمولنسك إلى روسيا عام 1667.

ومما يجدر ذكره أن انتفاضة خميلنتسكي لم تكن انتفاضة عنصرية موجهة ضد اليهود باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم ممثلين للإقطاع البولندي الاستيطاني. أي إنهم لم تكن لهم أية أهمية في حد ذاتهم، فقد كانوا مجرد أداة في يد أحد أطراف الصراع. ولذا فحينما كانت القوات البولندية تنتصر على المنتفضين كان هذا يعني عادةً عودة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الشتات وكان يُنَص على هذا في الاتفاقيات المبرمة. وحينما كانت كفة المنتفضين ترجح كان أحد مطالبهم أن تُخلَى المدن الأوكرانية من القوات البولندية والوكلاء اليهود. وحينما كتب خميلنتسكي رسالة إلى كرومويل، على أمل عقد تحالف بين القوتين الأرثوذكسية والبروتستانتية، فإنه لم يذكر اليهود بخير أو شر.

أما اليهود فقد قتل عدد منهم، بالغت الدعاية اليهودية في تقديره بثلث يهود أوكرانيا، وفر عدد كبير إلى بلدان أوروبا الأخرى وعاد قسم منهم بعد عودة الهدوء، وظلوا يتربصون الفرصة للعودة إلى أعمال الوسطاء التي يتقنونها.

أما الدراسات الصهيونية فإنها تنظر إلى هذه الحادثة في إطار التاريخ اليهودي الذي يضع اليهود في مقابل الأغيار، وتصورهم باعتبارهم أقلية صغيرة يعيش أعضاؤها آمنين في مدنهم الصغيرة يتحدثون اليديشية، ولا علاقة لهم بعالم الأغيار، وفجأة يهب هذا العالم ويذبح آلاف اليهود (وتبدو الواقعة بأسرها وكأنها شيء فجائي ليس له سبب واضح لأننا لا ندرك دور اليهود الوظيفي أو علاقتهم بالأغيار البولنديين). ومن ثم فإن الانتفاضة تصبح «مذبحة»، ويقارن خميلنتسكي بهتلر. وحينما تُصوِّت إحدى دول شرق أوروبا ضد «إسرائيل» في هيئة الأمم فهذا جزء من «ميراث خميلنتسكي»[399].

آراء في الوظيفة والسلوك اليهوديين

ظهر في مراحل معينة العديد من المبدعين اليهود، ولكن هذا الظاهرة لا تعبر عن تفوق عنصري كما يحاول اليهود والصهاينة أن يدعوا، وإنما الخروج من الانعزال والاستفادة من التقديمات/الإغراءات التي قدمت لهم في سبيل الاندماج. وقد ظهر الكثير منهم في صفوف الذين تمردوا على الحظيرة اليهودية، والتحرر من الضغط الحاخامي الذي يريد استغلالهم ككتلة واحدة، باتجاه واحد، «أما في العصر الحديث فأغلب الشخصيات اليهودية التي قدمت إبداعات في العلم، والفلسفة، وغيرها من العلوم الإنسانية كانت قد خرجت من الحظيرة اليهودية، وأعلنت تمردها على

كل ما يتعلق بالهوية اليهودية من أمثال سبينوزا وفرويد وآينشتاين ومارتن بوبر وماركس... وكان **كارل ماركس..** قد قال: «**ليست المشكلة في اليهودي كإنسان، ولكن المشكلة ثاوية في العقيدة اليهودية التي يتوجب علينا تخليصه منها كإنسان ليعيش حياته السوية وتخليص الإنسانية منها حتى لا يتهدم السلم والأمن العالميان**»[400].

ومن أهم من ساهم في تطور اليهود، هو القيصر الروسي نيكولا الثاني حين أرغمهم على التعلم في محاولة إدماجهم بالمجتمع، وبعدما فشلت محاولته، دمجهم بالمجتمع الزراعي الفلاحي حيث راحوا يديرون حانات السكر في القرى فنتج من ذلك تخريب المجتمع الفلاحي، ما أدّى إلى إعادتهم إلى المدن وإجبارهم على الدخول المجاني إلى المدارس وتكوين طبقة من المثقفين اليهود في عموم روسيا. وبمعزل عن كون الروسي العادي لم يكن باستطاعته أن يتعلم بالمجان، ولكن الجمعيات اليهودية عارضت حركته في فك العزلة عن اليهود، أما خليفته ألكسندر الثاني (1850- 1881) فقد نجح في ذلك، ولكنه وجد مقتولاً في بيت سيدة يهودية، وعليه بدأت المخابرات الروسية حملة اعتمدت على فرضية المؤامرة، وأن لليهود امتدادات معروفة في الخارج.

ومن أهم الشهادات في السلوك اليهودي جاءت على لسان الفيلسوف كارل ماركس، حيث يقول: «**اليهود هامشيون، ولكنهم كانوا يصنعون مصير الكثير من الدول، بل مصير أوروبا كلها.. من خلال وظائفهم كأقنان للملك، وللسلطة، ومن خلال بيوتات المال**».

أما جورج واشنطن (1732- 1799) فيقول: «**اليهود أخطر علينا من أعدائنا... على الدول أن تنوح لأنها لم تقم باصطياد هؤلاء القوم كالحشرات أو الطاعون**».

أما الشاعر والسياسي الإنكليزي جوزف أديسون 1712 فيقول: اليهود يشبهون المسامير، لا قيمة لها في حدّ ذاتها، إلا أن أهميتها تكمن في بناء الهيكل.

ويقول الرئيس فرانكلين 1789: «**حيثما استقر اليهود يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجاري الشريف، إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد كونوا حكومة داخل الحكومة، وحينما يجدون اعتراضاً من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة مالياً**».

ويقول الكاتب الفرنسي صموئيل ميشال: «**اليهود منذ أقدم العصور كانوا وما زالوا يمثلون تلك العلقة الشرهة التي تعيش عالة على جسد كل مجتمع حلت فيه... وهي تشكل المعول الهدام الذي يخرب كل قيمه وأخلاقه ومقدساته**».

ويقول نابليون: «**لا يستطيع أحد أن يقنع اليهود مهما جلب من براهين وحجج، وعلينا أن نسن قوانين تخصهم وحدهم**».

وقول الملك بطرس الأول: «**اليهود نصابون محتالون لا يأخذون أذناً من أحد في الاستيطان ووقحون في اليسر، ستجدون فيهم شعباً جاهلاً همجياً عدواً للقيم الإنسانية الرفيعة**». ومثل هذه الآراء رددها البابا كليمونت الثامن، وفولتير ونيكولا الثاني قيصر روسيا وملك بروسيا فريديريك وغيرهم[401].

بداية اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأدنى

توافد الكثير من المستعمرين الأوروبيين إلى القارة الجديدة، وكان من بينهم المغامرون، وصائدو الذهب، والمجرمون، والفارون من الاضطهاد. **وبسبب عمليات الإبادة المنظمة، والأوبئة التي جاءت مع الأوروبيين، مثل مرض الجدري، مات الكثير من السكان الأصليين للأميركيتين.**

في العام 1513، وصل الفاتح الأسباني خوان بونس دي ليون إلى منطقة فلوريدا، وهذه أول زيارة موثقة لما سيطلق عليه اسم الولايات المتحدة. وتبعت المستوطنات الإسبانية في المنطقة مستوطنات أخرى في جنوب غرب الولايات المتحدة، والتي جعلت الآلاف يتجهون إلى المكسيك. وأقام تجار الفراء الفرنسيون نقاطاً عسكرية حول منطقة البحيرات الكبرى. وتعد مستعمرة فيرجينيا أول استيطان إنكليزي ناجح، بالإضافة إلى مستعمرة بلايموث عام 1620. وأسفر استئجار مستعمرة ماساشوستس عام 1628 عن هجرة العديد من السكان. وفي عام 1634، استوطن 10 آلاف من البروتستانت في نيو إنغلاند. بين أواخر عام 1610 والثورة الأميركية، تم شحن حوالى 50، 000 من المساجين إلى المستعمرات البريطانية الأميركية[402]. وابتداء من عام 1614، استقر الهولنديون على ضفاف نهر هدسون ونيو أمستردام في جزيرة مانهاتن.

وفي عام 1674، تنازل الهولنديون عن مقاطعة نيو هولند لإنكلترا، لتصبح نيويورك. كما تم التعاقد مع كثير من المهاجرين الجدد، وخصوصاً المهاجرين منهم إلى الجنوب، ليعملوا كخدم، وهو ما يمثل نحو ثلثي مهاجري ولاية فرجينيا بين عامي1630 و1680 [403]. ومع نهاية القرن، أصبح «العبيد» الأفارقة المصدر الرئيسي للقوة العاملة. وبعد تقسيم كارولينا في عام 1729، واستعمار

جورجيا في عام 1732، أصبحت الثلاث عشرة مستعمرة البريطانية هي الولايات المتحدة، وتضم جميعها حكومات محلية حرة منتخبة.. **وجميع تلك الحكومات أحلت تجارة الرقيق الإفريقية.**

وخلال حرب الإبادة الفرنسية ضد الهنود، «استولت القوات البريطانية على كندا من فرنسا، ومع ذلك ظل الفرنسيون معزولين سياسياً عن المستعمرات الجنوبية. وباستثناء الأميركيين الأصليين (والمعروفين باسم «الهنود الحمر») الذين أصبحوا مشردين، وصل عدد السكان في الثلاث عشرة مستعمرة إلى 2.6 مليون نسمة في عام 1770، حيث يمثل البريطانيون ثلث هذا العدد، ويمثل الأميركيون السود خمس السكان[404]، ولم يكن للمستعمرين الأميركيين مكان في البرلمان الإنكليزي.

«فكان لهجرة أتباع الدين الجديد من البروتستانت والتطهريين آثار مباشرة على بلورة الشخصية الأميركية بالصورة التي تقوم عليها حتى اليوم.. المهاجرون الأوائل أعطوا أبناءهم أسماء عبرانية (ابرام، ساراي.. ألعازر..) وأطلقوا على مستوطناتهم أسماء عبرانية (حبرون.. سالم وكنعان...)، وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى أن أول دكتوراه منحتها جامعة هارفارد في العام 1642م كانت بعنوان «العبرية هي اللغة الأم»، وأول كتاب صدر في أميركا كان «سفر المزامير» وأول مجلة كانت مجلة «اليهودي»[405]، وعلى هذا يمكن فهم التثقيف الأصلي الذي حصلت عليه أجيال البروتستانتية في أميركا، لنرى بعدها لماذا هذا التعصب، وذلك التوسع في الجماعات المؤيدة للكيان الصهيوني، من «الصهاينة المسيحيين»، ومن محبي «يزراييل» ومحبي الفوائد التي تجنى من وراء ادعاء في هذا الاتجاه.

في العام 1775 بدأت حرب الاستقلال الأميركية عن بريطانيا (دامت حتى العام 1781)، وفي العام نفسه عقد المؤتمر القاري الأول في فيلادلفيا، وحضره ممثلو ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية على سواحل الأطلنطي، وانبثق عنه تأسيس الجيش القاري تحت قيادة جورج واشنطن للقتال في الحرب الثورية ضد البريطانيين. **وفي 4 تموز/ يوليو 1776 أعلن توماس جيفرسون باسم المؤتمر الاستقلال عن بريطانيا وتشكيل حكومة اتحادية عبر «الإعلان الجماعي للولايات المتحدة الأميركية الثلاث عشرة»،** والذي اعتمده «ممثلو الولايات المتحدة الأمريكية» في الرابع من تموز عام 1776. ويتم الاحتفال بذلك التاريخ سنوياً بمناسبة عيد استقلال الولايات المتحدة الأميركية. وتمت صياغة الاسم الحالي في شكله النهائي في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1777، عندما اعتمد المؤتمر القاري الثاني مواد الاتحاد الكونفيديرالي، حيث تنص المادة الأولى على أنه «يجب أن يكون الاسم «الولايات المتحدة الأميركية». وبعد هزيمة بريطانيا

من قبل القوات الأميركية بمساعدة من فرنسا، اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة وسيادتها على الأراضي الأميركية الواقعة غرب نهر الميسيسيبي. **ثم اعترفت بها الدولة السعدية في المغرب كأول دولة خارجية تعترف باستقلالها نظراً لتوتر علاقتها مع بريطانيا العظمى بسبب القرصنة البحرية.**

قام كونغرس الكونفيديرالية بتأسيس القوات البرية للولايات المتحدة في 3 تموز/ يوليو بعد نهاية الحرب بدلاً من الجيش القاري. ويعتبر الجيش نفسه متحدراً من الجيش القاري، ولذلك يؤرخ تأسيسه إلى أصول تلك القوة. وفي العام 1788، تم التصديق على دستور الولايات المتحدة، بالإضافة إلى اعتماد أول مجلس شيوخ، ومجلس نواب، ورئيس للولايات المتحدة: جورج واشنطن الذي تولى منصبه في عام 1789. وفي عام 1791، تم اعتماد وثيقة الحقوق، ومنع تقييد الحريات الشخصية، وضمان الحماية القانونية. وبينما منعت الولايات الشمالية تجارة الرقيق منذ العام 1780 وحتى عام 1804، ظلت العبودية في الولايات الجنوبية. **كان القانون الأميركي يحمي تجارة الرقيق الأفارقة حتى عام 1808.**

في القرن الثامن عشر، كان الصراع على العالم يجري بين بريطانيا وفرنسا والسلطنة العثمانية، وكانت الولايات المتحدة تقع خارج اتفاقات خطوط الملاحة الدولية في المشرق العربي، وخصوصاً في حوض المتوسط، حيث كانت تدفع رسوماً باهظة (140 ألف دولار) للمرور وخصوصاً في المياه الإقليمية التابعة لبلدان شمال إفريقيا، فقررت التمنع عن الدفع مع ما رافق ذلك من تداعيات، وقررت الحصول على حق العبور بالقوة، كما قرر الكونغرس الأميركي بناء أسطول حربي تألف بداية من ستّ قطع بحرية العام 1794. و**«لم تكن حرية الملاحة في البحر المتوسط هي التي أملت إنشاء الأسطول، بل كانت الولايات المتحدة تتطلع إلى دور في الوطن العربي يتوافق مع إيمانها بعقيدة الصهيونية المسيحية. وكان أول قائد لهذا الأسطول الأدميرال ريتشار دال، وأول إعلان حرب أميركي كان ضد ليبيا في العام 1801م، وكان توماس جيفرسون رئيساً للولايات المتحدة. بدأ حصار طرابلس في حزيران/ يونيو من العام 1802م، وتمكنت في الرابع من حزيران 1805م من حمل باشا طرابلس على التوقيع على اتفاق تسوية. وفي العام 1815 أعلنت الولايات المتحدة الحرب على الجزائر بحجة الدفاع عن المصالح الاقتصادية الأميركية في المنطقة، ومن الجزائر انتقلت القوات البحرية إلى تونس (في الخامس من آب/ أغسطس 1816) وحملتاهما على التوقيع على اتفاقية بشروط أميركية»**[406].

«وقد بلغ تأثير الصهيونية المسيحية على الرواد الأوائل في أميركا حداً اقترح معه الرئيس جيفرسون[407] اتخاذ رمز لأميركا يمثل أبناء يزرايل تظللهم غيمة في النهار، وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر وذلك توافقاً مع ما يتضمنه سفر الخروج»[408].

سن الكونغرس عام 1830 قانون ترحيل الهنود بالقوة من شرق الميسيسبي إلى غربه، واشتهر مفهوم «القدر الحتمي» خلال تلك الفترة[409]، الذي يبرر ذبح الهنود الحمر وتشريدهم، «فصار من حق كل مستوطن أن يطرد الهندي من بيته وأرضه، وأن يقتله إذا لم يستجب لصوت العقل»! وكل هذا مبني على عقيدة تلمودية.

وقد استخدم الأميركيون لإبادة سكان البلاد الأصليين – بالإضافة إلى القتل وهدم المدن والقرى– وسائل أكثر وحشية وحقداً، فقد قاموا بنشر وباء الجدري بين قبائل الهنود بوساطة التلويث المتعمّد بجراثيم هذا الوباء للأغطية التي أُرسلت إليهم، كما اعترف بذلك «وليم براد فور» حاكم ولاية بليموث الذي يرى أن نشر الجدري بين الهنود يدخل السرور والبهجة على قلب الله[410]!

وكتب جورج واشنطن في إحدى رسائله إلى المفوض للشؤون الهندية يقول: **«إن طرد الهنود من أوطانهم بقوة السلاح لا يختلف عن طرد الوحوش المفترسة من غاباتها»!**

يقول نعوم تشومسكي في «تواريخ الانشقاق»، وهي حوارات أُجريت معه وطُبعت في كتاب ترجمه محمد نجار، يقول: **«الولايات المتحدة وُجدت وأُسست على دمار السكان الأصليين للبلاد. فقبل أن يكتشف كولومبس أميركا، فقد قُدّر عدد السكان الذين كانوا يعيشون شمال «ريوغراند» من 12– 15 مليون نسمة، إلا أنهم تقلصوا مع بداية القرن العشرين إلى مئتي ألف نسمة فقط».**

ضمت الولايات المتحدة جمهورية تكساس إليها في عام 1845. وسيطرت أميركا على شمال غرب الولايات المتحدة طبقاً لمعاهدة أوريغون في عام 1846 مع بريطانيا. ونتج من فوز الولايات المتحدة في الحرب المكسيكية الأميركية في عام 1848 التنازل عن ولاية كاليفورنيا وجزء كبير من جنوب غرب أميركا. كما دفع اكتشاف الذهب بولاية كاليفورنيا بمزيد من الهجرة نحو الغرب بين عامي 1848– 1949.

في العام 1830 عقدت الولايات المتحدة اتفاقية مع الدولة العثمانية سمحت لها بإرسال البعثات التبشيرية البروتستانتية، «وانتشرت ستون بعثة من هذا النوع بقرار من المجلس

الأميركي للبعثات الخارجية من اليونان حتى إيران، ومن اسطنبول حتى القدس... وخلال فترة الخمسين سنة من 1850 حتى 1900م كانت البعثات التبشيرية الأميركية رأس الحربة التي كانت تتمسك بها الحركة الصهيونية، ففي العام 1880م، وفي أثناء انعقاد مؤتمر مدريد الذي تقاسمت فيه الدول الأوروبية النفوذ والهيمنة على الوطن العربي، «أبدى الوفد الأميركي المشارك اهتماما بقضية أساسية واحدة هي ضمان سلامة وازدهار الجالية اليهودية في طنجة»[411].

* * *

دور الجماعات اليهودية في ظل السلطنة العثمانية

أثناء الفتح العثماني لآسيا الصغرى وبعض أنحاء أوروبا تعاون اليهود مع القوات العثمانية الفاتحة. وما لبثت الدولة العثمانية أن رحبت بهجرة أعضاء الجماعات اليهودية إليها، وخصوصاً من أوروبا، فقد كتب الحاخام إسحق تسارفاتي عام 1479 إلى يهود ألمانيا والمجر لحثهم على الهجرة إلى الدولة العثمانية. **وكان العثمانيون يرون أن العنصر اليهودي عنصر بشري مهم للإمبراطورية نظراً لخبرته المالية والعلمية ومعرفته باللغات الأجنبية، إلى جانب أنه يشكل كثافة بشرية كانت الإمبراطورية في أمس الحاجة إليها. ولأن «قومية اليهود الوهمية هي قومية التاجر، قومية رجل المال» حسب مقولة كارل ماركس،** فقد هاجرت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية إلى السلطنة وأصبحوا عثمانيين بمحض إرادتهم. وبرغم هذا لم تضم الدولة العثمانية عبر تاريخها سوى أقلية من يهود العالم، إذ إن مركز اليهود السكاني كان قد انتقل إلى أوروبا ابتداءً من القرن الرابع عشر الميلادي. وفي القرن التاسع عشر الميلادي، بلغ عدد اليهود في الدولة العثمانية، ثلاثمئة ألف، أي أقلية صغيرة للغاية بالقياس إلى يهود العالم الغربي الذين كانوا على عتبات الانفجار السكاني (حيث زاد عددهم إلى عشرة ملايين مع أواخر القرن التاسع عشر الميلادي)، وهو انفجار لم يكن له ما يناظره في الدولة العثمانية.

وكان مصطلح «سرجون» يعني النفي أو الترحيل في سياسة السلطنة العثمانية، وكان يطبق على فرد أو أسرة أو جماعة كاملة باعتباره ضرورة اقتصادية، أو لموازنة ديمغرافية، أو شكلاً من أشكال العقاب الجماعي. وكانت السلطنة تنظر إلى الجماعات اليهودية على أنها عنصر موازن للعنصر المسيحي حيث وطنوهم في قبرص واليونان مثلاً، أو كان ينظر إليهم

باعتبارهم عنصراً تجارياً أو مالياً مهماً في تنشيط الحياة الاقتصادية فجرى توطين خبراتهم في المدن التركية الكبرى. وقد منحتهم السلطنة كامل الحقوق للعمل في التجارة والمال والعقارات والمهن والزراعة، مع ما يترتب على هذه المجالات من رهن وتمويل وسمسرات، إضافة إلى مهنة الطب، التي برعوا فيها لأنهم تعلموا فنونها التي تجاوزت الطب في العالم العربي والإسلامي نظراً لعدم جواز التشريح في الشرع الإسلامي حتى القرن السادس عشر الميلادي، ولهذا السبب وغيره فقد تطور الطب في الغرب. كما اشتغل اليهود في الترجمة نظراً لمعرفتهم باللغات الأوروبية، «وكانت وظيفة ترجمان البلاط يشغلها دائماً يهودي. ويبدو أن اليهود أيضاً، ساهموا في نقل بعض جوانب تكنولوجيا السلاح من الغرب، وهو ما سبب حنق المراقبين الغربيين عليهم لأنهم عدّوهم مسؤولين عن التفوق العسكري العثماني». كذلك شارك اليهود في نقل صناعة الطباعة إلى السلطنة، وأسسوا الكثير من مصانع النسيج، واشتغلوا بالتجارة الدولية وشكلوا جماعة وظيفية وسيطة بين الدولة العثمانية وأوروبا. وعمل اليهود في الوظائف المالية وما تتضمنه من أعمال ربا وهي خلاصة خبرتهم التاريخية، ونظراً لخبراتهم المالية قاموا بوظيفة المديرين الماليين للولاة العثمانيين ولكثير من الباشوات العثمانيين. ومن أهم الوظائف التي اضطلعوا بها تلك الوظائف المرتبطة بالضرائب سواء أكانوا جامعي ضرائب أو مفتشين أو موظفي جمارك أو ملتزمي ضرائب. وكانت أغلبية العاملين في الضرائب في الدولة العثمانية من أعضاء الجماعات اليهودية حتى أن الإيصالات كثيراً ما كانت تُكتَب بحروف عبرية. ومن أهم الوظائف التي اضطلعوا بها أيضاً وظيفة أمين الإمدادات والتموين لقوات الإنكشارية، وكانت الوظيفة وراثية محصورة في عدد محدود من الأسر اليهودية. وقد نشأت هذه العلاقة بين الإنكشارية والمموّلين اليهود أينما وُجدت قوات الإنكشارية في إستنبول وسالونيكا ومعظم المدن التركية الأخرى. ونشأت حول المموِّلين شبكة تجارية صناعية مالية من اليهود، فكانت مصانع النسيج اليهودية تساهم في صناعة الأزياء العسكرية للإنكشارية. واستمرت العلاقة بين الإنكشارية وأعضاء الجماعة اليهودية حتى عام 1826، عندما أراد العثمانيون الحد من قوة الإنكشارية التي أعاقت التحديث الذي اتجهت إليه السلطنة، فتحالف الممولون اليهود مع الإنكشارية وقاموا بتمويل تمرُّدهم. وبعد أن تمكنت الدولة من حل الإنكشارية، تم القبض على رؤساء عائلات المموِّلين وجرى إعدامهم، الأمر الذي ألحق ضرراً شديداً بالشبكة الاقتصادية اليهودية التجارية المالية الصناعية المرتبطة بهؤلاء المموِّلين. وعلى ما تقدم يمكن القول إن شبكة من تقاطع المصالح قد ترسخت بين أعضاء الجماعة اليهودية العثمانية وبين النخب الحاكمة في السلطنة، وكانت هذه الحركة تحظى بدعم الحاخامية اليهودية، وهذا ما دفع الأخيرة إلى مناهضة حركة شبتاي تسفي المشيحانية سنة

1665. وكما هو مُتوقَّع، كان مصير يهود السلطنة مرتبطاً بحركيات هذه الدولة وما تواجهه من مشكلات وأزمات. ويُلاحَظ أن تَراجُع الدولة العثمانية ترك أثره في الجماعات اليهودية أيضاً، فقد توقف تَدفُّق المهاجرين اليهود من أوروبا إذ بدأت تستوعبهم المراكز التجارية في غرب أوروبا ووسطها بدرجات متزايدة، وبالتالي تَوقَّف تَدفُّق رأس المال والخبرة والمعارف الغربية. بل إن معرفة أعضاء الجماعات اليهودية باللغات الأوروبية تناقصت حتى أن معظمهم كان يكتب اللادينو بحروف عبرية لأنهم كانوا لا يعرفون الحروف اللاتينية[412].

وعن التنافس المصلحي بين الأرمن واليهود يذكر سليمان السائح في كتابه «المفسدون في الأرض»، **أن الصراع الوظيفي اشتد في السلطنة العثمانية بين الأرمن واليهود، كونهم يقومون بالوظائف المالية والاقتصادية نفسها، ما إدى إلى وشاية اليهود بالأرمن على أنهم يتجسسون ويهربون الأموال تحضيراً للتمرد، ما اعتبر أحد الأسباب التي أدت إلى المذابح العثمانية بحق الأرمن.**

حركة شبتاي تسفي

وُلد شبتاي تسفي في أزمير لأسرة إشكنازية تعمل بالتجارة، وقد تلقَّى تعليماً دينياً تقليدياً، ولكنه استغرق في دراسة القبَّالاه وخصوصاً اللوريانية. **وتزامنت الفترة التي نشأ فيها مع بداية تعاظم نفوذ الرأسمالية البريطانية والهولندية (البروتستانتية)، وبدايات مشروعهما الاستعماري العالمي، وبداية حلولهما محل المشروع الاستعماري الإسباني والبرتغالي** (الكاثوليكي).. وقد شهد عام 1648 حدثين من أخطر الأحداث في تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب: أولهما انتهاء حرب الثلاثين عاماً (1618– 1648)، وهي حرب استفاد منها أعضاء النخبة من يهود البلاط، وعانت بسببها الجماهير اليهودية أيما معاناة. والتي نتج منها تدهور الشبكة التجارية اليهودية العالمية، وتَدنِّي وضع النخب اليهودية بسبب تَركُّز السلطة في يد الدولة القومية المركزية الذي أدَّى إلى الاستغناء عن اليهود كجماعة وظيفية. أما الحدث الثاني، فهو انتفاضة فلاحي أوكرانيا والقوزاق تحت قيادة خميلنتسكي (1648). التي هزت قواعد التجمع اليهودي في بولندا، أكبر تجمُّع يهودي في العالم آنذاك.. **وشهدت هذه الفترة إرهاصات الفكر الصهيوني بين المسيحيين في إنكلترا.. وكانت هناك نبوءة تسري في الأوساط المسيحية (البروتستانتية الصهيونية في إنكلترا وبعض فرق المنشقين المسيحيين في روسيا) بأن عام 1666 هو بداية العصر الألفي الذي سيتحقق فيه استرجاع اليهود لفلسطين. ولا شك في أن مثل هذه النبوءات على علاقة بالتوجه**

الاستعماري والاستيطاني. وقد تزايد في تلك الفترة أيضاً نشاط محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، وظهر الإصلاح المضاد في إيطاليا بنزعته المعادية لليهود.. ومن العوامل الأخرى انتشار يهود المارانو في كثير من موانئ البحر الأبيض المتوسط والمدن التجارية، فقد كانوا يحملون فكراً قبَّالياً.

في هذا المناخ، ظهر شبتاي تسفي. حيث قام بخرق الشريعة عام 1648، وأعلن أنه الماشيَّح، ونطق باسم يهوه (الأمر الذي تحرمه الشريعة اليهودية)، وأعلن بطلان سائر النواميس والشريعة المكتوبة والشفوية.. وقد رفض الحاخامات الاعتراف به، فطُرد من أزمير.. وحينما زار القاهرة، انضم إلى حلقة من دارسي القبَّالاه كان من أعضائها رئيس الجماعة اليهودية، روفائيل يوسف جلبي، مدير خزانة الدولة. ثم رحل إلى فلسطين عام 1662. وقد بشَّر به اليهودي الإشكنازي نيثان الغزاوي عام 1664، على أنه الماشيَّح الصادق الموعود.. وقد دخل شبتاي القدس في أيار/ مايو عام 1665، وأعلن أنه المتصرف الوحيد في مصير العالم كله، وركب فرساً (كما هو متوقع من الماشيَّح) وطاف مدينة القدس سبع مرات هو وأتباعه، وقد عارضه الحاخامات وأخرجوه من المدينة. ولكن تسفي أعلن عام 1666 أنه سيذهب إلى تركيا ويخلع السلطان، وتوجَّه إلى إستنبول في شباط/ فبراير عام 1666 حيث أُلقي القبض عليه. وفي أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، جاء الحاخام القبَّالي نحميا (من بولندا) لزيارة شبتاي، وقضى ثلاثة أيام في الحديث معه رفض بعدها دعواه بأنه الماشيَّح، بل أخبر السلطات التركية بأنه يحرض على الفتنة، **فقُدِّم للمحاكمة وخُيِّر بين الموت أو أن يعتنق الإسلام، فأشهر إسلامه وتعلَّم العربية والتركية ودرس القرآن. وأسلمت زوجته من بعده، ثم حذا حذوه كثير من أتباعه الذين أصبح يُطلَق عليهم اسم «دونمه»**.

وتُعتبَر حركة شبتاي تسفي أهم الحركات المشيحانية على الإطلاق، فقد هزت اليهودية الحاخامية من جذورها، حتى لم تقم لها قائمة بعد ذلك. **وثمة رأي يذهب إلى أن تسفي بهجومه على اليهودية الحاخامية التقليدية مهد الطريق للصهيونية التي ترفض القيود الدينية، كما ترفض الأوامر والنواهي وتُعلي الذات القومية على كل شيء. كما أن تَوجُّه تسفي للعمل على العودة الفورية إلى فلسطين يشبه، في كثير من النواحي، المشيحانية الصهيونية العلمانية التي ترفض الموقف الديني التقليدي الذي ينصح اليهود بالانتظار..وقد كان تيودور هرتزل معجباً للغاية بتسفي**[413].

* * *

تقسيم الجماعات اليهودية الحديثة

تنقسم الجماعات اليهودية اليوم إلى ثلاثة أصناف هي: الإشكنازيم والسفارديم والمزراحيم إضافة إلى مجموعات عرقية أخرى. الفلاشا على سبيل المثال، وذلك برغم ادعاء كوستلر أن اليهود المعاصرين ينقسمون إلى أشكناز وسفارد، وما ينم عنه هذا التصنيف من نزعة عنصرية عند مؤرخ معروف. ونلقي هنا نظرة عن كل مكون منها.

السفارديم: يهود شرقيون، (إسبانيولي)، (فرانك باليديشية)، والتسمية تأتي من «سفارد» وهو اسم مدينة في آسيا الصغرى استخدمت خطأ في ترجمات أسفار موشيه الخمسة، حيث جرى خلط بين سفارد وإسباميا (إسبانيا) وعليه اعتمد المصطلح للإشارة إلى الجماعات اليهودية في إسبانيا التي استقرت منذ الإمبراطورية الرومانية وفي العصر العربي حيث كان عصرهم الذهبي، وتحدثوا بالعربية إلى أن سقطت إيبيريا فتحدث اليهود بلهجة اللادينو الإسبانية، «وهي لهجة إسبانية دخلت عليها مفردات عبرية وتركية وبرتغالية»[414]، إلى أن تم طردهم سنة 1492. وبعد قرن من الزمان التحقت بهم جماعة المارانو التي كانت لا تزال متخفية في البرتغال. وقد حافظ هؤلاء المهاجرون على تراثهم وثقافتهم وزيهم وأسمائهم ويطلق عليهم الإسبان أو البرتغاليون.

وتعتبر اللادينو المعادل السفاردي للغة اليديش عند الإشكناز. وقد تشكلت بطريقة قريبة من الطريقة التي تشكلت بها اليديش. وكان متحدثو اللادينو يكتبونها بالخط «الراشي» الذي ابتدعه «ربى شلومو يريتسحات في القرن الحادي عشر. واستخدام لغة اللادينو نادر الآن وتكتب بالحرف اللاتيني..» ويجب ألا نقع في التسرع والاعتقاد أن اليهود السفارديم يعودون إلى أصل عرقي محدد. «فإن إقامتهم في إسبانيا لمدة تزيد على ألف سنة قد تركت عليهم وعلى مضيفهم بصماتها التي لا تمحى... فقد كان والدا سبينوزا برتغاليين من المارانوس هاجرا إلى أمستردام ثم إن الأسر اليهودية العريقة في إنكلترا (التي وصلت إليها منذ زمن طويل قبل التيار الذي تدفق إليها من الشرق في القرنين 19 و 20) ومنها إسرة مونتيفيوري ولوسداس... وساسون.. الخ جاءت كلها من الوعاء الإيبيري الخليط ولا يمكنها الادعاء بالانتساب إلى أصل نقي أكثر نقاء من اليهود الإشكنازي»[415].

استقر السفارد في بلاد مثل هولندا وإنكلترا وجنوب فرنسا التي كانت أنهت مرحلتها التجارية وعلى وشك الدخول في الثورة الصناعية. في هذه المناطق لم تفرض عليهم أية قيود نظراً للدور المالي المصرفي الذي خبروه والذي يحتاجه المجتمع المتقدم اقتصادياً، وظهر يهود البلاط، كما شاركوا في افتتاح الاستيطان في العالم الجديد. وهنا بدأت أهمية رجال الدين تخفت

في غرب أوروبا لمصلحة أصحاب المال والخبرة الاقتصادية. في حين كان الإشكناز ملزمين على المكوث في ظل الحاخامية تحت حماية الإقطاع البولندي داخل مجتمعاتهم الغيتوية (الشتتل والقهال) يمارسون الوكالة (آرندا) على الإقطاعيات في أوكرانيا على وجه الخصوص. لذلك ومع تطور الاقتصاد البولندي والروسي وظهور البرجوازية وجد اليهود الإشكناز أنفسهم خارج العملية الانقلابية الجديدة، وازداد بينهم انتشار الأفكار الصوفية الغيبية مثل الحركة الفرانكية والحسيدية، إذ كانت القبَّالاه تشغل المكانة المركزية التي كان يشغلها التلمود من قبل. وقد حدث في هذه المرحلة أن ازداد عدد الإشكناز (بسبب ثورة خميلنتسكي وبدايات الثورة الاقتصادية في الغرب) ليشكلوا أغلبية ضمن يهود العالم ما سوف يكون له أثر كبير في مستقبل الجماعات اليهودية. **ومن هذه النقطة ومع تضاؤل دور يهود العالم الإسلامي، سيكون تاريخ الجماعات اليهودية في العالم هو تاريخ دور يهود أوروبا شرقاً وغرباً.** تزامن مع ظهور حركة الشبتاني (نسبة إلى شبتاي تسفي) والسبينوزية (نسبة إلى المفكر سبينوزا المتفاعل مع الحضارة الغربية والخارج على يهوديته) ما سوف يشكل علامة على تدهور سيطرة الحاخامية اليهودية.

الإشكناز: ورد في سفر التكوين وفي سفر أحبار الأيام الأولى، **أن إشكناز هو أحد أبناء جومر بن يافث. وورد أيضاً أنه أخ توجارما وابن أخ ماجوج**[416] وأن النبي يدعو شعبه وحلفاءهم بأن يهبوا ويدمروا بابل: «نادوا عليها ممالك أراراط ومنى وإشكناز». **وقد فسر هذه العبارة الزعيم الروحي لليهود الشرقيين في القرن العاشر «سادية جاوون» حيث قال: إنها نبوءة تخص عصره: فبابل رمزت إلى الخلافة العباسية، وإن الإشكناز الذين فرض عليهم مهاجمتها، كانوا إما الخزر أنفسهم وإما قبيلة حليفة. وبناء على ذلك يقول المؤرخ بولياك: «إن بعض المثقفين من اليهود الخزر الذين سمعوا حجج جاوون البارعة أطلقوا على أنفسهم اسم الإشكناز حين هاجروا إلى بولندا»، وأصبح اسم «الإشكناز» هو الاسم البديل عن «الخزر»، وعلى حد قول «كوستلر» «فإن لفظ يهودي هو مرادف فعلا لليهودي الإشكنازي».**

أما الاشتقاق الحالي لكلمة إشكناز فتعني ألمانيا، ومن هنا يشير المصطلح إلى يهود ألمانيا وفرنسا الذين هاجروا إلى إنكلترا وشرق أوروبا (خصوصاً بولونيا) بعد حروب الفرنجة. أما كوستلر فيقول: إن الإشكناز يعودون في الأصل إلى خزاريا الذين أسسوا المجر بعد هجرتهم منها وبالتالي يعودون إلى أصول تركية، وإن يهود ألمانيا وفرنسا جرت إبادتهم. وقد تمركز الإشكناز في منطقة الحدود (أوكرانيا التابعة لبولندا حينها) بين بولندا وروسيا القيصرية. وقد

لعبوا دور الجماعة الوظيفية التجارية في مجتمع متخلف اقتصادياً، إضافة إلى وظيفة الوكيل عن النبيل أو الإقطاعي في إخضاع الفلاحين لشروط عبودية قاسية.

وتعتبر لغة اليديش هي لغة اليهود الإشكناز ذوي الأصول الخزرية، دون غيرهم وهي لغة ملتبسة يعتقد الكثيرون بأصولها الألمانية، وهذا اعتقاد خاطئ لا أساس له. وتكتب لغة اليديش بأحرف عبرية وهي مزيج من السلافية والعبرية والكثير من المصطلحات التي كانت رائجة في المناطق الشرقية من ألمانيا الملاصقة للبلاد السلافية. ويقول آرثر كوستلر: «إن تطور لغة اليديش كانت عملية طويلة ومركبة، يحتمل أنها بدأت في القرن الخامس عشر، إن لم يكن قبل ذلك. إلا أنها بقيت لمدة طويلة لغة الكلام، أو قل نوعاً من اللغة المشتركة ولم تظهر مطبوعة إلا في القرن التاسع عشر.. وقد تكونت تلك اللغة الهجينة بفعل عدة عوامل متداخلة في الدولة البولندية التي كانت تنبعث، وكان حكامها يشجعون الهجرة إليها بهدف إعمارها وتطويرها، فكان المهاجرون الألمان خير من يقوم بذلك». ويقال إن مجموع الألمان الذين هاجروا إلى بولندا لم يقل عن أربعة ملايين.. وقد شكل هؤلاء المهاجرون مدناً حضارية، فيما تمركز اليهود الذين هاجروا من خزاريا بعد انهيار إمبراطوريتهم في مدن صغيرة خاصة بهم أطلق عليها اسم «الشتتل». وبسبب سيادة الثقافة الألمانية في بولندا، ودخول نظام التعليم الألماني إليها «راح البولنديون يقدرون مزايا الثقافة العليا التي جلبها الألمان إليهم وأخذوا يحاكون أساليبهم الأجنبية كما تولّع أفراد الأرستقراطية البولندية بالعادات الألمانية ووجدوا الجمال والمتعة في كل ما جاء من ألمانيا»»[417].

إذا كان هذا حال البولنديين أبناء البلاد، فكيف يكون حال مهاجرين جدد اقتلعوا من ديارهم وقدموا إلى مجتمع جديد؟! لم يجد هؤلاء الخزر أمامهم من سبيل إذا أرادوا النجاح في وطنهم الجديد، إلا تعلم اللغة الألمانية السائدة في بولندا، كما كان لزاماً عليهم أن يتعلموا لغة الشعوب السلافية التي كانوا يحتكون بها، ويعيشون بين ظهرانيها، ويتعاملون في حياتهم اليومية مع أبنائها، أضف إلى ذلك، ما كانوا يتلقونه من دروس دينية على أيدي الحاخامات واستماعهم إلى التوراه باللغة العبرية، **فتشكلت من كل هذا لغة هجينة بطريقة فوضوية غير قائمة على قواعد محددة: «يمكن بيان الفوضى التي شابت الهجاء بالرجوع إلى القواعد التي جاءت في الدليل اليهودي للشعب والذي ينص على ما يلي: أكتب ما تتكلم؛ أكتب بحيث يمكن لليهود البولنديين واللتوانيين أن يفهموك؛ راع اختلاف هجاء الكلمات المتحدة في الصوت والمختلفة في المعنى»**. وقد انتشرت هذه اللغة في أوساط المتهودين الخزر (الإشكناز)، باستثناء جزء من طائفة القرائين الذين استمروا في التحدث بلغتهم الخزرية الأصلية. ذلك ما جاء في أول إحصاء روسي أجري سنة 1897 [418].

أما في مسائل العبادة، فقد تبنى السفارد الصيغة البابلية، بينما تبنى الإشكناز الصيغة الفلسطينية، في حين يتبنى كلاهما التلمود البابلي، وهناك اختلافات بين المكونين، ويتصف الإشكناز بانغلاق أكبر يعود إلى انغلاق المجتمعات الغربية، بعكس السفارد. «ويلاحظ أن البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد. فالإشكناز كانوا يقفون دائماً **على هامش المجتمع الغربي، كشعب شاهد، ثم كأقنان ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يضطلع بالوظائف الهامشية نفسها، ولكنهم كانوا أكثر اندماجاً في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب**.. أما من الناحية الثقافية فقد كان السفارد أقل انغلاقاً على المجتمع الغربي وأكثر استيعاباً لثقافته وأسلوب حياته»[419].

وتنبغي الإشارة إلى أن الصهاينة يفضلون استخدام مصطلحي سفارد وإشكناز على مصطلحي شرقي وغربي، لأن الحدود تضيع هنا بين مكونات الجماعات اليهودية المتحدرة من أصل شرقي أو غربي ومن أجل التخصيص فإنّ الحديث يجري عن اليهود وليس عن كل ما يمت للشرق أوللغرب. وهذا يختزل الفالاشا وبني يسرئيل[420] اللذين لا ينتميان إلى أحد هذين المصطلحين، لأنه يفضل صياغتهما ضمن أحد المكونين المتكاملين حسب النظرة الصهيونية، مع أن المصطلحين كليهما يعرفان أساساً الجماعات اليهودية في العالم الغربي.

ومع ظهور الدولة القومية في أوروبا، ومع اتساع نطاق العلمانية، «لم يعد الانتماء الديني الإثني هو محك الهوية، لذلك بدأ يهود الغرب يصنفون أنفسهم بناءً على انتمائهم القومي، فهذا يهودي إنكليزي وذلك يهودي هولندي، وهلمجرا. أما على الأساس الديني فهم يهود إصلاحيون أو محافظون أو أرثوذوكس أو إلحاديون... وهكذا ضمر الانتماء السفاردي أو الإشكنازي، ولم يعد المصطلحان صالحين»[421].

مزراحيم

عيدوت مزراحيم: إشارة إسرائيلية إلى عموم الجماعات اليهودية الشرقية، ومن ضمنهم الذين كانوا يقيمون في المغرب العربي والعراق وإيران وأفغانستان واليمن، وكان هؤلاء يتحدثون كل بلغة بلده وموطنه. وعملياً لا يمكن اعتبار كل اليهود الذين كانوا يقيمون في هذه البلدان من أبنائها أصلاً، بل إن أعداداً كبيرة منهم قدمت من بلاد الخزر في الأساس، «ففي العراق على سبيل المثال وصل تعداد اليهود في عام 1947 إلى 18 ألف نسمة، بينما كان عددهم في النصف الثاني من

القرن التاسع عشر حوالى 50 ألفاً. وفي وسط آسيا كان عدد اليهود في عام 1856 يقدر بعشرة آلاف شخص، ثم قدر في عام 1921 بـ 45 ألف نسمة، ولم تحدث هذه الزيادة نتيجة للعوامل الطبيعية وإنما نتيجة لهجرة الكثيرين من اليهود الإشكناز من روسيا»[422].

وللعلم فإن أعداد اليهود الحقيقية في تلك البلدان كانت تتناقص في الواقع لأنّ «تغيير أعداد كبيرة من اليهود لديانتهم واعتناقهم للإسلام قد أديا إلى تضاؤل أعدادهم في المجتمع. علاوة على هذا، فإن حرص اليهود على تحديد النسل.. لعب دوراً مهماً في تضاؤل تعدادهم»... يضاف إلى ذلك تحول الكثير من يهود بعض البلدان الإسلامية إلى الديانة المسيحية نتيجة للنشاط التبشيري خصوصاً في إيران.. «حقاً فقد كانت ظاهرة اعتناق اليهود للديانة المسيحية شائعة في إيران أكثر من أي بلد آخر»[423]. ولولا بروز الظاهرة الاستعمارية، والحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر لكانت حركة الاندماج الطبيعي لليهود في مجتمعاتهم العربية والإسلامية قد أخذت دورتها الطبيعية. فعلى سبيل المثال، إن «صدور مرسوم كرسيه – الذي منح حق المواطنة الفرنسية ليهود الجزائر – وإقامة مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في المغرب قضت على إمكانات إندماج اليهود في مجتمعاتهم»[424]، ما يظهر دور الاستعمار على إبقاء النزعات الطائفية لاستغلالها.

الثورة الفرنسية 1789م

في القرن الثامن عشر، كانت تسيطر على أوروبا فترة «محاكم التفتيش»، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعارض العلوم التجريبية وتربطها بالشعوذة، وعلى أساس هذه الفتوى أمرت بحرق «جاليليو» الذي قال بكروية الأرض. وكانت الكنيسة تدعم النظام الإقطاعي، في وجه البرجوازية الصاعدة في أوروبا.

كان المجتمع الفرنسي مكوّناً من ثلاث طبقات: النبلاء والإكليروس وعامة الشعب المكونة من التجار والصناعيين والفلاحين. وكان الملك لويس السادس عشر ضعيف الشخصية، مغرقاً في ملذاته، بعيداً عن هموم الناس، وعاجزاً عن فهم التناقضات الجديدة في المجتمع الفرنسي، خصوصاً وأن بلاده كانت تمر بأزمة اقتصادية عنيفة، جراء مواسم الجفاف والركود، وتفشي المجاعة والأوبئة، وانتشار الفلتان الأمني.

أثرت الأزمة الفلاحية في بقية القطاعات من صناعة وتجارة وضرائب، فأمام قلة مداخيل الخزينة الملكية اضطر الوزراء إلى فرض ضرائب جديدة على النبلاء، إلا أنها أثارت غضب هذه

الفئة فقرروا العصيان والمطالبة بعقد المجالس العامة للأمة. وبعد خلاف دستوري على شكل انعقاد المجالس، أعلن عن تحويل المجالس الثلاثة إلى مجلس وطني، وأرغم الملك على القبول، واضطر النبلاء ورجال الكنيسة إلى الانضمام إلى بقية النواب الذين أعلنوا أن مجلسهم أصبح مجلساً تأسيسياً. **ثم لجأ المجلس إلى الشعب لتأييده، فاحتلت جماهير باريس سجن الباستيل الذي كان رمز الطغيان وأحرقته يوم 14 تموز/ يوليو 1789**. وأرغم الملك على إلغاء بعض التدابير العسكرية التي اتخذها ضد المجلس، ثم تدخلت الجماهير في شهر تشرين الأول/ أكتوبر لترغم لويس السادس عشر للانتقال من فرساي إلى باريس. **وكان من قرارات المجلس التأسيسي إلغاء معظم الامتيازات والحقوق الإقطاعية. ثم تم التصويت بالإجماع على بيان حقوق الإنسان.**

اتخذت الثورة الفرنسية مبادئها من أفكار الفلاسفة: جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيه، ورفعت شعار «الحرية والإخاء والمساواة».

ولكنه لم يمر الوقت حتى أغرقت الثورة البلاد في حمام من الدم، وأكلت الثورة أبناءها، وفي حفلة إعدامات متكررة، أعدم الطاغية «روبسبيير» كل رفاقه تقريباً إلى أن وصل بنفسه إلى المقصلة التي ابتدعها أحد الأطباء الثوريين لتكون وسيلة قتل مريح، والتي تعتبر من إنجازات الثورة الفرنسية!

ويقول المؤرخ الفرنسي «بيير كارون» الذي أصدر عام 1935م كتابًا عن المذابح التي حدثت في السجون الباريسية إبان عهد الثورة: إن هذه المذابح كان لها طابع (شعائري) جارف، وقد بدأت بالهجوم على بعض السجون بزعم القضاء على بعض المؤامرات التي كانت تدبر فيها لإطاحة الثورة.

كانت السنوات التي تلت الثورة وحتى سنة 1795 أكثر السنوات اضطراباً، حيث قتل مئات الآلاف، منهم من قتل الناس على شبهة العداوة للثورة، إضافة إلى ما ارتكبه روبسبيير في حق أقرب الناس إليه فسمي بالطاغية، ثم الصراعات التي حدثت بين أجنحة الثورة ذاتها. وما تناقل عن اليد اليهودية، في التحضير للثورة، أو المسببة لها، عبر التمويل أو عدمه.

ومن الإصلاحات التي أنجزتها الثورة إطاحة الدستور التاريخي لفرنسا، وتحويل الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية، ثم إلغاء النظام الجمهوري. ومات مئات الآلاف، وتخلت الدولة عن ديانتها الكاثوليكية لمصلحة العلمنة (فصل الدين عن الدولة)، وبيعت أوقاف الكنيسة لمصلحة

خزينة الدولة. إلا أن التغييرات لم تصل إلى المناطق النائية والأرياف، وبقي الفلاحون يستعملون الموازين والمقاييس القديمة، غير تلك التي تم استخدامها على زمن نابليون (كلغ، كلم، ليتر).

ومن الثورة الفرنسية اتخذ مصطلحا اليمين (المحافظون) واليسار (الليبراليون)، حيث تموقعت الجماعتان عن يمين رئيس البرلمان ويساره، وصار التصنيف يجري على أساسه. **ومنها أيضاً بدأ تصدير الثورة وأفكارها، وراح الجنرالات الفرنسيون ينظمون الثورات ويؤسسون الجمهوريات في الأراضي التي كانوا يحتلونها.**

في العام 1799 وصل نابليون بونابرت إلى السلطة وفي العام 1804 توج نفسه إمبراطوراً على فرنسا، ثم بدأ حروبه التوسعية في أوروبا التي استنزفت فرنسا مادياً وبشرياً، وجعل من أوروبا موطناً لحروب لا تنتهي، أكثر من استفاد منها هم المتمولون اليهود الذين كانوا يمولون جميع المتحاربين، ويشرفون بنتيجة ذلك على صك العملة الرسمية لكل من فرنسا وبريطانيا أقلّه.

والجدير بالذكر أن «الجنرال نابليون كان أول رجل دولة أوروبي يدعو اليهود إلى إقامة وطن لهم في فلسطين خلال الحملة التي قام بها على مصر والشرق في العام 1798م»[425]، كما اشتهر بنفاقه، فقد نافق المسلمين في مصر مدعياً بأنه مسلم، وأنه قد دمر روما لأن البابوية تريد الحروب الصليبية، وكان يلبس ثيابا شرقية، وأطلق على نفسه لقب باشا!

أما على صعيد السياسة الخارجية التي انتهجتها حكومات الثورة الفرنسية فقد كانت سياسة استعمارية خالصة، لا علاقة بينها وبين مبادئ الثورة نفسها، خصوصاً فيما يتعلق بشعوب آسيا وإفريقيا، والبرهان على ذلك ما يقوله مونتسكيه أحد أهم منظري الثورة الفرنسية ومشرّعيها، في كتابه روح القوانين: «لو طلب مني تبرير حقنا المكتسب في استرقاق السود لقلت إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أميركا الأصليين لم تر بدًا من استرقاق السود في إفريقيا لتسخيرهم في استغلال تلك البقاع الواسعة، ولولا استغلالهم في زراعة هذه الأرض للحصول على السكر لارتفع ثمنه».

ويقول في مكان آخر: «أولئك الذين سخروا في هذا العمل ليسوا غير أقوام من السود، فطس الأنوف لا يستحقون شيئًا من رحمة أو رشاد»، ليضيف: «إنه لا يتصور مطلقًا أن الله بحكمته السامية قد وضع في تلك الكائنات السود أرواحًا يمكن أن تكون طيبة».

* * *

القرن التاسع عشر والتحضير لاغتصاب فلسطين

منذ حملات الفرنجة لم يكن مفهوم القومية قد نضج في أوروبا بعد، لذلك أخذت الحروب غلافاً دينياً لهدف اقتصادي. ولم يكن الادعاء القومي اليهودي قد بدأ في الإعلان عن نفسه، قبل أن تتضح معالم الأطماع الأوروبية في المنطقة، واتجاه الساسة الأوروبيين لاستغلال الجماعات اليهودية مرتين: مرة بتمويل الجحافل المتجهة نحو المشرق العربي، ومرة ثانية عبر تحريض هذه الجماعات لإنشاء وطن قومي يكون بمثابة قلعة غربية أوروبية متقدمة في قلب المنطقة العربية المستهدفة. أما الوعي القومي العربي فلم يكن مقدراً له أن يخرج إلى العلن، إلا بعد أن أخذت النخب العثمانية المحتلة تنحو هذا النحو. ويقول الباحث الروماني إيلي بويا: إن يقظة الوعي القومي العربي، وضعت على علاقة مع الصدام بين الشرق والغرب، وذلك عبر حملة نابوليون في مصر (1789– 1801) ومن خلال تكثيف نشاط الإرساليات المسيحية. «وبالرغم من ذلك، فإنه من خلال الحملات التي قوبلت بالمقاومة والتشكك من قبل السكان، قد افتتحت طريق التدخل للقوى الأوروبية في شؤون شعوب المنطقة. فبعد قليل تلت حملة القوات الانكليزية (1801–1803) على مصر»[426]، وكان رجل مصر القوي محمد علي الكبير يتجه نحو إقامة دولة قوية، يعتمد فيها على علاقاته الأوروبية، وعلى النزعة القومية العربية في وجه التتريك. «وبعدما نجح في القضاء على مناورات الإنكليز ومؤامراتهم. وجه محمد علي ضربة قاضية للحكم الفاسد والرجعي للمماليك، ودشن مجموعة من الإصلاحات، إلا أن إشغاله في قمع الثورة اليونانية لمصلحة السلطنة العثمانية، كما تفرغه لمواجهة الوهابيين المدعومين من بريطانيا التي كانت تسعى إلى تقوية نفوذها في الخليج العربي. أثرت في مشروعه الكبير، لمصلحة مملكة وراثية على الأراضي المصرية[427]. وقد تجسدت السيطرة الإنكليزية–الفرنسية بعد ذلك بشكل أوضح مع افتتاح قناة السويس سنة 1869.

أما في الطرف الآخر لإفريقيا، في الجزائر، فقد بدأ الفرنسيون منذ العام 1830، حملة السيطرة، التي ووجهت بمقاومة عنيفة بقيادة الأمير عبد القادر. وبالرغم من الحرب الطويلة، نجحت فرنسا في إحكام السيطرة على الاقتصاد الزراعي للبلاد، مبتدئين باستعمار ضخم لها، وبعملية تغريب لغوية وقمع قومي عنصري.

بدأ منذ هذا الزمن، التحضير لإقامة دولة لليهود في فلسطين، فقد «أنشأ اللورد بالمرستون سنة 1838م، أول قنصلية لبريطانيا في القدس، استجابة لإلحاح اللورد شافتسبري.. واختار بالمرستون صهيونياً مسيحياً وصديقاً للورد شافتسبري هو وليم يونج ليكون أول نائب لقنصل بريطانيا في القدس». «وكان عدد اليهود في فلسطين في ذلك الوقت 9690 شخصاً»، حسب تقرير يونج. وفي العام التالي، 1839، أصدر وزير البحرية البريطانية هنري إنس (Henry Innes) مذكرة «يدعو فيها دول أوروبا الشمالية وأميركا للاقتداء بقورش، وتنفيذ إرادة الله بعودة اليهود إلى فلسطين». كما رفع اللورد شافتسبيري شعار «وطن بلا شعب لشعب بلا وطن»، ودعا إلى مساهمة البشر في تحقيق إرادة الله في عودة اليهود. وقد تبنى دعوته وزير خارجية بريطانيا بالمرسون (ولكن من باب الجدوى الاستراتيجية، وكان يخطط لوراثة التركة العثمانية).

ومن أجل وضع مصر في الأغلال المالية لإلهائها عن لعب دور إقليمي يعكر صفو المخططات الاستيطانية الغربية المقبلة، «فقد استعمل نظام «القروض»، في وقت بدأت الحركات المقاومة للاستعمار بالظهور، وتوجت هذه الحركات بتمرد عرابي باشا في أيلول/ سبتمبر 1881.. وقد توافر للاحتلال الإنكليزي غطاء شرعي عبر التوقيع على الاتفاقية التركية – الإنكليزية 1887»[428]. وكانت قناة السويس قد وضعت مصر تحت أعباء مالية ضخمة، وعبر سياسة لحس المبرد صارت، أي مصر، تخضع أكثر لبريطانيا، وليس خافياً دور المال اليهودي في هذا المجال. وعليه جرى تحويل مصر إلى محمية إنكليزية. وكخطوة لها دلالة مستقبلية عمدت بريطانيا إلى «تأسيس أول خطوط للسكة الحديد في فلسطين، بين يافا وأورشليم»[429].

إذن، وبناءً على الخريطة الاستعمارية البريطانية الفرنسية للمنطقة، أصبح بالإمكان وضع التصور التفصيلي للمشروع الاستيطاني الصهيوني في قلب المنطقة العربية، حيث إن هذا **المشروع لم يكن يعني منذ البداية سوى مشروع المالية العليا الأوروبية التي اعتمدت استراتيجية الحلول الاستعمارية للقضايا الاجتماعية من أجل الحيلولة دون الثورة الاجتماعية. وعليه كان تسخير ستة ملايين يهودي أوروبي للسطو على ثروات الشرق لمصلحة المركز الاستعماري الأوروبي.[430] أما جلب المادة البشرية اليهودية لتغذية هذا المشروع، فقد وضع تفاصيلها الكولونيل تشرشل في دمشق المحتلة في 24 شباط/ فبراير سنة 1841. في مذكرة أرسلها في حزيران/ يونيو 1841 إلى المليونير اليهودي البريطاني موزيس مونتيفيوري، خطة قيام المالية العليا اليهودية بتأسيس وقيادة حركة استعمارية أوروبية بهدف تأسيس مستعمرة عنصرية أوروبية في جنوب**

سورية، في الوقت الذي كانت فيه الأغلبية الساحقة من الجماعات اليهودية في أوروبا تقف ضد الحل الاستعماري لقضاياهم الاقتصادية والاجتماعية. وقد حالت مقاومة الجماعة اليهودية في ميونيخ دون انعقاد المؤتمر الاستعماري الصهيوني الأول في مدينتهم وأرغموا قيادة الحركة الصهيونية على نقل مكان انعقاد المؤتمر إلى مدينة بازل السويسرية.

وفي مذكرة للسيدة «جيرترود لوثيان بل» الضابط السياسى المساعد فى بغداد إبان الاحتلال الاستعماري البريطاني، تلقي الضوء على موقف الجاليات الأوروبية – اليهودية من مشروع استعمار سورية، **حيث تستعرض «بل» الوضع في فلسطين وتستنكر توطين جماعة ليست جزءاً من الشعب الفلسطيني إلا بقدر ما يصدر عن المعتقد الديني الذي يوصي لهم بهذه الأرض كميراث، حيث لا يتعدى حجم اليهود ربع السكان في أحسن الأحوال.** ولقد دعمت الهجرة اليهودية بطريقة مصطنعة بالإعانات والتبرعات من أصحاب الملايين من اليهود الأوروبيين. ولقد استقرت الآن جذور المستعمرات الجديدة وأصبحت تتمتع بالاكتفاء الذاتى أو تكاد. ولا ريب في أنّ الأمل الديني في قيام دولة يهودية مستقلة فى فلسطين فى يوم ما موجود، غير أنه ثمة شك فى أن تكون هناك رغبة ملحة بين اليهود المحليين فى تحقيق هذا الأمل، اللهم إلا إذا كان ذلك للتخلص من الاضطهاد التركي، ولعل هذا الأمل يعيش أكثر فى صدور أولئك الذين يعيشون بعيداً عن تلال فلسطين الصخرية ولا ينوون تغيير محل إقامتهم. ولقد كان اللورد كرومر يجد متعة فى رواية حديث كان قد دار بينه وبين أحد مشاهير اليهود الإنكليز الذي قال له: «اذا ما قامت مملكة يهودية فى القدس فلن أتوانى عن تقديم طلب للعمل كسفير لها فى لندن». ولكن بالرغم من مثل هذه المشاعر السائدة فهناك عاملان يلغيان فكرة فلسطين اليهودية المستقلة من واقع السياسة العملية وهما: «إن الإقليم كما نعلم ليس يهودياً، وإنه ما من مسلم أو عربى يقبل سلطة يهودية؛ والسبب الثاني هو أن العاصمة القدس هى مدينة مقدسة بالتساوي بالنسبة إلى الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام ولا يجب أن توضع أبداً– طالما كان فى الاستطاعة تجنب ذلك تحت السلطان المنفرد لأية طائفة من الطوائف المحلية مهما كانت دقة الضمانات التى يمكن إعطاؤها لحماية حقوق الطائفتين الأخريين».

ويذكر أحد التقارير البريطانية أن **الحكومة الفرنسية تنظر بعطف إلى الأهداف الصهيونية، وأن السفير الفرنسى قد تقدم إلى وزارة الخارجية البريطانية باقتراح لإقامة أمة يهودية فى الإحساء بالجزيرة العربية، متناسياً أنه رغم أن هذه المنطقة تعتبر إقليماً تركياً من الناحية الفنية، إلا أننا قد عقدنا معاهدة فى عهد قريب لا يتجاوز عام 1915 نتعهد بموجبها بصفة عامة بتأييد**

ابن سعود واتباعه فى احتلالهم لهذه البلاد، وإنني أذكر هذا لأثبت أن الفرنسيين يحرصون على توطين اليهود في أي مكان، وإذا لم يكن لديهم سبب آخر لهذا الحرص فلكي يجدوا ذريعة للتخلص منهم، أو من أعداد كبيرة منهم!

ويورد التقرير البريطاني قائمة طويلة بأهم الشخصيات اليهودية الأوروبية التي تقف ضد عملية الاستيطان الاستعماري في فلسطين، منهم من يغالي في يهوديته، ومنهم المبدعون أيضاً. ولم يؤيد الخطة الاستعمارية إلا اللورد روتشيلد وهربرت صموئيل. فيما يؤكد التقرير رأي يهودي يقول: «إن الرابطة الكبيرة التى توحد يسرائيل ليست رابطة الجنس وإنما رابطة الدين»[431].

«معاداة السامية»

في العام 1781 استعمل الألماني شلوتزر مصطلح «السامية» للإشارة إلى مجموعة اللغات الشرقية التي تعود إلى جذر مشترك وأهمها: الآشورية، والآكادية، والبابلية، والفينيقية، والكنعانية، والعبرية (لهجة آرامية) والآرامية، والأمورية (العمورية) والأمهرية والعربية. والمصطلح أخذه شلوتزر من التوراه، وقد أصبح هذا الوصف يتخذ للإشارة إلى الشعوب التي تكلمت بهذه اللغات، أما الصهاينة فقد جعلوا التسمية حكراً على اليهود. **ولأن التسمية ليست علمية، فقد اقترح الآثاري غيلب (I. J. Gelp) استعمال تسمية «الأقوام المشرقية أو الأسرة المشرقية»،** وإعادة النظر بتسمية الأسرة السامية لأن هذه النظرية لا تستند إلى مبدأ الانتشار الجغرافي بل تستند إلى فرضية توراتية أو عنصرية. وعليه، أن يعاد النظر إلى اللغات الموجودة في المشرق باعتبارها أسرة تمثل نتاجاً اجتماعياً تطور عبر الزمن وتصنيفها على هذا الأساس من جديد.

أما مصطلح اللاسامية فهو مصطلح يعطى لمعاداة اليهودية كجماعة دينية، وقد بدأ استعماله من قبل فيلهلم مار الألماني منذ منتصف القرن التاسع عشر للدلالة على حالة التعصب ضد اليهود في أوروبا. وقد جاء في فترة كانت الصهيونية المسيحية في طورها النشط، وكانت بوادر التأشير إلى التغيير في الذهنية الأوروبية في مقاربة موضوع اليهود، من باب التأييد و التضامن هذه المرة.

وتاريخياً، تعود كراهية المسيحيين لليهود إلى القرون الأولى للمسيحية، حيث يتهمون اليهود بقتل المسيح، ويحملونهم دمه عبر الأجيال، إضافة إلى اضطهاد تلاميذ المسيح، والمسيحيين الأوائل، ناهيك عن التصرفات اليهودية ودعوات الكراهية في كتبهم، وعنصريتهم التي عززت مناخ

الكراهية، إضافة إلى الدور الوظيفي الذي قاموا به على مر العصور، من تعاطي الربا، إلى التقرب من السلطان بالوشاية، وتمثيل النبلاء ولعب دور أدوات قمع للفلاحين وابتزازهم. وما روحية العنصرية والتعالي اليهودي إلا سبباً يعزز مناخ الكراهية عند الشعوب الذين يعيشون بين ظهرانيها، وهي عقدة نفسية متأصلة تربوا عليها في معازلهم، وفحواها أنهم متميزون عن بقية البشر، حيث تقول الكاتبة الألمانية س. مارغولينا (يهودية): «**ليس اليهودي اختلافاً خيالياً، إن وعي الذات يبدأ لديه من الإحساس بـ «الاختلاف». وهذا الإحساس يضرب بجذوره في موروث الاصطفاء الذي فقد منشأه الديني ليتجسد في شكل دنيوي للشعور بالتفوق والنرجسية**»[432].

كل هذه الأمور عززت كراهية المسيحيين بالنسبة إلى اليهود الذين عايشوهم، ووصفوهم بأقذع الأوصاف، من البخل والانتهازية والغدر والدناءة والخضوع. وقد عزز مناخ الكراهية هذا قيام أحزاب وحركات أوروبية قومية شوفينية تعاملت مع اليهود كمجموعة إثنية خارجة عن الإطار القومي المحلي، كحركة الوحدة الألمانية (voelkisch mouvement) التي ضمت نخباً مهمة من الألمان. كما أن قيام أحزاب انتهازية أرادت بشعارات كهذه معادية لليهود اكتساب التأييد، **كما سنرى في حالة النازية العنصرية، التي أظهرت معاداتها لليهود، بينما تعاونت مع النخب من المتمولين اليهود على أرفع المستويات**. يضاف إلى ما سبق أعمال مخابرات الأنظمة التي كانت تريد تصدير بعض أزماتها بإلصاق تهمة الكراهية اليهودية لبعض المعارضين، كما حدث في روسيا بالنسبة إلى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، والذي وإن صدقت ادعاءات اليهود بأن مخابرات القيصر الروسي هي التي كتبته، لكنه يجسد تماماً عقلية قيادة الجماعات اليهودية بكل أوصافها.

ولقد تعززت نزعة معاداة السامية أكثر ما تعززت مع حكم النازيين بقيادة هتلر سنة 1933، حيث أمر الحزب بمقاطعة اليهود وبحرق كتبهم، إضافة إلى سن قوانين معادية لهم. وفي العام 1938 دمر النازيون معابد اليهود وحطموا نوافذ متاجرهم فيما يعرف بـ «ليلة الزجاج المكسور»، ومذاك خرج شعار تصفية اليهود النازي إلى العلن.

وقد ألصقت باليهود تهمة تخريب الاقتصاد الألماني، مع أنه لا يمكن تناول الحديث المشابه «عن الدور الذي مارسه الهوغنوت (بروتستانت على مذهب كالفن-م) المهاجرون من فرنسا على تطور الرأسمالية في ألمانيا»[433].

وقد استغل الصهاينة هذا الموضوع أيما استغلال في عملية التخجيل العامة التي مارسوها ضد كل من يوجه أي نقد إليهم. وعليه فقد أصبح اليهود كثيري الشكوى يرتفع صوتهم بسرعة،

ويشترون الإعلام لنشر ما يتعرض له بعضهم وتضخيمه، وإظهاره على أنه استهداف جماعي، أو إثني، حتى أصبحت الظاهرة العامة أنه ما «من مسألة حادة بالنسبة إلى اليهود إلا وتتسابق إلى تناولها في الحال صحافة العالم بأسره، فقد ظهر ذلك، مثلاً، في «قضية دريفوس»، و«قضية بيليس»، أو «قضية الأطباء». [434]

ومن أجل خدمة الأهداف الصهيونية، انسحب موضوع اللاسامية عالمياً، خدمة لتوحيد الجماعات اليهودية تحت قيادة الصهيونية، عبر إظهار الكره العالمي لليهود، فقط لأنهم يهود، ما يعني أنهم عرق واحد، ولا حل لقضيتهم سوى بإعطائهم حق إقامة دولة خاصة بهم تعطيهم الأمان من ظلم الشعوب كافة! وإلا فما هو المشترك بين اليهودي اليمني واليهودي الأميركي، حتى إذا كانا يعيشان في «إسرائيل»؟ حسب تساؤل ريمون آرون، وكان ستالين قد طرح السؤال نفسه: ما الشيء المشترك بين يهود القوقاز واليهود الأميركيين؟»[435].

هكذا صار الرأسماليون اليهود يستعملون نفوذهم المالي في سبيل إظهار اهتمامهم بوضع اليهود الخاص في أية دولة في العالم، وإبراز أنهم يتبعون مركزاً واحداً يدافع عنهم. وكمثال نورد أنه «ومنذ بداية القرن العشرين اصطدمت مباحثات الحكومة الروسية بشأن القروض في إنكلترا وفرنسا وأميركا بمقاومة من جانب البيوتات البنكية اليهودية التي كانت تشترط تغيير وضع اليهود في روسيا»[436]، وهكذا نرى أن نزعة الصهيونية هذه تخدم الوظيفة التي يريدها المركز الرأسمالي اليهودي لليهود، لكي يكونوا غب الطلب في خدمة مصالحه.

الحركة الصهيونية

يقول لينين: «**الصهيونية هي تيار رجعي للبرجوازية اليهودية**».

ويقول الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» «إن الصهيونية هي:

1- **مذهب سياسي**، فمنذ عام 1869 أصبح مصطلح الصهيونية مرادفاً للحركة السياسية التي أسسها تيودور هرتزل؛

2- **مذهب قومي** لم يولد من رحم الديانة اليهودية بل من النزعة القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر، فلم يكن مؤسس الصهيونية السياسية هيرتزل يعترف بالمرجعية الدينية حيث قال

«إنني لا أخضع لأى وازع دينى»؛

3- **مذهب استعماري** حيث لا يخفي تيودور هرتزل الواعي تماماً بحقيقة أهدافه بالمرحلة الأولى بالنسبة إليه وهى تأسيس شركة ذات امتيازات تحت حماية إنكلترا أو أي قوة استعمارية أخرى، وذلك إلى حين تحويلها إلى دولة صهيونية يهودية، وهذا هو السبب فى اتجاهه إلى من أثبت مهارة وحنكة في هذا النوع من الأعمال، ألا وهو التاجر البريطاني الاستعماري (سيسيل رودسى) الذي استطاع عن طريق شركته ذات الامتيازات أن يقيم دولة جنوب إفريقيا والتي تسمى أحد أجزائها باسمه وهو (روديسيا). ففي 11 يناير/ كانون الثاني 1902 كتب هيرتزل لسيسيل رودسى يقول «أرجو أن تبعثوا لي بخطاب يفيد أنكم درستم مشروعي وأنكم توافقون عليه، وقد يطرح لديكم تساؤل عن السبب في توجهي إليكم، والإجابة إن مشروعي مشروع استعماري».

بينما يتناول الباحث عبد الوهاب المسيري الدور الوظيفي للصهيونية، حيث يوضح **أن الفكرة الصهيونية ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، وهو عصر الاستعمار الأوروبي القومي للقوميات الأخرى، وقد استمد كثيراً من مبرراته من الأفكار القائمة على التمييز العنصري، وتلك الخاصة بتفوق الرجل الأبيض،** وغيرها من الأفكار المثلية الرائجة آنذاك. وعليه انطلقت فكرة قيام كيان يهودي، ثم تحول إلى صهيوني، من قبل الزعامات الأوروبية قبل أن تتحول إلى تنظيم لليهود والصهاينة. **فقد أعلن نابليون عام 1799 عن استعداده للسماح لليهود بإعادة بناء الهيكل في القدس إذا ساعدوه في حربه مع بريطانيا العظمى من أجل السيادة على الشرق الأدنى والطريق إلى الهند؛** وأعلن بسمارك عن رغبته في **إنشاء كيان يهودي حول نهر الفرات لحماية مشروع خط الملاحة الألماني التجاري الذي فكرت ألمانيا آنذاك في إنشائه لتخرج من دائرة احتكار بريطانيا للطرق التجارية المؤدية إلى الشرق الأقصى.** وفي العام 1837 طلب بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا من سفيره في استنبول **الاتصال بيهود الشرق الأدنى ليطلبوا حماية بريطانيا لتتمكن من تحقيق وجود لها على غرار الوجود الذي حققته فرنسا في الشرق الأدنى تحت شعار حماية المسيحيين الكاثوليك وذاك الذي حققته روسيا القيصرية أيضاً تحت شعار حماية المسيحيين الأرثوذكس. وكانت خطط لورنس أوليفنت 1880 عضو البرلمان الإنكليزي تقترح إقامة مستعمرة يهودية شرقي الأردن، ونقل الفلسطينيين أصحاب الأرض إلى محمية على غرار الهنود الحمر. فيما تعهّد رئيس الوزراء دزرائيلي إلى أوليفنت مفاوضة السلطان العثماني للموافقة على استيطان اليهود**[437].

عند نهاية القرن التاسع عشر، كانت القوى الاستعمارية تتوج نتاج عملها الفكري للسيطرة على قلب المنطقة العربية، وكانت البروتستانتية قد أضحت لاعباً أساسياً في قولبة الفكر السياسي الأوروبي والأميركي ما وراء البحار- وخصوصاً في المشرق العربي - وتلاقت المصالح البروتستانتية الصهيونية مع مصالح السياسة الاستعمارية، إن لم تكن تماهت معها، وكانت عين البروتستانتية التي طُعّمت بالفكر التلمودي المتخلف، على فلسطين، وكانت عين المستعمر البريطاني، ومطامحه المستقبلية على البقعة نفسها، لما تمثله من اتصال إجباري بين مختلف مناطق الشرق العربي؛ ففلسطين تفصل بين شبه الجزيرة وسورية، وهي تفصل آسيا عن إفريقيا، وهي تفصل بين البحرين الأبيض والأحمر، وتقع على تخوم قناة السويس. وليس من المبالغة القول إنه لو لم تظهر في أوروبا حركة الاحتجاج البروتستانتي، لما كان هناك من أثر لما عرفه العالم من شيء اسمه الحركة الصهيونية. ويظهر ذلك بجلاء، أن هذه الحركة ليست أكثر من استثمار عنصري أوروبي، لمعاناة مجموعة بشرية خلقوها لها، استثمار في مشاريع استعمارية خبيثة، استغلت، حتى ولو لم يكن هذا سببها الظاهر يومها.

وقد استغلت البروتستانتية، نصوص التوراه والتلمود المشبعة بروح العنصرية، والتي أشعرت اليهود بالتميز، وتالياً الانعزال والرهبة من الآخرين، ما دفع باليهود نحو الغيتو[438]. ولم تكن الذهنية العنصرية الأوروبية بعيدة عن تغذية هذا الشعور، حيث دُفع اليهود بقرار رسمي إلى تأسيس الغيتو أولاً في النمسا. ونظراً إلى سلوك اليهود الذي كان يبدو مريباً بالنسبة إلى الأوروبيين، وخصوصاً مع ظهور النزعات القومية في أوروبا، ومع بروز الثورة الصناعية وتحول أوروبا نحو الرأسمالية وتشكيل برجوازية مالية أوروبية متحررة من القيود الدينية المسيحية التي كانت تحرم الربا، تراجع الدور الوظيفي التاريخي لليهود كوسطاء ماليين أثناء العصر الإقطاعي. وزيادة على ذلك نوعية الأعمال التي كان يقوم بها اليهود إضافة إلى الربا، كتجارة الذهب وممارسة الاحتكار، ما دفع المجتمعات الأوروبية، وكذلك الأنظمة الحاكمة للاشتباه بدورهم في الأزمات. إضافة إلى النزعة الدينية والعنصرية عند الأوربيين، فكان أن أصبح الانتقام اضطهاداً موجهاً في أكثر الحالات ضد اليهود.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهر حاخامان دعيا اليهود إلى تمهيد الطريق للمسيح المنتظر بإقامة وطن قومي، وظهر الفيلسوف الألماني اليهودي موزيس هس في كتابه «روما والقدس» وقال «إن المشكلة اليهودية تكمن في عدم وجود وطن قومي لليهود».

هكذا بدأت تتشكل الصهيونية كإيديولوجيا وكحركة سياسية. **إلا أن الصهيونية الحديثة لم تستطع الظهور إلا عندما تمت علمنة الحياة اليهودية عن طريق حركة التنوير اليهودية**

«الهسكلاه» والتي ترأسها موزيس مندلسون في القرن الثامن عشر الميلادي، حيث ساهمت بالابتعاد عن اليهودية الأرثوذوكسية وخلق روح قومية تتوحد عن طريق الدين. في البداية حاولت حركة التنوير صهر اليهود في المجتمع الأوروبي. وسعت حركة الإصلاح اليهودية التحررية في ألمانيا إلى اعتبار اليهودية ديناً يدخل في تركيبة الشعب الألماني، وبالتالي على اليهود الاندماج وتقبل الثقافة الألمانية.

ومنذ العام 1841، شجع تشارلز تشرشل (الجد الأكبر لونستون تشرشل) رئيس المجلس اليهودي في لندن على تولي اليهود أنفسهم استعادة فلسطين بدعم القوى الأوروبية.

وفي العام 1852، هاجر القس جريسون، وهو أحد رواد الحركة الصهيونية المسيحية الأميركية، من أميركا إلى فلسطين واعتنق اليهودية، وعمل مستشاراً للحكومة الأميركية في القدس، ثم قنصلاً عاماً لها[439].

بدأت عمليات استكشاف فلسطين تمهيداً للاستيطان منذ العام 1865 بتمويل من صندوق استكشاف فلسطين (برعاية الملكة فكتوريا). و«ركزت تقاريرها على أمرين: الأول هو أن حالة التردي والتقهقر في فلسطين سببها المسلمون العرب. والأمر الثاني هو أن عودة اليهود إلى فلسطين ستعيد إليها الازدهار والعمران»[440].

وفي العام 1866، أرسلت أول بعثة بروتستانتية أميركية بقيادة القس آدامز لتستوطن في فلسطين مع 150 قسيساً. وفي العام التالي، أسست أول مستوطنة أميركية بمشاركة 70 شخصية دينية إنجيلية. «وفي العام 1873، وصلت بعثة الجنرال تشارلز وارن، موفداً من قبل الجمعية العلمية البريطانية لدراسة الموارد الطبيعية والثروة المائية في فلسطين، ونشر تقريرها 1875 مشجعاً للصهيونية العالمية، التي كانت وراء هذه البعثة، على القيام بالدعاية القائلة بإمكانية استيعاب فلسطين عدة ملايين من السكان، حتى في النقب الصحراوي، إذا أمكن إيصال المياه إليها من البقاع الشمالية من فلسطين»[441].

وفي العام 1878، ألف القس وليم بلاكستون (أبو الصهيونية الأميركية) كتاب «المسيح آت». **وفي العام نفسه «أسس بلاكستون منظمة تدعى «البعثة العبرية من أجل يسرائيل» (Hebrew Mission on Behalf of Israel) ولا تزال هذه المنظمة مستمرة في مهمتها**

حتى اليوم باسم جديد هو «الزمالة اليسوعية الأميركية» (American Messianic Felloship)، وتعتبر هذه المنظمة حتى اليوم قلب جهاز الضغط الصهيوني في الولايات المتحدة»[442]. وكانت خطط لورنس أوليفنت 1880 عضو البرلمان الإنكليزي تقترح إقامة مستعمرة يهودية شرقي الأردن، ونقل الفلسطينيين أصحاب الأرض إلى محمية على غرار الهنود الحمر.

لم يكن يهود أوروبا الغربية في تلك الأثناء يرغبون بغير الحصول على الحقوق المدنية، ولم يرغبوا في الهجرة إلى فلسطين، لأن الحركة الصهيونية بين اليهود لم تكن قد ظهرت بعد. **لكن الأوضاع السياسية والاضطهاد العنصري لليهود جاء ليظهر وكأن اليهود لايستطيعون الاندماج في الثقافات الأخرى حتى في ظل العلمنة**، حيث ظهرت سلسلة أعمال عنصرية ضد اليهود خصوصاً في روسيا بعد مقتل القيصر ألكسندر الثاني سنة 1881، ما دفع ببعض اليهود للهجرة إلى الولايات المتحدة، وظهرت قضية الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس الذي اتهم بالخيانة عام 1894 لأنه يهودي، والذي أظهر وجود اللاسامية في الجيش الفرنسي. فلجأ الصهيوني البروتستانتي بالمرستون إلى يهود أوروبا الشرقية الذين كانوا يعانون الاضطهاد في رومانيا وبولندا وأوكرانيا وروسيا بعد اغتيال القيصر.

وفي الوقت نفسه كان ملحق سفارة بريطانيا في فيينا وليم هشلر ينظم عمليات نقل يهود روسيا إلى فلسطين، ونظم مؤتمراً لهذه الغاية في فيينا عام 1882، وفي العام 1894 نشر كتابه «عودة اليهود إلى فلسطين».

تزامن الإعلان عن البرنامج السياسي للمؤتمر الصهيوني اليهودي الأول مع تدفق يهود أوروبا الشرقية إلى بريطانيا والولايات المتحدة. لم يكن جوزف تشمبرلين (1836- 1914) مرتاحاً لهذه الهجرة إلى بريطانيا خوفاً من الانعكاسات السلبية على الاقتصاد البريطاني ومن مزاحمة الأيدي الرخيصة للمهاجرين اليهود للطبقة العاملة في بريطانيا»[443]**، ولذلك رأى تبني هجرة اليهود إلى العريش أو أوغندا أو أي منطقة أخرى**. ولم يكن الهم في الولايات المتحدة يختلف كثيراً، فقد كانت هجرة يهود روسيا إليها، وعدم الرغبة في استيعابهم، ثم اقتراح بلاكستون بتحويلهم إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس وافق الرئيس ولسون ومجلسا الشيوخ والنواب على وعد بلفور، حين صدوره.

وتجدر الإشارة إلى أنه حينما ظهرت الحركة الصهيونية، كانت بعض أشكال القيادة التقليدية لا تزال سائدة في الجماعات اليهودية، برغم تَزايُد تحديث أعضاء الجماعات وإدماجهم في

مجتمعاتهم. ولا يمكن فهم سلوك الزعامات الصهيونية في شرق أوروبا إلا في ضوء هذه الحقيقة. **وقد كانت منظمات أحباء صهيون منظمات حديثة تنطلق من مفاهيم حديثة مثل تطبيع الشخصية اليهودية وحل المسألة اليهودية عن طريق الاستعمار.**

وللتعّرف إلى كيفية انتقال القيادة من الحاخامية إلى العلمانية لدى الجماعات اليهودية، **نعود إلى نهايات القرن الثامن عشر، حيث كان التحدي الأكبر للحاخامية هي حركة التنوير (مسكليم)، التي بدأت «بتأييد من التجار اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الجديد الذي جعل وجود الجماعات الوظيفية (اليهودية وغير اليهودية) غير ذي موضوع. وقد تلقى هؤلاء تعليمهم خارج المحيط اليهودي التقليدي. وكانوا قادرين على التعامل بكفاءة مع العالمين اليهودي والمسيحي والتقليدي والحديث، فطرحوا أنفسهم باعتبارهم القيادة المنطقية للجماعة اليهودية... وكانت الحكومات الغربية الحريصة على تحديث أعضاء الجماعة اليهودية وعلى علمنتهم، تؤثر التعامل معهم، وهذا يعني أن دعاة التنوير كانوا، مثل يهود البلاط يكتسبون شرعيتهم من عالم الأغيار. وحينما ظهرت الحركة الصهيونية لجأ بعض قيادييها من أحباء صهيون، بالرغم من علمانيتهم، إلى الحاخامية للمساعدة، وقد طلب الصهيونيان ليو بنسكر وموشيه ليلينبلوم من الحاخام موهيليفر التدخل لدى الأثرياء مثل هيرش وروتشيلد للمساعدة على المشروع الاستيطاني، إلى أن جاء حاييم هرتزل وحل مسألة الاستيطان الصهيونية بالتنسيق مع القوى الاستعمارية المسيطرة، وجعل الحركة الصهيونية جزءاً من هذه المنظومة الإمبريالية. ومع وعد بلفور صار تصدير الفائض اليهودي إلى فلسطين يعود بالمنفعة على الدولة الاستعمارية، وعلى الحركة الصهيونية على السواء. وعليه تم خنق الحركة الاعتراضية لدى اليهود لمصلحة الحركة الاستيطانية الصهيونية المتناسقة مع الاستعمار البريطاني.** ومع الوقت حسم الصراع بين صهيونيي «إسرائيل» وصهاينة الخارج لمصلحة الإسرائيليين، كما لا يزال الصراع قائماً وإن خفياً بين اليهود المرتبطين بهويات بلادهم، وبين الصهاينة الذين يريدون تحويل جهد كل يهود العالم في خدمة المشروع الاستيطاني الاستعماري، إضافة إلى الصراع داخل المستوطنات بين مختلف التشكيلات الإثنية اليهودية، من إشكناز وسفارد وعرب، وبين العلمانيين والمتدينين. **ومع ظهور ما يسمى «لاهوت البقاء» الذي يجعل الهدف الأساسي من التاريخ اليهودي بقاء اليهود، طرح الحاخام ريتشارد روبنشتاين رؤية مفادها أن القيادة الحاخامية لليهود قيادة فرضها الرومان على اليهود بعد إخمادهم التمردات اليهودية، وأن هذه القيادة هي التي علمت اليهود الخنوع والخضوع وتقبل العجز، وأن هذا الوضع قد استمر حتى الحرب العالمية الثانية حين تعاونت المجالس اليهودية مع القوات النازية وسلمتهم أعضاء الجماعات اليهودية**

ليرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال. ومن ثم فإن ظهور القيادة الصهيونية (العسكرية) هو تصحيح لمسار التاريخ اليهودي كتاريخ زمني»[444].

حاييم هرتزل

كان الصهيوني العلماني حاييم هرتزل قد بدأ في الظهور، ليواكب حركة الصهاينة البروتستانت – وقد ساعده هشلر في نسج علاقاته مع المسؤولين السياسيين – وكان قد أصدر في العام 1897 كتابه «الدولة اليهودية»، وفيه طرح أسباب اللاسامية وكيفية علاجها وهو إقامة وطن قومي لليهود، وطلب دعم إمبراطور ألمانيا وليام الثاني، والسلطان التركي عبد الحميد الثاني، فنجح مع الأول، وفشل مع الثاني، **حيث عهد رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي إلى أوليفنت مفاوضة السلطان العثماني للموافقة على استيطان اليهود، إلا أن هذه المبادرة قد فشلت، لأن السلطان اعتبر فلسطين «وقفاً إسلامياً»، وكانت لديه حجة أخرى، أن هذه الموافقة ستثير لدى المسيحيين وخصوصاً الموارنة في لبنان المطالبة بالأمر عينه.** وفشل هرتزل كذلك في الحصول على الدعم المالي من أثرياء اليهود.

في عام 1897 نظم هرتزل أول مؤتمر صهيوني في بازل في سويسرا وحضره 200 مفوض صاغوا البرنامج السياسي للحركة الصهيونية، والذي نص على أن هدف الصهيونية هو إقامة وطن للشعب اليهودي بالقانون العام، وشكل لجنة دائمة، فوضها إنشاء فروع للحركة في مختلف أنحاء العالم.

وفي هذا المؤتمر، تم «وضع الخطوط العامة للاستيلاء على فلسطين ومواردها المائية والموارد المائية لجوارها، وبعد انتهاء المؤتمر بدأت حركة اتصالات مكثفة للحصول على الدعم الدولي لهذه المخططات سياسياً ومادياً، وقد اتصل ممثلو الحركة الصهيونية عام 1903 بالسلطات البريطانية في مصر وعرضوا عليها دراسة إمكانية تسهيل تحويل نهر النيل إلى سيناء لإقامة المستعمرات هناك، ومن ثم مد النهر إلى النقب، وقد عرضوا حينها على الحكومة المصرية اتفاقاً يسمح لليهود باستغلال سيناء لمدة 99 عاماً»[445]. **وعندما سئل هرتزل عن مساحة الأرض التي يحتاجها وطنه القومي، أجاب: «سنطلب ما نحتاج إليه، كلما زاد المهاجرون زاد طلب الأرض»**[446].

«وفي المؤتمر الصهيوني الذي عقد في ألمانيا (30 نيسان/ ابريل 1901) أكد المؤتمرون «أن من واجب الصهاينة انتزاع الأراضي المجاورة لفلسطين ودفع الهجرة اليهودية إليها»[447].

وفي عام 1903، «اقترحت الحكومة البريطانية (على المؤتمر الصهيوني) تأسيس «بيت قومي» لليهود على حزام من الأرض على شاطئ المتوسط لشبه جزيرة سيناء، أو منطقة أوسع في إفريقيا الشرقية الإنكليزية، في أوغندا.

وفي العام 1904 عقد مؤتمر آخر للصهاينة، والذي وجهت إليه اقتراحات من قبل الحكومة الانكليزية أيضاً، لـ«بيت» كهذا، على جزيرة قبرص»[448].

المبادئ التي تقوم عليها الفكرة الصهيونية

تقوم الفكرة الصهيونية على عدة مبادئ أهمها:

1- إقامة «إسرائيل» الكبرى من الفرات إلى النيل.

2- تنفيذها بالحرب العدوانية المستمرة والتوسعية، وتهجير سكان البلاد الأصليين عبر الإرهاب المنظم، واستجلاب اليهود من الخارج إلى «إسرائيل» بالإكراه.

3- عدم وضع دستور واضح ولا خريطة واضحة للكيان بانتظار اكتمال المشروع الصهيوني، والاستعاضة عن ذلك بمجموعة قوانين عامة.

4- التمييز العنصري والديني والطائفي بين اليهود أنفسهم ما بين إشكناز وسفارديم وعرب، وما بينهم وبين السكان العرب وبين السكان العرب أنفسهم حسب الطوائف.

ومن المهم التنبه إلى أن الصهيونية لم تعد منظمة يهودية فيما هي عبارة عن سلطة عالمية لرؤوس الأموال من مصارف وبورصات وشركات تجارية عابرة للقارات ومجمعات التصنيع العسكري وغيرها، ومن كل الجنسيات حيث لا أهمية هنا للجنسية أو العرق أو الدين!

على ما تقدم يمكننا الاستنتاج أن اليهودية تأثرت عبر التاريخ بثقافات الشعوب التي عاشت بين ظهرانيها، فهي بتأثرها بالفرس أنتجت فكرة الماشيح، ومن تأثرها بالهللينستية أفرزت المذاهب الصدوقية والفريسية والأسينية، ومن تأثرها بالإسلام أفرزت المذهب القرائي في بداية العصر العباسي متأثرة بعلم الكلام، وفي العصر الحديث تأثرت بالعلمانية الأوروبية فأفرزت الغنوصية

والصهيونية. وعليه، فإن «**الصهيونية التي ولدت من تزاوج الفكر القومي الأوروبي السياسي، والفكر القبّالي الصوفي الحلولي اليهودي الديني، كان طرحها إثنياً – دينياً – علمانياً، حيث اعتبرت الصهيونية نفسها مسيحاً سياسياً لخلاص الشعب اليهودي، من خلال الاستيطان الصهيوني في فلسطين والذي يمثل آخر الأيام الدينيّة، وبذلك فقد قامت الصهيونية بتدجين اليهودية الدينية في حظيرة السياسة وحولت القوانين الروحية الدينية إلى قوانين فيزيائية مادية: «أرض يسرائيل، لشعب يسرئيل، حسب شريعة التوراه»**. وهو شعار منظمة غوش إيمونيم، والذي يمثل – حسب ما جاء في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية – الثالوث الحلولي السياسي الصهيوني الذي يشكل حالة سياسية مطلقة، **والذي يعتبر ترجمة للمقولة الحلولية اليهودية الدينية: الإله اليهودي للشعب اليهودي على الأرض اليهودية (إيرتس يسرئيل)**... وفي الوقت الذي تفرض فيه اليهودية أن اليهود شعب عرقي إثني ينحدر من نبع دموي واحد عبر تاريخ خاص مشترك، ومنفصل تماماً عن المجتمعات والشعوب الأخرى، فإن الصهيونية ترى أن اليهود شعب له تراث مشترك لا يشترط فيه وجود دم مشترك»[449]، وهذه الصيغة تعتبر مهمة في الإجابة على: من هو اليهودي؟

ومن المتناقضات بين التدين اليهودي والعلمانية الصهيونية، نظرتهم إلى التوراه، حيث يعتبر المتدينون اليهود أنها كلام الرب، فيما يعتبرها الصهاينة فولكلور الشعب اليهودي. **وتعتبر اليهودية الأصولية أن الشعب اليهودي في الشتات هو شعب بلا رب، لأن الإله يهوه لا يمكن أن يمارس ربوبيته إلا على أرضه المقدسة التي يجب أن يعيش عليها شعبه المقدس! أما أصحاب المذهب الحلولي، ومنهم الصهاينة، فيعتبرون أن يهوه تخلى عن اليهود، وعليهم بالتالي أن يتغيروا ليصبحوا ديناً بلا رب!**

أما نظرية شعب بلا أرض لأرض بلا شعب فهي تستند إلى نظرة أن الفلسطينيين ليسوا شعباً ولكنهم يشغلون الحيز ريثما يعود أصحابه الشرعيون حسب الوعد الإلهي! واليهود يعتقدون أن الوعد الإلهي بأرض كنعان هو وثيقة تاريخية دولية لا يرقى إليها الشك، وللأسف فإن المسيحية والإسلام تقران هذا الأمر الخيالي أيضاً!

مما تقدم نفهم أن الإحلالية الصهيونية وظفت نفسها كمخلص لليهود تجمعهم وتعيدهم إلى الأرض التي وعدهم بها الرب وتحلّهم محل الفلسطينيين الذين يجب أن يحلوا مكان اليهود في الشتات (من هنا النظرية الإحلالية: إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني؛ والمخيم الفلسطيني في الشتات الفلسطيني بدل الغيتو اليهودي في الشتات؛ وإحلال التاريخ التوراتي مكان

التاريخ الكنعاني). وبما أن اليهود كانوا ينتظرون مسيحاً (مشيا) يعيدهم إلى الأرض الموعودة، فقد تقمصت الصهيونية هذا الدور، وجعلت من نفسها هذا المسيح لتعيد اليهود إلى فلسطين، اعتماداً على مبدأ التوراه الاستعماري في السيطرة على الأرض التي وعد بها يهوه شعبه.

أما عن العزل السياسي فيمكن القول إنّ الحركة الصهيونية قامت بترجمة التمركز اليهودي إلى سلوك سياسي، بحيث يمنع عليهم الانخراط في نشاط الأغيار على أرض ليست لليهود، كونهم ينتظرون الماشيح المخلص، والذي صار بنظر الصهاينة هو الحركة الصهيونية ذاتها. وعليه فقد عزلت الصهيونية «اليهود عن الحركات القومية والثورية في أواخر القرن التاسع عشر، وأكدت ضرورة أن يعمل اليهود لمصلحة اليهود وحسب وألا يشاركوا الأغيار في أنشطتهم. وكان هرتزل ينطلق من هذه المقولة دائماً، **ولذا تعاون مع كبار الرجعيين في الغرب ومن بينهم ألد أعداء اليهود فون بليفيه وزير الداخلية الروسي، وبين أن الحركة الصهيونية ستفصل الشباب اليهودي عن نشاط الأغيار الثوري من خلال تسريب طاقاتهم داخل قنوات يهودية صهيونية.** وقد اتخذت الحركة الصهيونية موقفاً مماثلاً من النازية فلم تحاول تجنيد أعضاء الجماعة لينخرطوا في صفوف حركة المقاومة ضد النازية.. وانطلاقاً من هذا «طرح الصهاينة مفاهيم مثل نفي (الدياسبورا)، أي تصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين لحساب المستقبل الصهيوني، كما طرحوا مركزية إسرائيل في حياة هذه الجماعات. **ومن هذا المنظور وقع الصهاينة معاهدة الهعفراه (التهجير) مع النازيين، وتعاون رودلف كاستنر مع إيخمان وسلم يهود المجر إلى النازيين مقابل أن يسمح لبعض الصهاينة بالهجرة إلى فلسطين»**[450]؟

وكان حاييم هرتزل يتخوف من اندماج اليهود: «بحلول منتصف القرن التاسع عشر شرع بعض القوميين اليهود بالشكوى **من أن اليهود أخذوا يفقدون تعاضدهم الذي يعلو على الدولة، وذلك تحت تأثير التواصل مع الثقافة الأوروبية، ونتيجة لحصولهم على المساواة»**[451]. **والصحيح أنهم بدأوا يتفلتون من عزلهم وتكتيلهم، بفضل المساواة في الحقوق، فيما زعاماتهم كانت تسعى على الدوام لبقائهم مضطهدين، كي يظلوا متكتلين كالعبيد في معازلهم تحت تأثير الفكر المغلق لحاخاماتهم الذين يصادرون شخصياتهم ويراكمون الثروات من أتعابهم.**

وبعد قيام الحركة الصهيونية بتشجيع ألماني بريطاني جرى صراع حول الاستقطاب إلى أن نجحت بريطانيا في احتواء الحركة الصهيونية وإبعاد النفوذ الألماني، بوصول وايزمان وبن غوريون إلى موقع القيادة الأولى.

مؤتمر كامبل بنرمان الاستعماري

في العام 1905 دعا حزب المحافظين البريطانيين لجنة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والزراعة والبترول والجغرافيا والاقتصاد تمثل كل الإمبراطوريات الاستعمارية: بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وايطاليا والبرتغال، واستمرت أعمال المؤتمر لسنتين، وصدر عنه تقرير استعرض أسباب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة في التاريخ، وجرى البحث في السبل التي تؤيد السيطرة الاستعمارية الأوروبية. وقد افتتح السير هنري كامبل بنرمان رئيس الحكومة البريطانية المؤتمر بكلمة مطولة جاء فيها: «إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حدٍّ ما ثم تنحل رويداً رويداً ثم تزول، والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة إلى كل نهضة وإلى كل أمة، فهناك إمبراطوريات: روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرهم. فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوروبي وانهياره أو تؤخر مصيره؟ وقد بلغ الآن الذروة وأصبحت أوروبا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت مصالحها، بينما لا يزال العالم الآخر في صرح شبابه يتطلع إلى المزيد من العلم والتنظيم والرفاهية، هذه هي مهمتكم أيها السادة، وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا». **ورأى المؤتمر في وثيقة صدرت عنه ووجهت إلى الجامعات لدراستها، أن الخطر ضد الاستعمار في آسيا وإفريقيا ضئيل، «ولكن الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط، وهذا البحر هو همزة الوصل بين الغرب والشرق، وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية، بوجه خاص، شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان، وكل مقومات التجمع والترابط. هذا فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية»**. وأسهب التقرير في تحليل أوضاع الوطن العربي فرأى أن كل أسباب القوّة والتحرّر والنهوض متوافرة له نتيجة «لنزعاته التحرّرية وثرواته الطبيعية وموارده البشرية المتزايدة». وقد عالج التقرير، في نهايته، هذه الأخطار، وقرر، بصددها، ما يلي:

1- **على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.**

2- **ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي.**

وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري، قوي وغريب، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل، في هذه المنطقة،

وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة. وقد وضعت اللجنة هذا التقرير وأودعته وزارة الخارجية البريطانية، بعد أن أوصت بزرع «إسرائيل» في قلب الوطن العربي كحاجز بشري، قوي وغريب، وكقوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة، تفصل بين جناحي الوطن العربي المتمثلين بمشرقه ومغربه، كما أوصت باستمرار «تجزئة هذه المنطقة... وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل»، ثم عهدت إلى بريطانيا بتنفيذه.

وعد بلفور

صرح رئيس الجمعيات الصهيونية في بريطانيا يوسيف كوهين، وهوأحد المشاركين في صوغ وعد بلفور: «**اليهود يستطيعون تأليف حامية في فلسطين، ليضعنا الشعب البريطاني هناك، فيجد أنه كلما جعلت فلسطين يهودية أكثر، تصبح بريطانية أكثر**»[452].

أما وعد بلفور فهو عبارة عن رسالة بعثها وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور بتاريخ 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 إلى اللورد الصهيوني ليونيل روتشيلد، وفيها: «**إن حكومة صاحب الجلالة ترى بعين العطف تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يُفهَم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين، أو الحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر».**

بقي هذا الوعد سرياً إلى حين انكشاف أمره، فأذاعته وزارة الخارجية البريطانية في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة 1917. ولأن العرب لا يستفيقون على الأحداث إلا بعد انتهاء مفاعيلها، فقد ذهب وفد من من الزعماء العرب إلى حاكم الحجاز «الشريف حسين» لإعلامه بالأمر، وكالعادة اتصل بأصدقائه الإنكليز مستوضحاً، فأرسلوا إليه «الدكتور هوجارت الذي أبلغه باسم الحكومة البريطانية تأكيداً صريحاً بأن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية، كما أكد له أن ذلك لن يتعارض مع استقلال العرب والوعود المقطوعة لهم»! **ومن باستطاعته تقدير مساحة حرية السكان العرب بالنسبة إلى الإنكليز؟ وبالطبع، صدّق «الشريف» تبريرات أصدقائه، حتى أنه قال**

لهوجارت «ما دامت الغاية من وعد بلفور هي أن يهيئ لليهود ملجأ من الاضطهاد فإنه سيبذل أقصى جهده لتحقيق تلك الغاية».

ولزيادة الاطمئنان وصلت إلى القاهرة لجنة صهيونية برئاسة حاييم وايزمان في طريقها إلى فلسطين. ولم يوفر أعضاؤها جهداً لإزالة مخاوف العرب عن طريق الاجتماعات التي عقدوها مع العديد من الشخصيات العربية التي أقنعوها بفكرة التعاون بين العرب والصهيونية!

ومن مذكرة الحكومة البريطانية إلى الشريف حسين، رداً على تساؤلاته حول ما أرسله إليه جمال باشا، نقتطف: «**إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاؤها ما زالت واقفة موقفاً لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة. وهي مصممة على الوقوف بجانب الأمة العربية في جهادها، حتى تبني عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني**». ولكي يزيد الإنكليز في «طمأنينة العاهل العربي»، «اعترفوا به في 3 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1917م ملكاً على الحجاز». بعد أن كانوا رفضوا مبايعة القيادات العربية له سنة 1916 إثر تشكيل أول وزارة عربية برئاسة الشيخ عبدالله السراج.

كان آرثر بلفور قد وعد الصهاينة بقيام كيان لهم في أوغندا ولكنهم رفضوا العرض في مؤتمر 1903. وعاد سنة 1914 بوعده المشؤوم، حيث قال: «**ليس في نيتنا حتى مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين**»[453]، وقد حصل وعد بلفور على موافقة الأغلبية في الحكومة البريطانية، **وانفرد «السيد أدوارد مونتغيو، العضو اليهودي الأوحد في الحكومة البريطانية، بوقوفه ضد قرارات كهذه للحكومة»**[454].

أما عن الولايات المتحدة الأميركية التي كان رئيسها ولسون قد أصدر مذكرة حقوق الإنسان، وأرسل لجنة كنغ كراين إلى الشرق للوقوف على رأي شعوب المنطقة، **فقد ارتأت دولته سنة 1922 أن يؤيد ما جاء في وعد بلفور بصورة رسمية «لاعتبارات قيمية ومصلحية مشتركة»، ومنذ ذلك التاريخ وحتى إعلان الدولة الصهيونية أنشأت الكثير من المؤسسات واللجان والمنظمات التي تدعم ادعاء «حق اليهود» في فلسطين**[455]**، لأن الفكرة الأصلية لإنشاء «وطن قومي لليهود» في فلسطين آمن بها المسيحيون البروتستانت إيماناً عقائدياً أولاً، ثم مصلحياً رأسمالياً.**

الفيلق اليهودي

كانت الأجواء في بريطانيا مليئة بمشاعر معاداة اليهود الوافدين من روسيا، فسارعت الحكومة البريطانية إلى تجنيد هؤلاء لتهدئة مشاعر الغضب من وضعهم الفريد (بحسب الدكتور المسيري)، فكان تجنيد كتيبة حملة البنادق الملكية رقم 38 سنة 1915، وتولى قيادتها الضابط البريطاني جون باترسون. وقد تلقت هذه الكتيبة تدريباتها في بريطانيا ومصر ثم توجهت إلى فلسطين. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب وافقت الحكومة الأمريكية عام 1918 على تشكيل كتيبة من اليهود الأميركيين ومن اليهود المتطوعين من الأرجنتين وكندا باسم الكتيبة 39، ونقل قسم منها إلى مصر وشرق الأردن في العام نفسه، ونقل الجزء الأعظم منها إلى فلسطين بعد أن وصلت الحرب إلى نهايتها. وعمل على تنظيمها ديفيد بن غوريون وإسحق بن تسفي.

وكانت تشكلت الكتيبة 40 بقيادة فلاديمير جابوتنسكي ويوسف ترومبلدور في مصر بناء على اقتراح من قائد الفرقة الاسكتلندية في فلسطين والذي دعا إلى تجنيد اليهود في المناطق التي احتلتها بريطانيا من فلسطين، وقد تلقت هذه الكتيبة تدريبها في «التل الكبير» ولكنها لم تشارك في الهجوم على فلسطين في العام 1918، كيلا تتكبد الخسائر ربما، إلا أنها نقلت إلى فلسطين في نهاية ذلك العام.

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كانت تتمركز على أرض فلسطين 3 كتائب يهودية تضم حوالى 5 آلاف فرد شكلوا 15% من جيش الاحتلال البريطاني عرفت باسم الكتيبة العبرية، وأصبح شعارهم «المينوراه» اليهودية، إلا أنه في العام 1920 تم حل هذه الكتائب نهائياً وضم الكثير من أعضائها إلى الهاغاناه.

وحسب الباحث الروماني إيلي بويا، فإن الحركة الصهيونية لم تتحرك عسكرياً منذ نشوب الحرب، بل ابتداءً من مشارفة اللنبي على احتلال فلسطين، حيث عمدت إلى «**تنظيم الفيلق اليهودي، المؤلف من ثلاثة أفواج تحت إسم (Royal Fusilliers) بقيادة الكولونيل باترسون. والحرب التي خيضت على الجبهة الفلسطينية لا تجب رؤيتها كعملية منعزلة لدعم المواقع البريطانية، وإنما من أجل احتلال فلسطين تحديداً**»[456].

سايكس - بيكو

في وقت كانت مجازر السفاح العثماني جمال باشا الداغستاني تعصف بالمناطق السورية، وفي الوقت الذي كانت اتصالات الحسين – مكماهون تتواصل من أجل تمرد العرب على الأتراك، وقع الاتفاق الشهير بين مندوب بريطانيا، مارك سايكس[457]، ومندوب فرنسا جورج بيكو[458]، في 16 أيار/ مايو سنة 1916. وبمقتضى هذا الاتفاق قسمت بلاد الشام والعراق إلى المناطق التالية:

1- المنطقة الزرقاء: تشمل الساحل السوري من رأس الناقورة إلى قلب الأناضول بما في ذلك كيليكيا، من نصيب فرنسا.

2- المنطقة الحمراء: تشمل بغداد، البصرة، وهي من نصيب بريطانيا.

3- المنطقة السمراء: تشمل فلسطين، تقام فيها إدارة دولية رغبة لطلب روسيا. ومكة تعطى للشريف حسين، ملكية وراثية.

4- المنطقة الداخلية: قسمت إلى منطقتين: (أ) و(ب)، على أن تؤلف منها دولة عربية مستقلة، أو اتحاد دول عربية. وعلى أن يكون لفرنسا في منطقة (أ) (أي داخل سورية الشمالية وفيها الموصل)، ولبريطانيا في منطقة (ب) بقية (العراق وشرق الأردن)، حق الأولوية في المشاريع الاقتصادية، والقروض وحق الانفراد في تقديم المستشارين والموظفين الأجانب.

كما نص الاتفاق على أن يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء كما يباح لبريطانيا في المنطقة الحمراء، إقامة ما ترغبان فيه من أشكال الحكم بعد الاتفاق مع الدول العربية أو اتحاد الدول العربية، في منطقتي (أ) و(ب).

وتدخل الاسكندرونة في منطقة فرنسا على أن يكون ميناؤها حراً لتجارة بريطانيا. وتدخل حيفا في منطقة بريطانيا على أن يكون ميناؤها حراً لتجارة فرنسا. وتعهد الطرفان أن لا يتنازل أي طرف عما له من حقوق في المنطقة المختصة له، وأن لا تعطى تلك الحقوق لدولة أخرى سوى الدول العربية من دون موافقة الطرف الآخر.

وتتضمن الاتفاقية تقاسماً للمياه وإنشاء خطوط السكك الحديد والموانئ، والجمارك، وحقوق انتقال الجنود.

ومن هنا كان يجدر الانتباه، إلى أن اتفاقية سايكس - بيكو حرصت على «أن تضع فلسطين وحدها دون سائر أجزاء الوطن العربي من الإمبراطرية (العثمانية)، تحت إدارة دولية، وفي ذلك إشارة مبكرة وواضحة إلى عزل مصير فلسطين عن بقية الوطن العربي»[459].

ولم ترضِ هذه الاتفاقية الصهاينة، لأنها جاءت باقتراحات لم تكن تتوافق ومخطط الحركة الصهيونية، حيث «أخرجت جبل الشيخ ومنابع نهر الأردن من خريطة الدولة الصهيونية»[460]، التي كانوا يسعون لإقامتها على أرض فلسطين.

بقي اتفاق سايكس – بيكو سرياً، حتى نشره البلاشفة بعد انتصار الثورة الشيوعية في روسيا سنة 1917، حين عثرت القيادة الشيوعية على نص الاتفاق بين وثائق خارجية القيصر السرية. وبعد نشر الوثائق، تمسك بها الأتراك كلقيا ذهبية، وراحوا يعرضونها على العرب ليروا أية مؤامرة تدبر لهم! «وقرأها جمال باشا على زعماء سورية ولبنان في مأدبة أقامها لهم في بيروت ثم نشرها في الصحف البيروتية والدمشقية بتاريخ 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917م»[461]، وأرسلها إلى فيصل بن الحسين الذي كان في العقبة، عارضاً عليه الصلح والاستعداد «للدخول معه في مفاوضات للاعتراف باستقلال البلاد العربية استقلالاً ذاتياً بضمانة من ألمانيا».

وأرسلها الأمير فيصل إلى أبيه الذي عرضها على صديقه الحميم مكماهون[462]، الذي تذرع بأن جمال باشا يريد الإيقاع بينه وبين «حلفائه» الإنكليز، وأن هذه المسودة ليست سوى تبادل لوجهات النظر، ولم ينس أن يشكره على جهوده ويحذره من الوقوع في مكائد العثمانيين، فصدقه الحسين، وقبل النصيحة، وقضي الأمر!

تهيئة الأرض لتسليمها إلى الصهاينة

لم تدخل فلسطين ضمن قائمة البلدان التي انتدب عليها البريطانيون، وكان الهدف من ذلك واضحاً، تركها لتمنح كياناً للصهاينة بعد إحكام السيطرة واستتباب الأمور للمحتل البريطاني. ولتهيئة الأوضاع بدأ العمل البريطاني الصهيوني المشترك لتحقيق وعد بلفور الاستيطاني. **في العام 1918 توجه وايزمان وجيمس روتشيلد ويسرائيل سيف «للعمل كلجنة ارتباط بين اليهود وبين السلطة العسكرية البريطانية. في هذه الفترة كان عدد اليهود يبلغ 55 ألف شخص فقط أي نحو 8 بالمئة من عدد السكان البالغ 700 ألف شخص.. وعينت بريطانيا هيربرت صموئيل لشغل منصب المندوب السامي في فلسطين. وكان صموئيل يهودياً، وبدعمه تحولت الوكالة اليهودية إلى دولة داخل الدولة»[463]. وفي العام 1919 قدمت المنظمة الصهيونية إلى مؤتمر السلام في باريس مذكرة تطالب فيها شمول كل الأراضي اللبنانية حتى نهر الليطاني.**

في مؤتمر سان ريمو 1920 اتفق الفرنسيون والبريطانيون على اقتسام النفط العربي، «فحصلت فرنسا على حصة في نفط العراق في مقابل حصول بريطانيا على موافقة فرنسا على إنشاء خط أنابيب للنفط يعبر سورية إلى شواطىء البحر الابيض المتوسط. وعندما عرف الأميركيون بالأمر احتجوا بشدة على ذلك»[464]. **على اعتبار أن الاتفاق يعد خرقاً لما تم الاتفاق عليه في فرساي من منح فرص متساوية لدول المؤتمر. وعليه سيتأخر توقيع الولايات المتحدة الأميركية على صك الانتداب الفرنسي والبريطاني لمدة سنة حتى تتحقق لها المشاركة الاقتصادية المتساوية معهما في الشرق الأدنى.** ومع أن صك الانتداب على غير فلسطين نص على تمكين الشعوب ذات العلاقة من الوصول إلى مرحلة الاستقلال الوطني، إلا أن صك الانتداب على فلسطين تضمن (في المادة الثالثة منه) على تهيئة الأوضاع في فلسطين لإقامة كيان يهودي فيها.

وباعتبار أنه «كان لنشر الفرق الإنكليزية للجنرال اللنبي على كامل أراضي فلسطين (خريف العام 1918) أن يضع الخاتم على حقوق إنكلترا كقوة انتدابية، العمل المتفق عليه في مؤتمر سان ريمو (نيسان/ ابريل 1920). بهذا الشكل، أمنت بريطانيا العظمى السيطرة الكاملة على هذه المنطقة ذات الأهمية المفصلية لمنطقة الشرقين الأدنى والأوسط. **وعلى إثر تصاعد الامتعاض العربي، سنة 1922، نشرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض، والذي أكد، ظاهرياً، أن بريطانيا لا تريد أن تجعل من فلسطين دولة يهودية، ولكن تأسيس موئل وطني لليهود فقط، دون أن يؤثر على المصالح العربية»**[465].

في العام 1931 كون الصهاينة عصابتي شتيرن والإرغون الإرهابيتين اللتين كونتا النواة الأولى لجيش الإرهاب الصهيوني.

كانت اعتراضات الفلسطينيين على المشروع الصهيوني الأوروبي تتوالى دون توقف، وقد اندلعت الثورة الفلسطينية الشاملة سنة 1936، والتي أجبرت الحكومة البريطانية على إرسال لجنة ملكية سنة 1937 برئاسة اللورد بييل. **«وكان التقرير يوضح أن الأسباب الحقيقية للانتفاضات كانت تتولد من إرادة العرب الفلسطينيين للاستقلال ورفض تأسيس «ملجأ قومي لليهود» على الأرض العربية بالتحديد. ورأت اللجنة أيضاً أن تحويل دولة فلسطين إلى دولة يهودية خرق لروحية الأفكار الموجودة ضمن نصوص الانتداب المنصوصة بعد الحرب العالمية الأولى من قبل القوى العظمى.**. وبالتالي لم يعد بإمكان الحكومة البريطانية الإقرار برغبة العرب الفلسطينيين بالاستقلال، وفي الوقت نفسه أن تؤمن إنشاء موئل قومي لليهود. وعليه اقترحت تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين. على أن تبقى القدس تحت إشراف المجتمع الدولي»[466].

في العام 1939 حصل انشقاق عصابة الإرغون الصهيونية بقيادة أبراهام ستيرن، نتج منه عصابة «إرغون زفاي ليومي» ليقودها لاحقاً 1944 الإرهابي مناحيم بيغن، والهاغاناه بقيادة الإرهابي بن غوريون، وكانت هذه العصابات تعتمد الإرهاب والمجازر من أجل تخويف الفلسطينيين وطردهم من موطنهم.

قبيل نهاية الحرب الكونية سنة 1944، سمحت الحكومة البريطانية بقيادة ونستون تشرشل «بتشكيل فرقة يهودية لترسل إلى الحرب على الجبهة الإيطالية، ربما من أجل تسهيل الحصول على إمكانية تأسيس الدولة اليهودية»[467].

وفي العام نفسه بدأ «بن غوريون قائد الهاغاناه عملية إرهابية واسعة تحت الاسم الرمزي «موسم الصيد»، والتي توسعت على كامل أرض فلسطين»[468]. كانت تستهدف البريطانيين ومندوبي الأمم المتحدة والعرب.

وفي العام 1947 خلال دورة فوق العادة للأمم المتحدة طلب تأليف لجنة خاصة للتحقق من وضع فلسطين، تألفت اللجنة من 11 دولة هي السويد، تشيكوسلوفاكيا، أوروغواي، أوستراليا، كندا، غواتيمالا، الهند، إيران، هولندا، البيرو، ويوغوسلافيا. وقد اتخذت هذه اللجنة قرار التجميد الفوري للانتداب البريطاني. وكنتيجة لتقريرها النهائي اتخذ قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين.

بيروبيجان اليهودية السوفياتية

هي مقاطعة سوفياتية ذات حكم ذاتي خُصِّصت لليهود، وتقع في شرق سيبريا، وهي منطقة غنية جداً بالموارد الطبيعية. وقد وقع اختيار الحكومة السوفياتية على بيروبيجان عام 1928 لتشجيع التوطن اليهودي بهدف زيادة تَكيُّف اليهود مع النظام السوفياتي الجديد. وكذلك كان من بين أهداف السوفيات من المشروع اعتبارات إستراتيجية تتمثل في زيادة الكثافة السكانية في المنطقة المجاورة للحدود مع الصين واليابان، وتعمير كل أرجاء روسيا وخصوصاً الأطراف، كما كانت هناك اعتبارات سياسية تتمثل في إحباط دعايات العناصر اليهودية المعادية للسوفيات، وكسب تأييد اليهود في العالم، وخصوصاً في الولايات المتحدة في ظل اتجاه سوفياتي عام لتحسين العلاقات مع الغرب في تلك الفترة. وعليه **كان بإمكان اليهود أن يطوروا ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة في إطار قومي ومحتوى اشتراكي، فيصبح مركزاً للثقافة اليهودية (اليديشية) ومجالاً لتحقيق هوية اليهود باعتبارهم أقلية قومية شرق أوروبية، أو قومية يديشية، الأمر الذي يتفق مع صيغة البوند**

ودبنوف أكثر من اتفاقه مع أطروحات لينين. وقد شنت الحركة الصهيونية هجوماً مركزاً على المشروع منذ البداية. فأعلنت أن المكان لا يحمل أية دلالة تاريخية يهودية، وأنه قد يصلح لمستوطنين ذوي تقاليد زراعية حيث أن اليهود لم يمارسوا الزراعة إلا حديثاً. ومن هنا، طالبت الحركة الصهيونية بالقرم أو أوكرانيا. ولكنها عادت وأكدت أن فلسطين هي المكان الوحيد المناسب لحل مشكلات اليهود السوفيات، وأن مشروع بيروبيجان محاولة سوفياتية لنسف أو إضعاف الفكرة الصهيونية والدينية لدى اليهود. وقد بلغ عدد اليهود الذين هاجروا إلى المنطقة خلال خمس سنوات نحو عشرين ألف شخص، عاد منهم نحو اثني عشر ألفاً. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، أظهر اليهود حماساً أشد للتَوطُّن في بيروبيجان، وتطوَّع للذهاب إليها فنانون وموسيقيون وأطباء. وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد اليهود، في منتصف سنة 1948، بلغ نحو خمسة وثلاثين ألفاً جاء بعضهم ضمن الهجرة المنظمة، وجاء البعض الآخر هرباً من الجيوش النازية الزاحفة نحو موسكو، وجاء البعض الثالث ليفتش عن مكان جديد يبدأ فيه حياته. وقد تمت تنمية الطابع اليهودي اليديشي للمقاطعة في هذه المرحلة، فأُنشئت مزارع جماعية يهودية ومجالس فرعية، واستُخدمت اليديشية كلغة رسمية، وأُسِّس مسرح يديشي ومكتبة عامة سُمِّيت باسم الكاتب اليديشي شالوم عليخيم، كما أُقيمت مؤسسة طباعة عصرية وصُنعت آلات كاتبة بالحروف التي تُكتَب بها اللغة اليديشية.

وفي العام 1948، اتهم ستالين زعماء الجماعة في بيروبيجان بالتآمر لفصل الإقليم عن الاتحاد السوفياتي وتسليمه لليابان، ما أدى إلى تقلص الهجرة اليهودية إلى الإقليم، حيث وصل عدد اليهود فيه سنة 1968 إلى نحو خمسة وعشرين ألف نسمة. ثم حوالى تسعة آلاف في العام 1989 مقابل 215 ألف روسي وكوري وصيني، في ظل هجرة يهودية من الاتحاد السوفياتي إلى فلسطين والغرب[469].

النازية والمشروع الصهيوني

لعل الخدمة التي قدمتها النازية للصهيونية تساوي في أهميتها وعد بلفور، بل والدعوة البروتستانتية الصهيونية في تهجير اليهود إلى فلسطين، والفرق أن البروتستانتية تريد تهجير اليهود إلى فلسطين لإبادتهم تمهيداً لظهور المسيح، بينما النازية استعملت إبادة اليهود من أجل تهجيرهم إلى فلسطين. ففي العام 1941 أوصى هتلر رئيس شرطته هايدريش «بتنفيذ ما يسمى

بالحل النهائي للمسألة اليهودية. ولولا تدمير الوجود اليهودي (في ألمانيا) لما تحقق الحلم القديم بـ «إنشاء وطن للشعب اليهودي كله» بعد بضعة أعوام»[470].

بدأ أدولف هتلر منذ زمن مبكر باعتناق نظرية عنصرية تميز بين الناس على أساس أعراقهم، ويرى في العنصر الألماني أرقى العناصر بين البشر، ولعل هذا هو مرد بغضه لليهود الذين لهم الادعاء نفسه. ولذلك تعلم هتلر لغة اليديش، وانضم مبكراً إلى عصابة محاربة السامية، وتبنى معايير معلمه لانس حول المعايير العرقية، واتخذ لنفسه هدفاً بإنقاذ الشعب الألماني من اليهودية الدولية، ثم عمم هذا الشعار لاحقاً ليشمل كل أوروبا.

كانت بافاريا أول ولاية ألمانية أعلنت نفسها جمهورية سوفياتية، وكان جل أعضاء حكومتها من الشيوعيين اليهود الشرقيين الذين هم عند هتلر أدنى مرتبة من اليهود الغربيين (الإشكناز)، وتحطمت هذه الجمهورية سنة 1919 على يد الحرس الأبيض الألماني، وتشكلت لجنة لملاحقة أتباع الحكومة السوفياتية البافارية، وكان الجندي أدولف هتلر عضواً في هذه اللجنة، وأصبح بعدها مخبراً لدى المخابرات العسكرية الداخلية.

في العام 1920 تحول حزب العمال الألماني إلى الحزب العمالي القومي الاشتراكي الألماني الذي أصبح في وقت قصير معروفاً في العالم كله باسم الحزب النازي[471]، والذي سوف يتسلق هتلر درجاته ليصل إلى مركز القيادة فيه، وأنشئت فرق الحماية الخاصة SA، والتي كان نشيدها يقول: **«أطردوا اليهود.. أعيدوهم إلى القدس»**.

في صيف العام 1921، طالب هتلر بمنصب القيادة في الحزب، وحصل عليه بعد التهديد بالاستقالة، **فبدأ بجمع الأموال للحزب، وكان أهم مموليه من رجال الأعمال اليهود، من بينهم منتج القهوة البرليني «كورنفرانك، إضافة إلى المصرفيين منهم، ثم توطدت العلاقة بينه وبين اليهود عبر اليهودي النازي رودولف هيس الذي سوف يصبح نائب الفوهرر. وفي سنة 1923 توصل البروفسور النازي هانس غنتر إلى أن الصهاينة يرون «أن إلغاء حال التعايش بين اليهود والشعوب غير اليهودية هو السبيل الوحيد إلى ترتيب العلاقات بينهم»، وكان هذا مشجعاً لما يعرف بـ «الغيتو اليهودي». وهكذا أصبح غنتر «منذ تلك اللحظة مبعث الوحي الأعلى للرايخ الثالث في القضايا العرقية»**[472].

اعتقل هتلر إثر قيادته تمرداً في بافاريا سنة 1923، فألف في السجن كتابه «كفاحي» في مجلدين، وضمنه أفكاره العنصرية، وتصوراته لخريطة أوروبا المستقبلية. واعتبر المعركة مع اليهود

من أعمال الرب، حيث يقول في كتابه: «**أؤمن أنني أعمل اليوم وفق نيّات الخالق: أدافع ضد اليهود، وأحارب من أجل تحقيق إرادة الرب**»[473]. وفي العام 1929، ومع انفجار أزمة الكساد الكبير وانهيار بورصة وول ستريت، صرح هتلر بأن البؤس سوف يدفع بحزبه إلى السلطة، وهذا ما كان، فقد بدأ آلاف الشباب بالانضمام إلى شبيبة هتلر. **وفيما كان الفوهرر بحاجة إلى تمويل، جاءته الأموال من يهود نيويورك (وول ستريت)، لأن حرب هتلر كانت موجهة ضد يهودية الشرقيين. ومن بين الممولين الرئيسيين: بنك مندلسون وشركاؤه، ومصارف كوهن ولويب وشركاؤهما، ول. مورغان وشركاؤه، ساموبل وساموبل. وهكذا لم يعرف أحد كيف يتصور هتلر الاشتراكية، نظراً لروابطه مع رجال المال اليهود! ما أثر على شعبيته في انتخابات العام 1932، إثر انسحاب كبير من الحزب، كاد يخسر بسببه القيادة، لولا أن أنقذه من أزمته المصرفي اليهودي البارون فون شرودر، المرتبط بشركة ITT الأميركية. وبالمال استطاع هتلر ورفيقه غوبلز شراء ضمائر الفقراء بالبيرة والطعام. وبناء على الاتفاقية التي أجراها مع شرودر أُعلن هتلر في 30 كانون الثاني/ يناير 1933 مستشار الرايخ، وله من العمر 43 عاماً، ومنح صلاحيات مطلقة. وأصدر مستشاره هيس حظراً على مقاطعة البضائع اليهودية، وبعد فترة سوف يرتدي صاحب نعمته اللورد اليهودي شرودر بزة جنرال إس إس**[474].

وفي العام 1933 أسرّ هتلر إلى محاميه هانس فرانك: «عندما نصل إلى السلطة سنسعى كي يحصل اليهود على دولتهم.. ولا تنس هنا أن الرغبة بالسفر إلى فلسطين ستتوقف على الضغط الذي سنمارسه على اليهود»[475]. وبدأ المحامي هانس العمل على قوانين سحب الجنسية من اليهود، وصيغت قوانين نورنبرغ في حماية الدم والكرامة الألمانية، وحظر الزيجات بين اليهود والمواطنين من دم ألماني أو قريب عرقياً، ومعاقبة العلاقات خارج إطار الزوجية.

في العام 1934، جرت تصفية كبار اشتراكيي الحزب، وكان «روم» قائد فرقة SA آخر اشتراكي في الحزب النازي، وبعد فترة توفي الرئيس هندنبرغ، «**ومنذ تلك اللحظة لم يعد يوجد عند أعمدة السلطة في برلين أحد من دون مزيج دم يهودي**»[476].

منذ 1936 بدأ هتلر بإعادة عسكرة ألمانيا تحت أعين الغرب ورضاه، وخصوصاً بريطانيا التي تستهدف فرنسا بالدرجة الأولى. وفي العام 1937، كلف هتلر اليهودي النازي أدولف إيخمان[477] العمل على تهجير اليهود إلى فلسطين، وأقام الأخير علاقة لهذا الهدف مع فيفل بولكس اليهودي البولوني، رئيس منظمة الهاغاناه التي «تشرف على كل الأحزاب والاتحادات

المنضوية في المنظمة الصهيونية العالمية»[478]. وجرى الاتفاق على تهجير اليهود إلى فلسطين. وفي السنة نفسها نزل إيخمان في حيفا عن متن السفينة رومانيا، ليعلن بعد عودته عن رضا الدوائر الصهيونية «من السياسة الراديكالية الألمانية تجاه اليهود، فبفضلها ازداد عدد السكان اليهود في فلسطين بحيث سيكون أكبر من عدد العرب في المستقبل المنظور»[479].

في سنة 1938 احتل هتلر النمسا، تحت إعجاب تشرشل، وأنشأ إيخمان «مع معاونين صهاينة في قصر آل روتشيلد «المكتب المركزي لشؤون المهاجرين اليهود». وخلال وقت قصير بقيت حفنة فقط من أصل 200000 يهودي نمساوي»[480].

أصبح هتلر محاصراً بمجموعة عمل نازية يهودية، منها طبيبه الخاص الدكتور موريل الذي دأب على تسميمه بمادة الستريكنين، وعشيقته إيفا براون، وجميع أركان حزبه وقادته الأمنيين، ومنهم وزير الرايخ رودولف هيس، والماريشال هيرمان غورينغ، وغريغور شتراسر، ووزير الدعاية د. غوبلز، وألفرد روزنبرغ، وهانس فرانك، وهاينريش هيملر، والجنرال هايدريش، فون باخ – زيليفسكي وأوديلوغلوبوتسيك وفيلهلم كروغر، والعشرات غيرهم![481].

في العام 1939 بدأت ألمانيا إرسال اليهود إلى بولونيا، حيث لم يعترف بجنسياتهم، وألغيت جوازات سفرهم ما أرغمهم على الهجرة إلى فلسطين عبر رومانيا ومن هناك عبر البحر الأسود تحت حماية البوارج الألمانية من السفن الروسية ومن الألغام البحرية. وفي العام 1940، بدأ شحن اليهود من قبل إيخمان بالقوة، وبعد احتلال فرنسا، جرى الأمر نفسه مع يهودها.

في العام 1941، قال هايدريش لأعضاء الفرق العملياتية: «اليهود الشرقيون احتياطي للبلشفية ولذلك يرى الفوهرر ضرورة تحطيمهم». تذكر الجنرال SS أوهلندروف أن هايدريش نقل لقادة الفرق العملياتية أمر الفوهرر الذي جاء فيه: إن «الموظفين والنشطاء الشيوعيين، اليهود والغجر والمخربين والعملاء» يعتبرون «عناصر مجرد وجودهم يهدد الأمن ولذلك تنبغي تصفيتهم دون أية إجراءات قضائية».

أقام النازيون معسكرات للاعتقال ضمت بين أسلاكها الشيوعيين والمعارضين والغجر واليهود، وكانت تجري عمليات القتل والأشغال الشاقة والتجارب العلمية على أجساد المعتقلين. وكان أكثر الضباط المسؤولين عن فرز المعتقلين من النازيين اليهود، فيما عرف بالهولوكوست (المحرقة) التي استغلها الصهاينة إلى أقصى درجة، واعتبروا أن ضحاياها هم من اليهود

وضخموا العدد من 350 ألفاً إلى ستة ملايين، وكانت جريدة در شبيغل الألمانية التي يديرها الصهاينة أبرز الصحف التي عملت على تضخيم العدد وتخصيصه باليهود دون غيرهم.

في العام 1942 عقد المؤتمر النازي للحل النهائي للمسألة اليهودية، وأعلن رئيس الأمن اليهودي النازي راينهارد هايدريش: «أن الهدف الأساس هو تطهير المساحة الحيوية الألمانية من اليهود بشكل يتفق مع القانون»[482]، وعليه كان تكثيف العمل على تهجير من تبقى من اليهود.

بعد هزيمة هتلر وانتحاره، «قدِم الصهاينة من إيطاليا ليقوموا بأكبر عملية انتقام، حيث جرى تسميم الأسرى الألمان بالزرنيخ، فيما وصل من الولايات المتحدة جيش من الصهاينة ليعملوا على «إعادة تربية الألمان والسيطرة على الإعلام». وبعد وقت قصير أصبحت إبادة اليهود في شرقي أوروبا الموضوع رقم واحد المثار في آلاف المقالات الصحفية والنشرات والكتب والتعليقات الصحفية»[483]، ومع الزمن أُصدرت في أوروبا القوانين التي تعاقب كل من ينكر أو يشكك في رواية الهولوكوست! وقد رأينا أنه كان من أبرز ضحايا هذه القوانين الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي، والأب بيير، بتهمة التشكيك في عدد ضحايا المحرقة اليهودية.

دولة «إسرائيل»

قبل بضع ساعات من انتهاء الانتداب البريطاني، في 14 آذار/ مارس 1948، أعلن رئيس الوكالة الدولية اليهودية ديفيد بن غوريون استقلال دولة «إسرائيل»، واعترفت بها الولايات المتحدة الأميركية قبل أقل من أحد عشر دقيقة، أما الدولة العظمى الثانية حينها، الاتحاد السوفياتي فاعترف بها في 17 أيار/ مايو 1948. ويذكر الصحفي الروماني كرتشيون يونيسكو في كتابه أيام حارة في الشرق، معتمداً على معلومات مؤلفين كنديين هما إ. لابيير وإ. كولان في مؤلفهما «يا أورشليم»، أنه في مؤتمر يالطا الذي جمع كل من روزفلت وتشرشل وستالين، جرى التطرق إلى القضية الفلسطينية. وأن «ي. ف. ستالين خاطب و. تشرشل، كأنه يقول: إنه لا يوجد إلا حل واحد لفلسطين، وهو تأسيس دولة يهودية، الاقتراح الذي لم يرفض من قبل الرئيسين الآخرين»[484]. وهكذا اتضح «أن لعبة كواليس محبوكة بشكل جيد، وأنه في العام 1948 **عندما غادر الإنكليز فلسطين، تركوا وراءهم جيشاً يهودياً أكبر بعشرة أضعاف، ومسلحاً بمئة ضعف مما**

كان باستطاعة الفلسطينيين تجميعه. ووضعت بأيدي الباحثين وثائق تشير إلى أنه، ومن خلال سلسلة من المجازر، ومن خلال خطط إرهاب منهجي للمواطنين في أكثرية المدن العربية، نجح الجيش الصهيوني أن يطرد حوالى 800000 فلسطيني عربي. مذذاك بدأ الخروج الفلسطيني الكبير»[485].

في 11 أيار/ مايو 1949، قبلت «إسرائيل» كعضو في الأمم المتحدة. الدولة الجديدة التي تقوم على 77، 4 بالمئة من أرض فلسطين. **ومن المهم الإشارة إلى أن «إسرائيل» هي الدولة الوحيدة التي قامت بفعل الغير، وبقرار، ووفق شروط تفصيلية تناولت حق مبادئ الدستور ونصت على عدم المساس بالحقوق السياسية والمدنية والثقافية والدينية والاقتصادية لغير اليهود في القسم المخصص لليهود في فلسطين. وهي الدولة الوحيدة التي وضعت شروط لقبولها في الأمم المتحدة، التي حددها بروتوكول لوزان ووقعت عليه حكومة «إسرائيل». ومن أهم ما جاء فيه: احترام قرار التقسيم وقرار قيام «إسرائيل»، واحترام حق الفلسطينيين في العودة إلى بلادهم والتعويض على من لا يرغب في العودة. وبالطبع لم تحترم دولة الصهاينة أيّاً من هذه القرارات، ولم يتنطح أحد ليرغمها على ذلك!**

منذ قيام الكيان الصهيوني والمؤسسة المحورية فيه هي المؤسسة العسكرية، **حيث إنه الجيش الذي أسست لأجله دولة، وقد مثلت هذه الدولة قاعدة عسكرية متقدمة، وظيفتها حماية مصالح الاستعمار في المنطقة (عدوان السويس 1956)، وهي تعد أقل القواعد العسكرية كلفة (450 ألف جندي في حالة التعبئة، تكلف أميركا حوالى خمسة مليارات دولار فقط سنوياً).**

وقد دأب هذا الكيان منذ تأسيسه على ممارسة الفصل العنصري تجاه الفلسطينيين، وظلت نظريته للحل طوال الوقت تتمحور حول اقتلاع الفلسطينيين أو إبادتهم، وعليه يعتقد الباحث اليهودي إسرائيل شاحاك أن الأيديولوجيا الحاخامية القروسطية التي تهيمن في «إسرائيل» تعد مميتة، ويدعو إلى «البدء بتقويم نزيه للماضي اليهودي، والإقرار بأن الشوفينية اليهودية والشعور بالتفوق أمران موجودان، وإعادة النظر علناً بموقف اليهود من غير اليهود»[486].

* * *

صوغ البوتقة الصهيونية في الكيان

مع التحضير لإعلان الكيان الصهيوني في فلسطين، وخلال ذلك وبعده، كانت مسألة استجلاب الأعضاء (المواطنين) وإدماجهم في بوتقة واحدة، من أصعب الأمور التي واجهت القيادات التي تنطحت لوضع هذا البرنامج الجهنمي موضع التنفيذ. **فإضافة إلى فرض النموذج العسكري من ناحية التدريب والانتظام، كان على قادة الصهاينة حل ثلاث مسائل في غاية التعقيد: أولها مسألة اللغة المشتركة التي من خلالها سيجري التفاهم بين مختلف فئات هذا الكم المستجلب؛ وثانيها مسألة العمل الذي كان على هؤلاء القادمين أن يمارسوه، خصوصاً فيما يتعلق بالنشاط الأبرز، ألا وهو الزراعة التي لم يكن التجار والمرابون والمتعلمون على أي إلمام بها؛ وثالثة الأثافي هي تجاوز النزعة العنصرية بين المكونات الأوروبية الغربية والشرقية، وبين هذين المكونين والمكون المزراحي (العالمثالثي)؛ ومن الأكثر تطرفاً من اليهود في فن التمييز العنصري؟ هذا إذا تناسينا المحتوى الطبقي للـ «مجتمع» الذي يجري صوغه بالإكراه.**

وعلى هذا الأساس كان على القيادة ممارسة، وبقسوة، الأسلوب النازي نفسه من أجل إدماج القادمين الجدد في مجمعات تقوم على مبدأ الزراعة (من أجل تنمية الارتباط بالأرض)، واللغة التي هي محور القراءة والديانة والتعامل اليومي. وهكذا، فقد نجحت القيادة الصهيونية في جعل العبريّة لغة المستوطنين الجدد، عن طريق غسيل لغوي قاس، سهّل عملية الاندماج. ولإلقاء نظرة على تطور هذا الموضوع، نجد أنه في العام 1943 مثلاً، كان هنالك قرابة 300.000 شخص من سكّان المجتمع اليهودي في فلسطين ممن لا يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة. وكانت القدس، مثلًا، تحوي عدداً كبيراً من اللّغات داخل المجتمع اليهودي، من بينها الإسبانيّة والعربيّة (بلهجاتها الفلسطينية والمغربيّة وغيرها) والشرق أوروبية، كاليديش.. فآثر سكانها التكلم بلهجاتهم ولغاتهم الأمّ على العبريّة، والّتي كانت تعتبر لغة الدّين لا غير (لغة قديمة ولا محلّ لها من التّعامل اليومي). أي إنهم تمسكوا بجذورهم الأوروبية والعربية، وبالتالي لم يتماثلوا مع فكرة المستوطن اليهودي المثالي المرسومة في خيال قادة الحركة الصّهيونيّة. عدا ذلك، هدّد جهل المستوطنين الجدد بالزراعة والحياة في المستوطنات الزراعيّة، الحلم الصهيوني واستعماره بالفشل. فمن دون العلاقة مع الأرض أو اللّغة، خاف قادة الحركة من مقاومة المهاجرين «للروح الجماعية القومية العبرية»، ومن إعاقتهم لخلق مجتمعٍ متجانس من العمال المنتجين الطلائعيّين ليفلحوا الأرض ويستوطنوها. **ولهذا يقول رئيس المنظمة الصهيونية العالمية حاييم وايزمن: «إننا ملزمون بالمهمة الملحّة بتدعيم البنية الروحانية (في فلسطين)؛ علينا بمضاعفة نشاطنا في مجال الثّقافة العبريّة في كل المستوطنات الزراعية وكذلك في الشّتات. وستكون تلك خطيئة لا تغتفر إن اكتفينا بإنشاء مشاريع اقتصادية بحتة وأهملنا المحتوى الثّقافي للصّهيونيّة»**

أتى العلاج عن طريق الهيمنة، الهيمنة اللغوية والثقافية وفرض العبرية على جميع المستوطنين (الأيديولوجيون منهم والاقتصاديون). فأقرّ قادة الحركة الارتكاز على نشر اللغة العبرية والتشديد على استخدامها في جميع جوانب الحياة.

ومن أجل تعليم الأطفال اللغة العبرية منذ النشأة، كان لا بد لفكر عنصري من ابتداع أفكار تثبت هذا الذهن، **فقد اقترح ناحوم لفين، أحد قادة الحركة الصهيونية، أن يفصل ما بين المولود وأمّه التي لا تتكلّم العبريّة كي لا تؤثّر هي في تطور لغته العبرية.** وهناك اقتراحٌ آخر يقضي أن توفر الوظائف فقط للتلاميذ والطلاب الّذين درسوا العبريّة. ويبدو أنّ هذه الوسائل وغيرها نجحت في زرع نزعة لغوية للعبرية[487]، تتسم بالعنصرية، حيث أصبح من الطبيعي أن ينبذ كل من لا يتكلم العبرية في المستوطنات في فلسطين. **وقد سرى هذا الأمر لاحقاً على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة عام 1948، حيث عليهم تعلم العبرية وإلا فلن يستطيعوا التعلم ولا التخرج من الجامعات والمدارس اليهودية.**

الصهيونية في العقيدة المصلحية الأميركية

رأينا فيما سبق، كيف نقل المهاجرون البرتستانت معهم إلى أميركا أفكارهم المتقربة إلى اليهود، وخصوصاً منهم الجماعة البيوريتانية التي تزايد في صهيونيتها على اليهود. وقد ذكرنا توجهات الرئيس الثالث للولايات المتحدة جيفرسون الصهيونية. أما في القرن العشرين، فقد كان الرئيس ولسون أكثر من تأثر بالأفكار الصهيونية المسيحية، وهو الذي صرح أثناء الحرب الكونية الأولى: «**إنني أعتقد أن الأمم الحليفة قد قررت وضع حجر الأساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا**». وقد أصبحت مصالح الصهيونية الرأسمالية مهيمنة سياسياً في الولايات المتحدة منذ ما قبل تلك الفترة، حيث الولايات المتحدة تضحي «من أجلها بالصفقات التجارية مع الاتحاد السوفياتي، وبمسألة التزود بالنفط من الشرق الأوسط»[488]. وفي العام 1944 «تبنى الكونغرس الأميركي قرار المؤتمر الصهيوني الذي عقد في نيويورك في العام 1942م». واتخذ قراراً «تتعهد الولايات المتحدة بموجبه بذل قصارى جهدها من أجل فتح أبواب فلسطين أمام اليهود للدخول إليها بحرية»[489]. **أما في العام 1972 فقد أعلن المؤتمر الأول للمعمدانيين الجنوبيين في أميركا «أنه يعتبر اللاسامية معادية للمسيحية وأن المجتمع الإنجيلي حليف لطموحات «إسرائيل».**

وفي العام 1975 صدر قرار الجمعية العامة للامم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

ومع وصول كارتر إلى الرئاسة الأميركية أعلن «أن تأسيس «إسرائيل» المعاصرة هو تحقيق للنبوءة التوراتية»[490]، وكان كارتر يعتقد «أن علاقة أميركا بـ «إسرائيل» أكثر من مجرد علاقة خاصة. لقد كانت ولاتزال علاقة فريدة، وهي علاقة لا يمكن تقويضها، لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأميركي»، وهو من أدان من يتهم اليهود بقتل المسيح. **أما ريغان فقد عبر عن انتمائه إلى هذه الأفكار عندما قال فيما معناه: «إنني أتمنى أن يكرمني الله بأن أضغط على الزر النووي حتى تقع معركة هر مجدون وأعجل بذلك بالعودة الثانية للمسيح».**

واليوم، فإن عشرات الآلاف من المبشرين الإنجيليين يقومون على مدار الساعة بغسيل منهجي ومستدام للأدمغة، عبر وسائل الإعلام التي تدخل كل بيت دون استئذان، وعبر الكنائس والمدارس، وصولاً إلى مراكز الدراسات واتخاذ القرار في المجالس التمثيلية وقصور الرؤساء والملوك ودوائر المخابرات وقيادة الجيوش. **كل هذا ليجهزوا المصارف والأساطيل البحرية والجوية والصواريخ العابرة للقارات وسلاح هرمجدون النووي، لكي يخرجوا المخلص ويقتادوه رغماً عن أنفه إلى فلسطين! بعد أن يكونوا قد جهزوا له الأرضية عبر سحب ملايين اليهود من العالم لتجميعهم في القدس وحولها، لكي يكونوا الأضحية المناسبة التي تخيلها العقل المريض للعودة الميمونة!** «والتركيز التام على أحاديث التوراه يحمل العديد من المسيحيين على النظر إلى الشرق الأوسط وكأنه صورة لما ورد في التوراه. فإسرائيليو القرن العشرين هم إسرائيليو التوراه، والفلسطينيون هم فلسطينيو العهد القديم، وهكذا يربطون بين الأحداث، عن غير وعي في معظم الأحيان في سلسلة تاريخية مفككة الحلقات. وهكذا أيضاً يغشى الغموض التمييز بين المستوطنين اليهود في الضفة الغربية المحتلة والشعب العبري الذي غزا أرض كنعان بقيادة موشيه ويشوع»[491].

وللعلم فإن البروتستانت في أميركا يتوزعون على 200 طائفة، أكبرها وأكثرها مغالاة هي الطائفة التدبيرية (Indeispensationalism). وتعرف المجموعة باسم **الأنكلوساكسون البروتستانت البيض (Whit Anglo-Saxon Protestant)، وهي تضم الشخصيات الأبرز في المجتمع الأميركي سياسياً واقتصادياً وتربوياً وإعلامياً وعسكرياً.**

أما ما ساعد في زيادة صهينة المسيحية الأميركية فهو خروج الكنائس، منذ السبعينيات، إلى صدارة الحدث السياسي والاجتماعي، بفضل ثورة الإعلام والاتصال، وخصوصاً عبر ما يدعى

(الكنائس التلفزيونية). ويعد القس بات روبرتسون من أبرز الوجوه الدينية الإعلامية، في محطة سي بي إن؛ وجيمي سواجرت مدير عمليات محطة باتون روج التلفزيونية، ثاني أكبر محطة إنجيلية صهيونية؛ وجيم بيكر الذي يملك ثالث أشهر محطة وغيرهم الكثير. **وهكذا يمارس الغسيل اليومي لأدمغة الأميركيين عبر 1400 محطة دينية، من خلال 80 ألف قسيس إنجيلي، أكثريتهم من التدبيريين!**

وهكذا تصاعدت صهيونية الساسة الأميركيين، «حتى بات العديد من المحافظين يعتقدون «بأن قيام «إسرائيل» عام 1948 كان تحقيقاً لنبوءة توراتية، وبأن «دولة إسرائيل» ستستمر في لعب دور مركزي في القدر الإلهي»[492]. ومعروفة الأساليب التي اتبعها اللوبي الصهيوني لإخضاع الساسة الأميركيين، ومشهورة فضيحة الرئيس بيل كلينتون التي دبرت عبر الفتاة اليهودية مونيكا لوفينسكي. ومع وصول جورج بوش الأب واستتبعه ابنه دبليو بوش الذي تشرب أفكار المسيحية الصهيونية بشكل كبير، راح الأخير يستعمل المصطلحات الدينية كمثل مصطلح «محور الشر»[493] في إشارة إلى أعداء «إسرائيل»، إضافة إلى الرؤى الدينية، في سبيل تحقيق مصالح أميركا الاستعمارية، وفي تماهيها مع الكيان الصهيوني.

القلق المصيري عند الإسرائيليين

برغم كل ما تقدم، من صهيونية مسيحية، ومن دعم هائل، ومن سلاح نووي وفرته الإمبريالية الفرنسية للكيان الصهيوني لكي يحافظ على تفوقه العسكري على الدوام، وعلى الرغم من اتجاه الكثير من الحكام العرب لإقامة علاقات مع هذا الكيان، والتعامل معه أمنياً وخصوصاً من قبل حكام أصحاب القضية الحقيقية، أي الفلسطينيين، فإن «إسرائيل» لاتزال في المربع الأول من خوفها على المستقبل، والإسرائيليون لم يتوقف عندهم الخوف من الطفل الفلسطيني الذي يؤشر إلى الغد، لأن نظرية التفوق العنصري، والجيش الذي لا يقهر، لم تحمِ هذا الكيان من عدة هزائم تلقاها على يد مجموعات من المقاومين الذين أرادوا تحدي التزوير التاريخي الهائل. هذا إضافة إلى أن العلوم لم تسعف مخترعي هذا الكيان وحماته في إعطائه الشرعية التاريخية التي عليها أن تواكب الجهد الجبار في بناء معسكر على وهم أسطوري. ف «**بعد سبعين عاماً من الحفريات الأثرية المكثفة في أرض فلسطين، توصل علماء الآثار إلى استنتاج مخيف: الأمر مختلف من الأساس، فأفعال الآباء هي مجرد أساطير شعبية، فنحن لم نهاجر إلى مصر ولم نرحل من هناك. ولم نحتل**

هذه البلاد وليس هناك أي ذكر لإمبراطورية داود وسليمان، والباحثون والمتخصصون يعرفون هذه الوقائع منذ وقت طويل، ولكن المجتمع لا يعرف»[494].

أما عن الحالة الذهنية في مواجهة الأزمات المتلاحقة للكيان، فيعزوها مفكرو الكيان إلى متلازمة باركوخبا، **عن الانغماس في الذاتية بتصور انتحاري،** وهو تعريف أطلقه المفكر الصهيوني يهوشفاط هركابي. وقد أعاد بعض المفكرين الصهاينة طرح قضية عجز اليهود وافتقارهم إلى السلطة، «وذهبوا إلى أن **الإسرائيليين، بل الشعب اليهودي بأكمله، يفتقرون إلى تقاليد الدولة، أي ممارسة الحكم»، (وهذا يعني افتقارهم إلى الحس التاريخي)...** يقول هركابي: «**إن مشكلة «إسرائيل» ليست سياسية دائماً، وإنما وراء سياسية (ميتاسياسية) وتكمن في تشوه تفكيرها الأساسي: تمجيد الوهم – القصور في إدراك أن الواقع يحدد بحدود الممكن، وأن ما هو غير واقعي لا يوجد ولن يوجد – تمجيد الإدارة الطوعية أو الإرادية كما لو كان هذا كافياً لتحقيق الأهداف. نحن نرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن العدو له إرادة لا بد أن تؤخذ في الحسبان، ونضع سياستنا بشكل مجرد، حسب حاجات الصهيونية كأننا نعيش في فراغ (الأسطورة المعادية للتاريخ)، ونتجاهل النظام العالمي والأمن ومتطلباتهما من الآخرين، وكل هذا نابع من ضيق أفق يتعارض مع التاريخ»... وهذا الانغماس في الذاتية «يعبر عن نفسه – في تصور هركابي– في اتجاه انتحاري بين الإسرائيليين، فالقضية التي تواجههم ليس أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهايد» وإنما القضية هي أنهم لن يكونوا إذا ما استمروا متخندقين في الأسطورة الخاصة!** ويضرب هركابي مثلاً التمرد الثاني ضد الرومان»[495].

المراجع

المراجع باللغة العربية

- إبراهيم أبو لغد: تهويد فلسطين، 1972، مترجم عن الإنكليزية.

- أحمد إيبش: التلمود كتاب اليهود المقدس. دار قتيبة، دمشق 2006.

- أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ.

- أحمد فؤاد سالم: ألف سؤال وجواب عن مدينة بيت المقدس.

- أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة. الأهلية للنشر والتوزيع، 2003.

- إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، وطأة 3000 عام. ترجمة رضى سلمان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت. الطبعة العاشرة 2011.

- د. إسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، الكتاب الأول. دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الثانية، 2009.

- العهد القديم لزماننا الحاضر، الطبعة الثانية. دار المشرق، بيروت، 1993.

- القدس في التاريخ.

- المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق، بيروت ط 33، 1988.

- إيغَر شَفَريفِتْش: لغز عمره ثلاثة آلاف عام، تاريخ اليهود من منظور روسيا المعاصرة. ترجمة د. نوفل نيوف؛ د. عادل إسماعيل. الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010.

- بنجامين بيت هالامي: الخطايا الأصلية للصهيونية، ترجمة جبور سمعان، دار الحمراء، بيروت 2010.

- بول فندلي: من يجرؤ على الكلام، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1988.

- بيير روسي: مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، 1996، ترجمة وتحقيق فريد جحا. دار البشائر، بيروت).

- جيمس هنري برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال.

- حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة 1975.

- حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، ط 2 2008.

- روجيه غارودي: الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية. نسخة ألكترونية.

- رولا البرغوتي المحامي وظافر بن خضراء المحامي: جدار الفصل العنصري. دار الأوائل، دمشق 2004.

- رينيه دوسّو: العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة علي الدواخلي. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1959.

- زياد منى: مقدمة في تاريخ فلسطين القديم. دار بيسان 2000.

- ساباتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، 1986، نسخة ألكترونية.

- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت 1997.

- سليمان ناجي: المفسدون في الأرض، جرائم اليهود السياسية والاجتماعية. ط2، مكتبة السائح 1973.

- شفيق مقار: قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن–قبرص 1991.

- صبري جريس: تاريخ الصهيونية، ج1–1862–1917. مركز الأبحاث م. ت. ف، 1977.

- طوني مفرج موسوعة المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط. نوبيليس، بيروت 1995.

- ظافر بن خضراء المحامي: الإرهاب الصهيوني والقانون الدولي. دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق 2008.

- عبد الرحمن المزين: الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ، رسالة ماجستير 1975، جامعة حلوان.

- عبد الكريم الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ج 2.

- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، دار الشروق القاهرة وبيروت 1999.

- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء. ط 3. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- عزمي أبو عليان: رسائل الملك عبد حيبا، منتديات صوت فتح.

- علي أبو عساف: الآراميون، دار أماني، طرطوس، 1988.

- فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي. دار علاء الدين، دمشق، طبعة خامسة، 2002.

- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت، ط 2، 1972.

- كارل ماركس – فريدريك انجلس، المؤلفات الكاملة.

- كارل ماركس: حول المسألة اليهودية، 1844، ترجمة محمد عيتاني عن طبعة ألفريد كوست الفرنسية 1952.

- الكتاب المقدس، عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

- كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة_ إسكات التاريخ الفلسطيني. عالم المعرفة أيلول/ سبتمبر 1999. ترجمة سحر الهنيدي.

- محمد السماك: الصهيونية المسيحية. ط 3. دار النفائس، بيروت 2000.

- محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس. دار الكاتب العربي، القاهرة 1970.

- محمد عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر. دار النهضة العربية، بيروت 1989.

- محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث. مكتبة وهبة، ط 4، القاهرة 1990.

- مصلح الهباهبة: جذور الإرهاب في النص التوراتي، 2015.

- موسى مطلق إبراهيم: وعد التوراه من أبرام إلى هرتزل، ط2، دار أمواج، بيروت 1994.

- نورمن فنكلستين: إسرائيل، فلسطين، لبنان. رحلة أميركي يهودي بحثاً عن الحقيقة والعدالة. ترجمة سماح إدريس، دار الآداب بيروت 2008.

- نقولا زيادة، فلسطين من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بيروت، 1990.

- هيرودوس: التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، ط 2، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2007.

- هينيكيه كاردل: هتلر مؤسس إسرائيل، ترجمة ميشيل منيّر، دار الحمرا، بيروت 2008.

- وليد الجادر: حضارة العراق والشرقين الأوسط والأدنى القديمة، مجلة الأقلام، بغداد، ع6، ص 73.

- وليم ف. أولبرايت: آثار فلسطين، مترجم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الكتاب الحادي عشر، 1971.

المراجع باللغات الأجنبية

- Iustinus. Histoire universelle, ed. Panckoucke, Paris, 1883, XVIII.

- Th. L Thompson, Early history of the Israelite people from the Written @ archeological sources. Leiden, (Brill 1992).

- Constantin Daniel: Civilizatia feniciana. Edit. Sport- Turism, Bucuresti 1979.

- Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, (London 1985).

- W. F. Albright, Yahweh and the gods of Canaan, Anchor Books, (New York, 1969)

- W. F. Albright: The Bibliccal periodFrom Abraham to Ezra, (Newyork Harber and Row,1963).

- Wayane. T. Pitard: Anvient Damascus, Eisembrams, (Indiana 1987, p 67-71).

D. Lukenbiil: Amcient records of Assiria@Babillon, vol II. *

G. Van Seter, Abraham In History and tradition, (New Haven 1975)*

Ilie Puia: Palestina istorie si present, Bucuresti 1992.

- James L. Gelvin. The Modern Middle East, Oxford University Press, 2005.

- James Pritchard, the ancient near eastern texts, (Princeton 1969).

- Karl Marx: Capitalul. Vol 3, p751.

- Marcel Weinberg: Palestina Tara noastra, vol 1, Edit. M. Bethar-Romania 1935.

- Meir Zamir: Emile Edde and the territorial Integrity of Lebanon-M. E. S, v14,1978.

- P. K. Mc Carter, The patriarchal Age, (London SPCK, 1989).

- Sabatino Moscati: Vechile civilizatii Semite.

- T. E. Laurance. Cei Sapte stilpi ai intelepciunii, Editura Eminescu,1993, Bucuresti.

- Moses Hadas: «Hellenistic culture, fiusion and difiusion» columbia univ. press, New York 1959.

- Istoria lumii in date,Edit. enciclopedica romana. Bucuresti 1969.

Notes

[1←]

ألواح الإله إنكي وجد منها حتى الآن 14 لوحاً، 7 منها في نينوى في مكتبة آشور بانيبال.

[2←]

عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود، م 4، ص 18.

[3←]

هذه الفترة التي تعالجها روايات التوراه، وتخترع فيها ممالك وهمية مثل طوب وصوبة اللتين لم يكن لهما أي وجود. ناهيك عن ملوكها الذين تخترع لهم أسماء وهمية!.

[4←]

المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت.

[5←]

فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص 110.

[6←]

فراس السواح: آرام دمشق، ص 212.

[7←]

يظهر من سفر الملوك أن محرّري التوراه كانوا على جهل مطلق بأحداث هذه المرحلة، فقد غاب عنهم الملك هدد عدر المعاصر للملك آخاب السامري، كما جهلوا خوضه لخمس حروب ضد الآشوريين، إضافة إلى جهلهم بانضواء إسرائيل ضمن التشكيلة التي تقودها دمشق حينها.

[8←]

أنظر فراس السواح: آرام دمشق.. 208- 209.

[9←]

م.ن.، ص 223.

[10←]

فراس السواح: آرام دمشق، ص 231- 236.

[11←]

م.ن.، ص 240- 241.

[12←]
فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل، ص 19.

[13←]
Sabatino Moscati, the world of the phoenicans, Cardinal,London 1973, PP 22-23

[14←]
سنستعمل هنا كلمة سامي للإشارة إلى الأقوام التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية، أما مصطلح سامي فقد أطلقه شلوتزر للدلالة على اللغات المشرقية ذات الأصل المشترك، ونرى أنه من الأفضل أن نطلق عليها مصطلح «العربية».

[15←]
Cost. Daniel: ibidem. P15

[16←]
المزين: فلسطين عبر التاريخ.

[17←]
نوارس أدبية 30/12/2010 نقلاً عن الباحث فراس السواح.

[18←]
فيصل صالح الخيري: دلالة أسماء فلسطين والقدس، عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام.

[19←]
يرى بعض المؤرخين أن الباليستا هم كنعانيون كانوا قد هاجروا قديماً إلى الجزر اليونانية، وعادوا ضمن حملة شعوب البحر، لذلك لم يجدوا صعوبة في الاندماج بسرعة في مجتمع يعرفون لغتة وثقافته وتقاليده.

[20←]
دلالة أسماء فلسطين والقدس، م.س.

[21←]
كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة، مقدمة المترجم، ص 15.

[22←]
أنظر: فيصل صالح الخيري: دلالة أسماء فلسطين والقدس، عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام.

[23←]

فراس السواح: آرام دمشق ص 21– 22. وانظر كذلك:

Th. L. Thompson, Op. cit, PP 181–183.

[24←]

رشيد الفاخوري: جنوب غربي آسيا الشمالية وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، ص 331.

[25←]

فيليب حتّي، سورية ولبنان وفلسطين، ص 157– 159.

[26←]

وليم ف. أولبرت: م.س.، ص 85.

[27←]

جواد بولس: لبنان والبلدان المجاورة، ص 103– 104.

[28←]

أنظر السواح ص 22– 23، وانظر كذلك:

Kathleen Kenyon. Archaeology in the Holy Land. London. 1985, pp 148–178.

[29←]

خزعل الماجدي، م.س.

[30←]

عزمي أبو عليان: رسائل الملك عبد حيبا، منتديات صوت فتح.

[31←]

تاريخ هيرودوت، ص179.

[32←]

أبو عليان: المصدر نفسه.

[33←]

James Pritchard, the ancient near eastern texts, Princeton 1969, p529

[34←]

موسى مطلق ابراهيم: وعد التوراه، ص174.

[35←]

Joseph Callaway: Op. Cit, pp 75

[36←]

السواح: آرام دمشق.. ص 97- 98.

[37←]

H.J.Franken: Palestine in the time of 19th Dynasty, The cambridg ancient history, univ. Press 1975, pp 331-337.

[38←]

فلسطين عبر التاريخ، مصدر سابق.

[39←]

جواد بولس: لبنان والبلدان المجاورة، ص 108.

[40←]

Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, P 212-219 /

السواح: أرام دمشق... ص 85.

[41←]

الماجدي: المصدر السابق.

[42←]

سوف نفصل تاريخ هذه المملكة الكنعانية التي استمرت لقرنين من الزمان في فصل خاص.

[43←]

ظهرت مملكة أورشليم الكنعانية كقوة إقليمية سنة 732 ق.م، حين حضر ملكها آحاز استسلام مدينة دمشق على يد تغلات فلاسر الثالث، وقد بدأت المدينة عهدها كعميل لآشور، وساعد في صعودها القضاء على السامرة ولخيش على يد الآشوريين الذين قاموا بتنظيم تجارة الزيت. كما استفادت من استيعابها لأفواج النازحين من مناطق التدمير الآشوري إبان عهد تغلات فلاسر الثالث وسرجون الثاني. كما سنفصل تاريخها لاحقاً.

[44←]

المنجد في اللغة والأعلام.

[45←]

هيرودوت، ص206.

[46←]

م.ن.، ص207.

[47←]
المنجد في اللغة والأعلام.

[48←]
السواح: آرام دمشق.. ص 184.

[49←]
أحمد فؤاد سالم: مصدر سابق.

[50←]
السواح: آرام دمشق.. ص 288.

[51←]
نحميا: 2.

[52←]
السواح: آرام دمشق.. ص289.

[53←]
السواح: آرام دمشق.. ص 289.

[54←]
عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود، م 4، ص 22.

[55←]
فلافيوس: تاريخ اليهود.

[56←]
إيغر شَفَريفِتْش: لغز عمره ثلاثة آلاف عام، ص 34.

[57←]
كانت العادة المتبعة في هذا الصدد، كتابة أسماء المدن والشعوب التي يطلب من الآلهة تسليط اللعنة عليها، على الأواني الفخارية ثم تحطيمها في أحد طقوس ترمي إلى تدمير هذه المدن أو التسبب في كوارث تصيب الشعوب المكروهة.

[58←]
فيصل صالح الخيري: دلالة أسماء فلسطين والقدس، عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام.

[59←]
عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام، تصفح 15/3/2010.

[60←]
السواح: آرام دمشق.. ص 26- 27.

[61←]
حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج1، ص 172- 173.

[62←]
برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص 257.

[63←]
السواح: آرام دمشق.. ص 82.

[64←]
أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 424- 427.

[65←]
Wayane. T.Pitard: Anvient Damascus, Eisembrams, Indiana 1987, pp 67-71.

[66←]
تك: 14: 13/ 41:12.

[67←]
التثنية 26: 4- 5.

[68←]
هناك من يعتقد أنهم جالية عسكرية تتبع الفرس كالتي جاءت مع نحميا، أو أنها جاءت قديماً منذ زمن الفرعون أمينوفيس، ويعود أصلهم إلى الخابيرو، والذين اعتنقوا اليهودية مع سيطرة الفرس على المنطقة.

[69←]
السواح: آرام دمشق، ص 184.

[70←]
أنظر السواح، 184- 185.

[71←]
أنظر فراس السواح: آرام دمشق و.. ص 238، عن تقارير أثرية للمنقبين الإسرائيليين مازارو وكوشافي/

Th. L. Thompson: Early history of the Israelit.. pp 288-289.

[72←]
أنظر الخريطة على الصفحة التالية.

[73←]
السواح: آرام دمشق.. ص 179- 184.

[74←]
السواح: آرام دمشق.. ص 165.

[75←]
Kathleen Kenyon: Archeology in the Holy Land, p 200.

[76←]
السواح: آرام دمشق.. ص 169.

[77←]
السواح: آرام دمشق.. ص 204.

[78←]
W. F. Albright: Palestinian inscriptions ,in, James Pritchard: Ancient Near Eastern Texts, p 320.

[79←]
السواح: آرام دمشق.. ص 207

[80←]
م.ن.، 208- 209.

[81←]
هناك نحت في نمرود عاصمة آشورية يظهر ملك إسرائيل خاضعاً عند أقدام شلمنصر.

[82←]
أنظر فراس السواح: آرام دمشق ص ص 223 حتى 229.

[83←]
حكمت أم هدد نيراري منذ 824 ق.م، لأن ابنها كان صغيراً حين توفي والده.

[84←]

فراس السواح: آرام دمشق، ص 231- 236.

[85←]

أنظر فراس السواح: آرام دمشق.. ص ص 248- 251/

Leo Openheim: Op cit, p 286.

[86←]

أنظر السواح، آرام دمشق، ص 178.

[87←]

أنظر السواح: آرام دمشق و.. ص 239.

[88←]

أنظر السواح: آرام دمشق، ص 254.

[89←]

م.ن.، ص 253.

[90←]

السواح: آرام دمشق، ص 254.

[91←]

التوكيد للمؤلف.

[92←]

السواح: أرام دمشق.. ص 261.

[93←]

الملوك الثاني 24: 8- 18.

[94←]

اسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 88.

[95←]

السواح: آرام دمشق.. ص 184.

[96←]

عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود، م 4، ص20.

[97←]
م.ن.، ص 18.

[98←]
كارل ماركس: المسألة اليهودية، ص 19- 20.

[99←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود..ج2- ص 44.

[100←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص19.

[101←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود..ج2- ص 56.

[102←]
موفق محادين: دورة للدين اليهودي، ص 53.

[103←]
أوسويل: بصدد الإدارة الذاتية اليهودية في القرون الوسطى والعهدين العربي والتركي/محادين: دورة الدين اليهودي.

[104←]
غرايتز: حركة الصقالة، ص 116.

[105←]
أنظر عبدالله النجار: المصدر نفسه، ص 21.

[106←]
الحسيدية هي مذهب يهودي سلافي، نتج من الفكر الفلاحي الصوفي السلافي وعقائد المنشقين عن الكنيسة الأرثوذوكسية، والحسيديم يرتدون الزي الأرستقراطي البولوني المكون من القفطان التتري وقبعة الستريميل السلافية المزينة بالفرو.

[107←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود..ج2، ص44- 49.

[108←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص49- 50.

[109←]

Moses Hadas: Hellenistic culture, fiusion and difiusion/

إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية، ص 33.

[110←]

شاحاك، ص 34.

[111←]

م.ن.، ص 44.

[112←]

أنظر المسيري، موسوعة اليهود و.. م4/ج3.

[113←]

وهذه مسألة سنبحثها لاحقاً على حدة.

[114←]

اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص39- 40.

[115←]

اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص46.

[116←]

شفريفيتش، ص 34.

[117←]

أشعيا 49: 23.

[118←]

أشعيا 61: 5- 6.

[119←]

الخروج: 15- 16.

[120←]

للمزيد أنظر مصلح الهباهبة: الإرهاب التوراتي، ص15- 20.

[121←]

إن أمك سترتبك على نحو موجع، التي حملت بك ستشعر بالخزي..» أرميا النبي 50: 12.

[122←]
شاحاك: الديانة اليهودية، ص 50.

[123←]
م.ن.، ص 51.

[124←]
المؤسسان المفترضان للفرقة الدينية الصدوقية.

[125←]
شاحاك، ص 52.

[126←]
م.ن.، ص 55.

[127←]
م.ن.، ص 105.

[128←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 137.

[129←]
خروج 19: 5- 8.

[130←]
تكوين 13: 14- 17.

[131←]
تكوين 35: 9- 12.

[132←]
تثنية 32: 49.

[133←]
للمزيد أنظر: مصلح الهباهبة: الإرهاب التوراتي، ص 27- 34.

[134←]

تثنية 13: 13- 18.

[135←]
العدد 31: 9- 11.

[136←]
أنظر مصلح الهباهبة: الإرهاب التوراتي، ص 47- 67.

[137←]
المسيري: موسوعة اليهود.. م 4، ص 25.

[138←]
م.ن.، ص 23.

[139←]
م.ن.، ص 24.

[140←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص28.

[141←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود.. ص 39.

[142←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود.. ص 39- 40.

[143←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود، م 4، ص 51- 54.

[144←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود، م 4 ص 54- 56.

[145←]
معناها «أئمة المصلين»، وتشير إلى المجلس الذي كان يتولى قيادة الجماعات اليهودية الإسبانية والبرتغالية السفاردية. ويقابل الماهاماد القهال عند الإشكناز (وإن كان يختلف عنه في أنه لم يكن يقوم بجمع الضرائب)، كما يقابل مجلس يهود وسط أوروبا. وكان عدد أعضاء المجلس سبعة، وأحياناً أربعة فقط، يقوم أحدهم بوظيفة أمين الصندوق. وقد قامت مجالس الماهاماد في هولندا ومستعمراتها، وفي إنكلترا. وكانت سلطات الماهاماد شاملة ومطلقة تشكل حكماً للأقلية الثرية التي كان أعضاء المجلس يُختارون من بينها. ولم يكن من حق

العضو الذي يقع عليه الاختيار أن يرفض المنصب الذي يُعرَض عليه وإلا كان عليه دفع غرامة. وهذا ما حدث لإسرائيل دزرائيلي، الذي تنصر احتجاجاً.

[146←]
المسيري: موسوعة اليهود، م4، ص 50.

[147←]
المسيري م 4، ص 58.

[148←]
للمزيد أنظر المسيري م4، ص 59 وما بعد.

[149←]
شاحاك، الديانة اليهودية، ص 38.

[150←]
م.ن.، ص 34.

[151←]
م.ن.، ص 41.

[152←]
المسيري: موسوعة اليهود و..م5، ج2.

[153←]
المسيري: موسوعة اليهود..ج2، ص 54- 55.

[154←]
حزقيال 40: 46: «بنو صادوق هم الذين من بني ليوي يقتربون من الرب ليخدموه».

[155←]
ملوك 1- 2: 35.

[156←]
أنظر: الأب يوسف فغالي: الصادوقيون، موقع ألكتروني.

[157←]
أنظر: الأب يوسف فغالي: المصدر السابق.

[158←]
ترك يوسيفوس مذهب الصدوقيين والتحق بالفريسيين.

[159←]
الأب فغالي: المصدر السابق.

[160←]
الأب فغالي: المصدر السابق.

[161←]
يقول المسيري في موسوعته: «أسينيون» من الكلمة الآرامية «آسيا»، ومعناها «الطبيب» أو «المداوي»، وهي من «يؤاسي المريض». ويُقال إنها من الكلمة السريانية «هاسي»، كما يُقال إنها تعود إلى كلمة «هوسيوس» اليونانية، أي «المقدَّس»، ولعلها النطق اليوناني «أسيديم» للكلمة العبرية «حسيديم»، أي «الأتقياء»، ولعلها تصحيف للكلمة العبرية «حَاشائيم»، أي «الساكتين».

[162←]
كان فيثاغورس (580– 490 ق.م) يعتقد أن الرياضيات يمكنها حل كل التساؤلات، وكان يقدس الأعداد وخصوصاً الرقم 10.

[163←]
تتمحور الديانة البرهمية على الاعتقاد بتثليث الآلهة، وإن كان ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين في نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته، ذلك أنها تقرّر أنّ الإله براهما كان قبل الوجود وأنه خلق العالم وسمّى نفسه الخالق، ثم انبثق منه الإله سيفا وهو الإله المدمّر الذي لو تُرك وشأنه لفني الكون بمن فيه. ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ هو الإله فيشنو (كريشنا) الذي انبثقت عنه فكرة الخلاص بتقديم نفسه فداءً لتكفير خطيئة البشرية الأزلية. ويصوّر البراهميون فيشنو مصلوباً مثقوب اليدين والرجلين وعلى قميصه قلب الإنسان معلقاً.

[164←]
تتمحور العقيدة البوذية حول ثلاثة جواهر: الإيمان ببوذا المعلم المستنير للعقيدة؛ الإيمان بـ «دراما» الحقيقة وهي تعاليم بوذا؛ والمجتمع البوذي. ولم تكن عقيدة التثليث حكراً على هذه وتلك، فقد كان البانثيون الفينيقي يحتوي على مثلث الآلهة (مثال: ملكارت أدونيس عشتار)، وكذلك الكنعاني.

[165←]
المسيري: موسوعة اليهود و.. م5، ص 269.

[166←]
اشتقاق من الفرس، ومنهم من يقول إن أصل الكلمة آرامية وتعني «المنعزل».

[167←]
مك 2: 42 و7: 3 و2 مك 14: 6.

[168←]

موقع مار تقلا الألكتروني.

[169←]

قنائيم جمع «قانّا» وتعني بالعبرية «غيور» أو صاحب الحمية: (الزيلوت).

[170←]

يوسيفوس: تاريخ اليهود، 97- 243- 323/ القدس في التاريخ، ج 1، ص 80- 86/عن مقدمة التلمود بقلم د. سهيل زكار، ص 16.

[171←]

اشتقاق لاتيني من كلمة «sica» التي تعني الخنجر. و «sicarius» تعني حامل الخنجر.

[172←]

موسوعة الأديان الألكترونية، ب2/ف3.

[173←]

أنظر: المسيري: موسوعة اليهود و.. م5، ص 264- 265.

[174←]

أحمد إيبش: التلمود. ص 41.

[175←]

د. قاسم عبده قاسم: اليهود في ظل الحضارة العربية الإسلامية، موقع عين الألكتروني للدراسات.

[176←]

المسيري: موسوعة اليهود و.. م5، ج2.

[177←]

إيبش: ص 42.

[178←]

المسيري: موسوعة اليهود و.. م5/ج2.

[179←]

اسم بعل الطيب، لنرى أن اليهود لا يزالون يستعملون اسم الإله الكنعاني بعل.

[180←]

الذين يجلدون أنفسهم بالسياط.

[181←]

أنظر، المسيري: موسوعة اليهود و.. م5/ج3.

[182←]

المسيري، موسوعة اليهود والصهيونية، م 3، ص 1203.

[183←]

جعفر هادي حسين، اليهود الحسيديم؛ نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم، ط1، دار القلم، دار الشامية، دمشق، بيروت، 1994م، ص: 11.

[184←]

إيبش: التلمود. ص42.

[185←]

بتصرف، إيبش ص 44- 45.

[186←]

أنظر المسيري: الموسوعة اليهودية و.. م5/ج3.

[187←]

أنظر: المسيري: موسوعة اليهود و.. م 4، ص 6- 7.

[188←]

م.ن.، ص 28.

[189←]

المسيري: موسوعة اليهود.. م4، ص 27.

[190←]

موقع الحقيقة السورية.

[191←]

السواح: آرام دمشق.. ص 275.

[192←]

السواح: آرام دمشق.. ص 277.

[193←]

أخضع بابل وميديا وأرمينيا وتراقيا ومقدونيا، وبنى برسيبوليس، وهُزِمَ في ماراتون على يد اليونانيين 490 ق م.

[194←]

خلف والده داريوش الأول سنة 486 ق.م. أخضع مصر، واجتاح اليونان ودمر أثينا، هزمه تيمستوكليس في معركة سلامينا البحرية 480 ق.م، اغتيل سنة 465 ق.م/عن المنجد في اللغة والأعلام.

[195←]

تقول الرواية أنه بنى الهيكل 445 ق.م تقريباً.

[196←]

اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص12.

[197←]

م.ن.

[198←]

السواح: آرام دمشق.. ص 285.

[199←]

الزمن اللامحدود.

[200←]

أحمد إيبش: التلمود، ص 9.

[201←]

م.ن.، ص 9.

[202←]

م.ن.، ص 9.

[203←]

إيبش: التلمود...، م.س.، ص 10.

[204←]

م.ن.، ص9.

[205←]

السواح: المصدر نفسه، ص 278- 279.

[206←]

عزرا 1: 1- 11.

[207←]

أشعيا 45: 1- 6.

[208←]

هذا التاريخ لم يرد في اسفار التواره طبعاً وقد وضعناه للتوضيح.

[209←]

عزرا 6: 1- 12.

[210←]

عزرا 6: 9- 12.

[211←]

فراس السواح: آرام دمشق و... ص 281.

[212←]

عزرا 1:7- 26.

[213←]

عزرا 25:7- 29.

[214←]

شاحاك: الديانة اليهودية.. ص 96.

[215←]

Th. L. Thompson, op, cit, p 418.

[216←]

السواح: آرام دمشق و.. ص 283.

[217←]

السواح: آرام دمشق.. ص 284- 285.

[218←]

م.ن.، ص 285.

[219←]

السواح: آرام دمشق، ص 285.

[220←]
شاحاك، ص 96- 97.

[221←]
اسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 87.

[222←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 83- 84.

[223←]
م.ن.، ص85.

[224←]
م.ن.، ص 84.

[225←]
إيبش: التلمود. ص 26.

[226←]
من ثانا أي كرر، تصبح بمعنى درس.

[227←]
تشير إلى دراسة الشريعة الشفوية، وهي أول ما ألف في التوراه الشفهية، وتتضمن الشرائع ومجموعة واسعة من الشروح والتفسيرات تتناول أسفار العهد القديم.

[228←]
أنظر: اسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 86.

[229←]
نسبة إلى قرية سور البابلية حيث دونت.

[230←]
اسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 89.

[231←]
برهان الدين دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام، ص215- 216/ وحسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج1، ص245- 246.

[232←]

هادي العلوي: المرئي واللامرئي في الأدب والسياسة، ص5.

[233←]
مصطلح «سامية» استعمله اللغوي الألماني شلوتزر للإشارة إلى مجموعة اللغات العربية التي تعود إلى جذر لغوي واحد، ولا يحمل المصطلح أي دلالة عرقية، وكان باستطاعته استعمال مصطلح اللغات العربية.

[234←]
المصدر السابق، ص 120.

[235←]
شفيق مقار: قراءة سياسية للتوراة، ص17- 18.

[236←]
انظر عبدالله أبي عبدالله: تاريخ الموارنة ومسيحيي الشرق؛ ج1، ص72، 74، 76، 77.

[237←]
السمعاني: المكتبة الشرقية، م1، ص 171.

[238←]
حتي: المصدر السابق، ص82.

[239←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 84.

[240←]
مقابلة مع وحيد تاجا، صحيفة الوطن العمانية (عن موقع الصحيفة).

[241←]
أحمد إيبش: التلمود، مقدمة د. سهيل زكار، ص 19.

[242←]
اليديشية لهجة ألمانية هجينة تألفت من مفردات أوروبية مختلفة من لاتينية وأنكلوسكسونية وسلافية، وعبرية وتكتب بالحروف الآرامية.

[243←]
بيير روسي: مدينة إيزيس- التاريخ الحقيقي للعرب، ص 28- 19.

[244←]
إحدى رسائل إنجلز إلى ماركس.

[245←]

C. Daniel: Civilizatia,Feniciana. P 188

[246←]

أنظر الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ج2، ص 74- 77.

[247←]

اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 184.

[248←]

سفر الخروج 11: 15.

[249←]

سفر الخروج 3: 20- 6.

[250←]

إرميا النبي 10/ إشعيا44.

[251←]

شاحاك، ص 65.

[252←]

اسماعيل ناصر الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 88.

[253←]

أحمد إيبش: التلمود.. ص 25.

[254←]

إيبش: التلمود، ص 26.

[255←]

م.ن.، ص 27.

[256←]

إيبش: التلمود، ص 41.

[257←]

P.K. Mc Carter, op. cit, pp 17.FF

[258←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 10- 11.

[259←]
السواح، ص 52.

[260←]
تكوين 11: 27- 32.

[261←]
تك 12: 1- 2.

[262←]
ألفونسو آركي: الشواهد الكتابية في إيبلا والتوراه (مقالة في كتاب: إيبلا- مجموعة أبحاث، ترجمة قاسم طوير، دمشق 1984، ص 73/ السواح ص 50).

[263←]
تكوين 12: 4- 20.

[264←]
تك 20.

[265←]
تكوين 13: 1- 2.

[266←]
تك 13.

[267←]
تك 14.

[268←]
تك: 17.

[269←]
راجع: فراس السواح: آرام دمشق واسرائيل، ص 31- 32- 45.

[270←]
ما دامت كل كنعان ملكاً أبدياً بأمر الرب، فما داعي صك الملكية هنا؟.

[271←]
فراس السواح: آرام دمشق...، ص 34.

[272←]
م.ن.، ص 51.

G.Van Seter, Abraham In History and tradition, New Haven 1975/ cited in: Th. L. Thompson, Op.Cit, pp 92-93.

[273←]
تك 26.

[274←]
تك 25.

[275←]
تك 27.

[276←]
تك 28- 29.

[277←]
تكوين: 32.

[278←]
تكوين36: 6.

[279←]
أرض كنعان المذكورة في التوراه والتلمود هي الجزء الجنوبي من فلسطين إلى حد صحراء النقب وصحراء سيناء.

[280←]
أحمد إيبش: التلمود، هامش رقم 2 ص 127.

[281←]
فراس السواح: آرام ...، ص 53.

[282←]
فراس السواح: آرام دمشق ...، ص 54.

[283←]
التكوين: 49: 4- 10.

[284←]
أودع يعقوب صك ملكية مغارة المكفلاه في حق من فخار لكي يبقى محفوظاً، إلا أن التنقيبات الأثرية لم تعثر عليه!.

[285←]
من نسل ليوي ستتأسس سلالة الكهنة التي تشبه سلالة المجوس.

[286←]
التكوين 50: 10.

[287←]
تكوين 50:13.

[288←]
الخروج 3- 6.

[289←]
الخروج: 5- 12.

[290←]
أحمد إيبش، التلمود، ص 197.

[291←]
تك:15: 13 و 16.

[292←]
الخروج: 13: 17- 18.

[293←]
السواح، آرام دمشق.. ص 78.

[294←]
فراس السواح، آرام دمشق و.. ص 46 (1550- 1200 ق. م.)

[295←]
يشوع 17: 12.

[296←]
يشوع 16: 10.

[297←]
يشوع: 11- 12- 24.

[298←]
السواح، آرام دمشق.. ص 92.

[299←]
سفر العدد 31: 31- 34.

[300←]
السواح، آرام دمشق.. ص 94.

[301←]
السواح، آرام دمشق.. ص 72.

[302←]
N.M.Sarna. Op. citr, p 51.

[303←]
أنظر القضاة 1: 32.

[304←]
قضاة 1: 1- 8.

[305←]
قضاة 19: 11- 12.

[306←]
قضاة: 1: 30- 36.

[307←]
أنظر: السواح: آرام دمشق.. ص 106- 107.

[308←]
H.J.Franken: Palestine in the time of 19th Dynasty, The cambridg ancient history, univ. Press 1975, pp 331-337.

[309←]

صموئيل، 11- 14 و 15.

[310←]

صم 2: 8- 9.

[311←]

صموئيل 2: 1- 5

[312←]

صموئيل 2: 21.

[313←]

صموئيل 2: 24.

[314←]

السواح، آرام دمشق.. ص128.

[315←]

زوجة أوريا الحثي التي اغتصبها داود فأنجبت شلومو.

[316←]

السواح، آرام دمشق، ص145.

[317←]

م.ن.، ص 137/ الملوك: 5- 8.

[318←]

ملوك ثاني 10: 14- 29.

[319←]

السواح، آرام دمشق: ص ص 150- 152.

[320←]

م.ن.،ص 157. وانظر كذلك:

T.h.L.Thompson, Early history of the Israelite people, pp58.

[321←]

ملوك أول 11: 1- 13.

[322←]
السواح: آرام دمشق و.. ص 286.

[323←]
من كتاب : تاريخ أورشليم لفراس السواح.

[324←]
ملوك أول12: 1- 32.

[325←]
ملوك أول 14 و15.

[326←]
السواح، آرام دمشق.. ص 144.

[327←]
هناك مسلسل إيراني عن قصة يوزرسيف، حبكته مأخوذة عن رواية العهد القديم، بسيناريو لكاتبين أحدهما تركي والآخر إيراني، يظهر أن يوزرسيف هذا كان وزير الفرعون أخناتون، دون أن يسميه.

[328←]
إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية، ص 96.

[329←]
أنظر فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج1، ص 240- 242.

[330←]
نقولا زيادة: فلسطين من الإسكندر إلى...، ص 142.

[331←]
زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين...، ص 103.

[332←]
حتي، تاريخ سورية ولبنان...، ص 242- 245/ ماهر الشريف: تاريخ فلسطين القديم. موقع حزب الشعب الفلسطيني.

[333←]
إيبش:المصدر نفسه، ص 7- 12.

[334←]

المسيري: موسوعة اليهود و..م4.

[335←]

المسيري: موسوعة اليهود.. ص34.

[336←]

شاحاك: الديانة اليهودية و. ص 96- 97.

[337←]

المسيري: موسوعة اليهود.. ص34- 35.

[338←]

المسيري: موسوعة اليهود و.. م4، ص61.

[339←]

عن يوسف فلافيو: تاريخ اليهود.

[340←]

أحمد إيبش: التلمود، ص 14.

[341←]

أرنولد توينبي –دراسة في التاريخ – مطبعة أكسفورد، 1960 نقلاً عن عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص 17.

[342←]

عن رينيه دوسّو: العرب في سورية قبل الإسلام، عبدالحميد الدواخلي، دار الحداثة، ط 2، بيروت 1985، ص 150- 157.

[343←]

على غلاف هذا الكتاب تظهر صورة لنقش ظهر على بوابة تيتوس في روما يمثل أسرى يهوداً يحملون المنواراه اليهودية.

[344←]

إقليم في منطقة دجلة العليا نشأت فيه إمارة تابعة للفرس عاصمتها أربيل، على تخوم الإمبراطورية الرومانية. وقد تهود أميرها إيزاط (36- 60م) وأمه رغم معارضة بعض الأمراء الآخرين، وهوَّد إمارته التي ظلت قائمة تحت رعاية الفرثيين إلى أن قضى عليها الإمبراطور الروماني تراجان سنة 115 م.

[345←]

المسيري: موسوعة اليهود و.. م4، ص 14.

[346←]
المسيري: موسوعة اليهود.. ص 35.

[347←]
م.ن.، ص 64.

[348←]
أنظر: القدس في التاريخ.

[349←]
قصة المسادا وشخصية يهودا المكابي اللتان تعتبرهما المسيحية من جوهر المسيحية (الحاشية لشاحاك).

[350←]
أدت صفقة بين الإمبراطورية الرومانية والقادة اليهود (حكم أسرة النسيعيم)، إلى إخضاع كل يهود الامبراطورية للسلطة التأديبية والمالية لهؤلاء القادة ومحاكمهم الحاخامية، بعدما أخذوا على عاتقهم المحافظة على النظام في وسط اليهود (الهامش لشاحاك، ص 61).

[351←]
شاحاك، ص 97.

[352←]
المشناه هي مجموعة القوانين اليهودية التي تم جمعها حتى حوالى العام 200 ميلادي، والتي ألقت الضوء على الشريعة الموسوية ومواءمتها للخبرات البشرية.

[353←]
يعتقد أن كلمة جماراه مشتقة من الكلمة الآرامية «جمرة» ومعناها تكملة، وتدل على تكملة تفسير المشناه على يد الكهنة اليهود في فلسطين وبابل.

[354←]
المسيري: موسوعة اليهود.. ص35.

[355←]
أحمد إيبش: التلمود. ص 45.

[356←]
المسيري: موسوعة اليهود.. ص36.

[357←]

أنظر المسيري: موسوعة اليهود.. ص36.

[358←]

محمود اسماعيل: ندوة عقدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة في كانون الأول/ ديسمبر 2010، وفقاً لصحيفة اليوم السابع.

[359←]

اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، 71.

[360←]

م.ن.، ص72.

[361←]

ومن المشكوك في أمر انعقاد مجمع كهذا في ظل سلطات تلاحق المؤمنين تحت طائلة الموت، ويومها كان ينشط شاؤول الطرسوسي.

[362←]

قديس من آباء الكنيسة، ولد في دلماتسيا سنة 347، تنسك في شمال سورية، ثم في بيت لحم. وتوفي عام 420م.

[363←]

المنجد في اللغة والأعلام.

[364←]

د. محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث. ص13.

[365←]

محمد بوداي، عن صفحته.

[366←]

أنظر أيضاً: د. محمد الذهبي، المصدر السابق، ص ص 17- 24.

[367←]

وليد محمد علي: صهيونية الخزر وصراع الحضارات . الحلقة الثانية، عن موقع ديوان العرب الألكتروني، تصفح 7/3/2010.

[368←]

حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، م1، ص360.

[369←]
برهان الدين دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام، ص616.

[370←]
ندد القرآن بتلك الحادثة: ق/ 4: 5.

[371←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود و.. م4/ج1.

[372←]
ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 385– 460.

[373←]
حسب قاموس المنجد في اللغة والأعلام، فإن الشامانية هي مذهب ديني بدائي ينتشر في شمالي آسيا وأميركا الشمالية. يعتمد على سلطة الشامان أي الكهنة السحرة المتصلين بأرواح الطبيعة.

[374←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود و.. م2، ص 108– 109.

[375←]
عبدالله النجار، الصهيونيون خزر أرضهم روسيا لا فلسطين. بحث في مجلة القضايا المعاصرة، ص 19 كانون الثاني/ ديسمبر 1972.

[376←]
المسعودي: مروج الذهب، الجزء الأول، ص 212.

[377←]
طباعة 1903.

[378←]
أنظر بنيامين فريدمان : يهود اليوم ليسوا يهوداً، ص 19.

[379←]
تقول الموسوعة البريطانية: إن سقوط خزاريا يمكن أن يكون حوالى العام 1016، لصعوبة تحديد الأحداث في تلك المرحلة في تلك الأصقاع النائية.

[380←]
عبدالله النجار: المصدر نفسه، ص 19.

[381←]
المسيري: موسوعة اليهود..ج2- ص 74- 75

[382←]
أحمد إيبش: التلمود. ص 45.

[383←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود..ج2، ص 75.

[384←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص35.

[385←]
م.ن.، ص 33.

[386←]
أنظر أحمد إيبش: التلمود. ص 46.

[387←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص37.

[388←]

Istoria romaniei, P135-136

[389←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود، ص 36- 37.

[390←]
أنظر فدوى بنيعيش: الكنيسة البروتستانتية وعلاقتها بالمسيحية الصهيونية، موقع الجزيرة، تصفح 25/12/2009.

[391←]
يوحنا 4.

[392←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص34- 35.

[393←]
موقع القدس في العقيدة البروتستانتية، د. عبد التواب مصطفى – بتاريخ : 10- 12/ 2009 صحيفة بر مصر.

[394←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص 38.

[395←]
انظر: المصدر السابق، ص39.

[396←]
ترجمة الدويهي: المصدر السابق.

[397←]
أنظر محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص42.

[398←]
المسيري: موسوعة اليهود.. م 4، ص 33.

[399←]
للمزيد، مراجعة المسيري: موسوعة اليهود.. م 4، ص 9- 10.

[400←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص48.

[401←]
أنظر: اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص 33.

[402←]
Historical Review to American British Convicts Shipped to American Colonies

[403←]
راسل ديفيد لي (2005)، الثورة الأميركية في مستعمراتها الجنوبية، ص12.

[404←]
روبن بلاكبيرن: صناعة عالم جديد من العبودية، ص 460.

[405←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص55- 56.

[406←]
أنظر محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص88- 89 .

[407←]
توماس جيفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأميركية، 1801- 1809، كان محامياً، إضافة إلى تعدد هواياته، وزوجاته، وكان يملك مزرعة تحتوي على 600 من العبيد!.

[408←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص 56.

[409←]
مايكل موريسون آيه: العبودية والغرب الاميركي.. ص 13- 21.

[410←]
نايف ذؤابه: الغرب... ثقافة الصّراع وإبادة الآخر13/03/2006، عن المكتبة الإسلامية.

[411←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص89- 90 .

[412←]
أنظر عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود و.. م4، ص173- 175.

[413←]
المسيري: موسوعة اليهود و.. م5، ج2.

[414←]
كوستلر: القبيلة الثالثة عشرة، ص 62.

[415←]
كوستلر: القبيلة الثالثة عشرة، ص 139.

[416←]
أرم 51: 27.

[417←]
وليد محمد علي:صهيونية الخزر.. مصدر سابق.

[418←]
وليد محد علي: المصدر نفسه.

[419←]
المسيري: موسوعة اليهود..ج2، ص91.

[420←]

يهود كونكان وبومبي في الهند.

[421←]

المسيري: موسوعة اليهود. م 2، ص 87.

[422←]

أنظر:كوستلر : القبيلة الثالثة عشرة، ص148.

[423←]

م.ن.، ص179- 236- 237.

[424←]

م.ن.، ص 180.

[425←]

محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص43.

[426←]

Ilie Puia: Palestina–istorie si present, p 41.

[427←]

Idem

[428←]

Ilie Puia: Palestina–istorie si present, p44.

[429←]

Istoria lumii in date, Edit.enciclopedica romana, P312–313.

[430←]

أحد الضباط الإنكليز في حملة قوات التحالف التي قادها الجنرال الألماني أوغوستوس يوخموس.

[431←]

مذكرة 24/ 28، من السجلات الرسمية للحكومة البريطانية. وزعت بمعرفة وزير الدولة للهند.

[432←]

أيغر شَفَريفِتْش: لغز عمره.. ص 20 و /

Margolina Sonja: Das Ender der Lugen, Berlin 1992

[433←]

أيغر شَفَريفِتْش: لغز عمره.. ص 16- 17.

[434←]

أيغر شَفَريفِتْش: لغز عمره..، ص 19.

[435←]

م.ن.، ص 17.

[436←]

م.ن.، ص 19.

[437←]

أنظر المسيري: موسوعة اليهود و... م 7، ص 6- 7.

[438←]

الغيتو تعني المعزل، وتطلق على الحي اليهودي في أوروبا، في النمسا ابتداءً.

[439←]

محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص57.

[440←]

م.ن.، ص46- 47.

[441←]

ظافر بن خضراء: الصراع على المياه بين العرب واسرائيل، ص84.

[442←]

محمد السماك: المصدر نفسه، ص58- 59.

[443←]

محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص48.

[444←]

أنظر المسيري: موسوعة اليهود..ج4، ص 42- 43.

[445←]

ظافر بن خضراء: المصدر السابق، ص 32.

[446←]
دزموند ستيوارت: تاريخ الشرق الأوسط الحديث، ص158.

[447←]
جهاد بنوت: حركات النضال في جبل عامل، ص325.

[448←]
Ilie Puia: Palestina–istorie si present.Bucuresti 1992, p51

[449←]
اسماعيل الصمادي: نقد النص التوراتي، ص21.

[450←]
عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود، م 4، ص21.

[451←]
هرتزل: تاريخ الشعب اليهودي، المجلد 11.

[452←]
عبدالله النجار: مصدر سابق، ص 23.

[453←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص49.

[454←]
Ilie Puia: Palestina–istorie si present, Bucuresti 1992, p58

[455←]
محمد بن المختار الشنقيطي: المسيحية الصهيونية والسياسة الأميركية. موقع الجزيرة.

[456←]
Ilie Puia: Palestina–istorie si present, p118

[457←]
كان مارك سايكس تلميذاً للدكتور موسيز غاستر وهو لاهوتي يهودي روماني تبوأ مركز كبير حاخاميي السفارديم في لندن، زمن غاستر، تشرب سايكس مبادئ وروح الصهيونية المسيحية قبل أن يعيّن وكيلاً للوزارة في مجلس الحرب، (محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص51).

[458←]
فرانسوا جورج بيكو 1870– 1951، سياسي ودبلوماسي فرنسي، كان قنصلاً عاماً لفرنسا في بيروت، عين سنة 1915 مندوباً سامياً لشؤون الشرق الأدنى لمفاوضة الإنكليز على مصير المنطقة، التي نتجت عنها الاتفاقية المشؤومة، عمل بعد ذلك على التأسيس للانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

[459←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص51.

[460←]
ظافر بن خضراء: الصراع على المياه.. ص 32– 33.

[461←]
م.ن.، ص123– 124.

[462←]
آرثر هنري مكماهون (1862– 1949): هو الممثل الأعلى لملك بريطانيا في مصر، راسل خلال الحرب الأولى الشريف حسين حول المستقبل السياسي للأراضي العربية، وقد وعد باعتراف بريطانيا بالجزء العربي من آسيا إذا شارك العرب في الحرب ضد الدوله العثمانية.

[463←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص52.

[464←]
م.ن.، ص126.

[465←]
Ilie Puia: Palestina–istorie si present, p59.

[466←]
Ibid, p92.

[467←]
Ilie Puia: Palestina–istorie si present. Bucuresti, 1992, p75.

[468←]
IIbid, p86.

[469←]
أنظر المسيري: الموسوعة اليهودية و.. م4/ج1.

[470←]

هينيكيه كاردل: هتلر مؤسس إسرائيل، ص 14.

[471←]

م.ن.، ص 63.

[472←]

هينيكيه كاردل: هتلر مؤسس إسرائيل، ص 88.

[473←]

م.ن.، ص 96.

[474←]

م.ن.، ص 107- 131.

[475←]

كاردل: م.ن.، ص 146- 147.

[476←]

م.ن.، ص 139.

[477←]

سوف يعتقله الموساد في الأرجنتين سنة 1960 ويحضره إلى فلسطين المحتلة ليحكم بالإعدام.

[478←]

كاردل: ص 151.

[479←]

كاردل: ص 153 عن إيخمان: محاضر استجواب في محاكمة القدس في العام 1961.

[480←]

م.ن.، ص 154.

[481←]

للمزيد أنظر: كاردل، ص 17- 18.

[482←]

كاردل: المصدر نفسه، ص 223.

[483←]
كاردل: ص 239- 240.

[484←]
Craciun Ionescu: Zile fierbinti in Orient, p 107.

[485←]
Ilie Puia: Palestina-istorie si present, .Bucuresti 1992, p105.

[486←]
إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، عبء ثلاثة آلاف عام/ (شفريفيتش، ص 28).

[487←]
أنظر: ياسمين حاج: العبرية لتفادي بابل جديدة، السفير، كانون الأول 2014.

[488←]
شفريفيتش، ص21.

[489←]
محمد السماك: الصهيونية المسيحية، ص63.

[490←]
م.ن.، ص29.

[491←]
بول فندلي: من يجرؤ على الكلام، ص392.

[492←]
بول فندلي: من يجرؤ على الكلام، ص392.

[493←]
أنظر محمد الشنقيطي: المصدر السابق.

[494←]
عالم الآثار الصهيوني البروفيسور زئيف هيرتسوغ.

[495←]
أنظر المسيري: موسوعة اليهود و.. م 7، ص 278- 279.